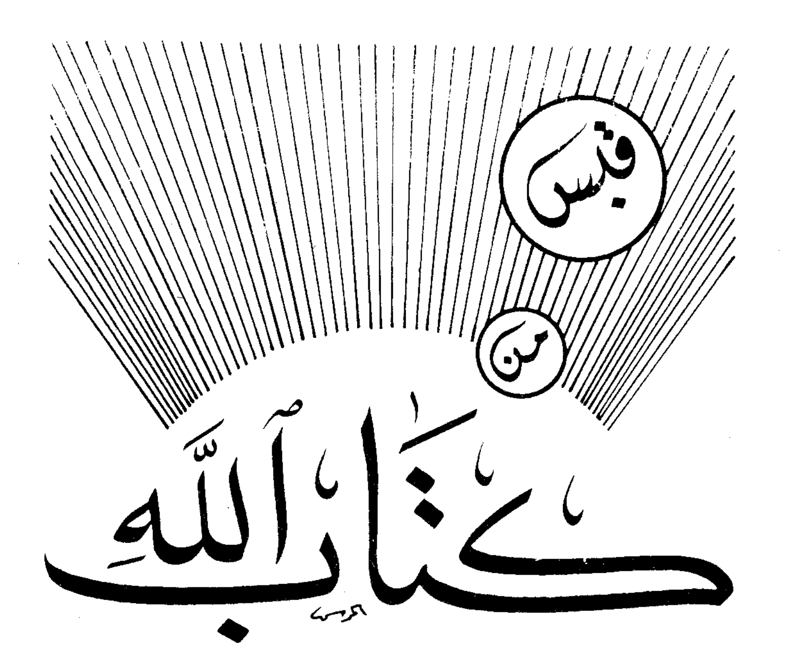


رجب - ذو الحجة ١٤٠٤ هـ

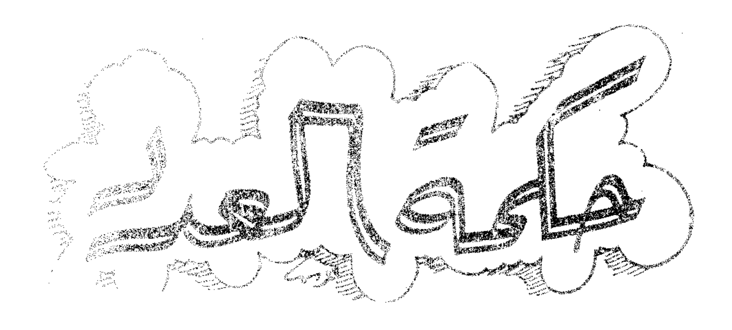
بسم الله الرحمن الرحيم



قال الله تعالى:

وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ
مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ
وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾
وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ
وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

من سورة هود



اشترِ نفسكَ اليومَ فإنّ السُّوقَ
قائِمةٌ والثّمن موجودٌ، والبضائِعَ
رخيصةٌ، وسيأتي على تلكَ السُّوقِ
والبضائع يومٌ لا تصِلُ فيها إلى قليلٍ
ولا كثيرٍ، ذلكَ يومُ التّغابُن
يومَ يعضُّ الظّالِمُ على يديهِ..

الفوائد لابن القيم.

كلمة التحرير

للدكتور صالح بن عبد الله العبود
رئيس قسم العقيدة بالجامعة الإسلامية

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأصلي وأسلم على محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

أما بعد : فإن هذا العدد من مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة هو بداية تحديد اتجاه المجلة إلى الاقتصار على نشر الأبحاث العلمية التي يسهم فيها أساتذة الجامعة ، ولذا جاء عددنا هذا حافلاً ببحوث علمية في العلوم الإسلامية والعربية لعدد من الأساتذة الفضلاء .

وما من شك أن البحث والنظر والاستدلال والتوثيق يفيد العلم وهو من خصائص الإسلام التي اقتبسها رواد الكشوفات العلمية فاستضاء بها العالم كله . وهذا المنهج من طرق التماس العلم . فسلوكه سلوكاً يلتزم بالإسلام وينبثق منه ويستند في دقته ونتائجه على عقيدته الحية كما يستمد مناهجه وخططه من شريعته هو سلوك راشد مشروع يرجى لصاحبه أن يسهل الله له به طريقاً إلى الجنة .

ذلك أن العقيدة الإسلامية هي التي جمعت الصدق والصلاح وسلمت من الضلال والفساد وتضمنت جميع الحكمة والعلم النافع والعمل الصالح وهذا هو سر السيادة وسبب العز والظهور والنصر والغلبة والفوز والسعادة في الدنيا والآخرة .

إن العقيدة الإسلامية هي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من الله تعالى تصديقاً وإقراراً وتسليماً وانقياداً بالقلب واللسان والجوارح وأعلى ذلك شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ثم إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلا ، وعموماً فالإيمان هو طاعة الله تعالى وتحقيق امتثال أمره وأمر رسوله ﷺ ابتداء من أعلى شعب الإيمان وهي شهادة أن لا إله إلا الله إلى أدناها وهي إماطة الأذى عن الطريق كما شرع الله في كتابه وسنة رسوله ﷺ والتعبد لله تعالى

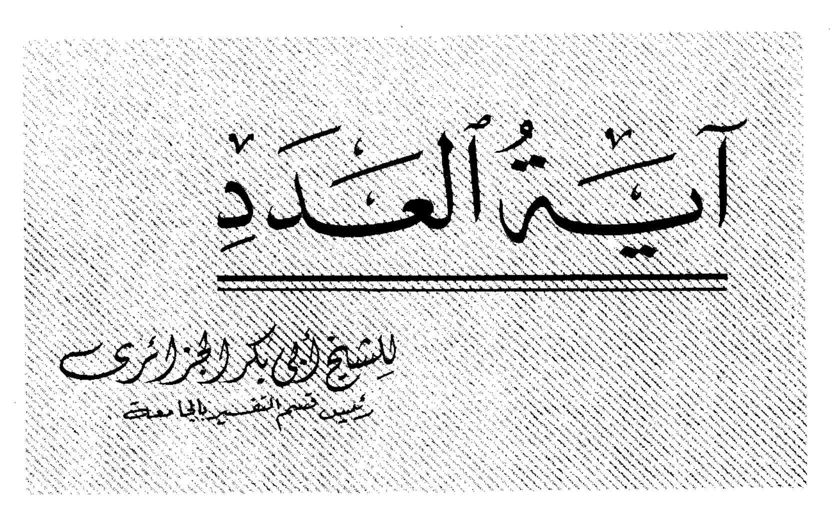
بهذه الطاعة حبا ورجاء وخوفاً لله ومنه سبحانه وتعالى تعبدا يصل إلى درجة المراقبة والاحسان وهى أن يعبد الإنسان ربه بذلك كأنه يراه فإن لم يكن يراه استشعر أن الله يراه شعوراً لا يغيب عن باله فى جميع أحواله التعبدية أو غالبها فيثمر تقوى الله فى السر والعلن .

إن عقيدة هذه ماهيتها تثمر الأمن والهداية فى الدنيا والآخرة وبقدر اعتقادها يتحقق ثمرها من الأمن والهداية فمن اعتقدها اعتقادا تاما كان له الأمن التام والهداية التامة ومن كان اعتقاده دون التمام حصل له من الأمن والاهتداء بقدر اعتقاده . قال الله تعالى : ﴿**الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**﴾ (الأنعام : ٨٢) .

وان من يتأمل الواقع الذى نعيشه فى المملكة العربية السعودية يدرك أن ما نحن فيه من أمن يفوق ما فيه أهل عصرنا من الدول وغيرها هو من أثر العقيدة الإسلامية التى دعا إليها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب وناصره آل سعود عليها ووازروه على إعلاء كلمة الله تعالى فاقبلوا على معرفة ما عند الشيخ من العلم والارادة حتى إذا عرفوا صدق موافقته للحق نفذوا ذلك بالسلطان والإداره والسيف والعزيمة يريدون ما عند الله تعالى ، فصنع لهم الله من عظيم صنعه ، وأظهر لهم من الدولة ما ظهروا به على سائر العرب ، وكلما كان الأمر على ذلك العهد المبارك كلما كان فى بحبوحة العز والنصر والظهور ، ولا نزال ولله الحمد ، ننعم بوارف ظلال عقيدة السلف الصالح المبنية على صحة العلم وصلاح العمل تحت دوحتي أهل العلم وأهل العمل من علماء الدعوة وأنصارها .

هذا وإن اقتصار المجلة على نشر البحوث العلمية الموثقة من الأساتذة الجامعيين ليرجى منه أن يجمع قوتها ويركزها على التخصص العلمى النافع فما ذلك إلا استجابة لمتطلبات المسيرة العلمية التى تسيرها الجامعة الإسلامية لتفى بسد بعض حاجات المجتمع الإسلامى العالمي للتخصص العلمي حسبما يمليه وجودها إذ هى مؤسسة إسلامية عالمية من حيث الغاية ، وعربية سعودية من حيث التبعية ، ذات شخصية اعتبارية مستقلة ، ومن أهدافها إعداد البحوث العلمية وترجمتها ونشرها وتشجيعها فى مجالات العلوم الإسلامية والعربية خاصة ، وسائر العلوم وفروع المعرفة الإنسانية التى يحتاج إليها المجتمع الإسلامى عامة ، وتجميع التراث الإسلامى والعناية بحفظه وتحقيقه ونشره .

ونسأل الله التوفيق لما يحبه ويرضاه وأن يسلك بنا سبيل أتباع رسوله ﷺ أهل البصيرة والصدق والاخلاص فى العلم والعمل وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه .



قوله تعالى : ﴿الحمد لله رب العالمين﴾

الآية (١) من سورة الفاتحة

بسم الله والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله. محمد وآله وصحبه ومن آمن به واهتدى بهداه. . .

وبعد : فإن قوله تعالى : ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ هو الآية الأولى من كتاب الله تعالى (القرآن الكريم) هذا على ما رجحناه، وإلّا فعند الشافعي رحمه الله أن الآية الأولى هي بسم الله الرحمن الرحيم. وحينئذ فالحمد لله رب العالمين هي الآية الثانية. وعلى كلا المذهبين فآيات الفاتحة سبع لاغير؛ لقوله تعالى : ﴿**ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم**﴾. (الحجر). وقوله ﷺ : « هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيت ». (الصحيح) .

وبناءً على أن البسملة آية من الفاتحة فالآية السابعة هى : ﴿**غير المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾. وإلّا فالآية السابعة هى : ﴿**صراط الذين أنعمت عليهم. غير المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾ .

وفائدة هذا الخلاف أن مَن رآى البسملة آية من الفاتحة وجب عليه أن يقرأها كلما قرأ الفاتحة فى الصلاة، وإلّا بطلت صلاته. ومَن لم يَرَ أنها آية قرأها أو لم يقرأها فصلاته صحيحة إلا أن قراءتها سراً فى الصلاة الجهرية أحوط وأكثر أجراً .

ومنشأ هذا الخلاف : أن الفاتحة نزلت مرتين مرةً بالبسملة ومرة بدونها والمقصود من البسملة هو التبرك بذكر اسم الله تعالى والاستعانة به على التلاوة والصلاة فلذا قراءتها أرجح من عدمها، وإنما نظراً لحديث أنس فى الموطأ والصحيحين : «أنه صلى وراء رسول

الله ﷺ ووراء أبي بكر وعمر فكانوا يستفتحون الصلاة بالحمد لله رب العالمين» ، فإن الاختيار أن تقرأ البسملة سراً، ثم يجهر بالقراءة فى الصلاة الجهرية .

بعد هذه المقدمة نشرح الآية الكريمة فنقول :

شرح الكلمات فى الآية :

الحمد : «الـ» فيها لاستغراق الجنس أى أن عامة ألفاظ الحمد وسائر كلمات الثناء والمحامد التى عرفها الناس، وما لم يعرفوا منها هى لله تعالى ، والله مستحق لها جميعها . وفي الحديث: «اللهم لك الحمد كما أنت أهله» .

والحمد : هو الوصف بالجميلِ الاختيارى والمدح مثله إلا أنه يُفارقه فيكون بالجميل غير الاختيارى كأن نحمد زيداً فنقول : زيد ذوخلق فاضلٍ، ونَمدَحُه فنقول : زيدٌ جميل الوجه معتدل القامة. فكان قولنا : زيد ذوخلق فاضلٍ حمداً؛ لأنه على الجميل الاختيارى، وكان قولنا : زيد جميل الوجه معتدل القامة مدحاً؛ لأن جمال وجهه واعتدال قامته حصل له بالاضطرار لا بالاختيار، أي لم يكن هو الذى جمل وجهه وعدل قامته بل الفاعل لذلك هو الله تعالى بخلاف حسن خلقه فإنه حصل له بكسبه واختياره. وصفات الجمال فى الله تعالى كلها اختيارية. لذا يَحسن أن نقول حمدنا الله تعالى ونحمدُه، ولا نقول مدحنا الله تعالى ونمدَحُه، كما يحسن أن نقول : مدحنا زيداً نمدحه، ولا نقول : حمدنا زيداً نحمده لما علمنا من أن الحمد هو الوصف بالجميل الاختيارى، والمدح هو الوصف بالجميل الاختيارى أو الاضطرارى .

والشكر كالحمد، وفى الحديث الشكر رأس الحمد. إلا أن الشكر هو المدح بالفواضل وهى النعم المتعدية. والحمد هو المدح بالفضائل. وقد يجمع بينها فيقال زيد جميلٌ كريم تصدق بألف. ولذا فالحمد يكون باللسان فقط والشكر يكون باللسان والقلب والجوارح كما قال الشاعر :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة   يدى ولسانى والضمير المحجبا

والشكر بالقلب معناه اعتراف القلب بنعمة المنعم فيحمده عليها بلسانه ويثنى بها عليه بتكراره .

لله : اللام فى لله هى لام الاستحقاق والملك كقولنا الجائزة أو الدار لعمرو أي أن الجائزة مستحقة لعمرو والدار ملك له. وجميع المحامد مستحقة لله تعالى ملك له، فليس

لغيره من سائر خلقه حق فيها ولا استحقاق ولا ملك. وسنبين ذلك فيما بعد إن شاء الله .

الله : اسم الربّ تبارك وتعالى وهو عَلَمٌ على ذاته عز وجل، ولله تعالى مائة اسم إلا اسماً واحداً للحديث الصحيح. وأعظم تلك الأسماء الحسنى هو اسم ﴿**الله**﴾ وإذا نودى به تعالى قد يحذف حرف النداء «يا» ويُعوض عنه ميم مشدَّدة تلحق آخره فيقال : اللَّهمّ. وقد ينادى بدون إلحاق حرف الميم فى آخره، فتقطع همزة الوصل فيه فيقال : ياألله. وهو واسم الرحمان لا يسمى بهما غير الرب تبارك وتعالى. وأما لفظ الربّ فقد يطلق على غير الله تعالى مضافاً نحو : قولنا رب الدار، ورب السلعة بمعنى مالكها، ويقال : فلان ربّ، أو الربّ بلا إضافة. ومن خصائص اسم الجلالة ﴿**الله**﴾ أنه يوصف ولا يوصف به فيقال : الله الرحمن الرحيم، أو العزيز الحكيم. ولا يقال الرحمن الله، أو العزيز الله، ولذا رجح بعض أهل العلم أن يكون الاسم الأعظم لله تعالى هو ﴿**الله**﴾ أو مع الحيّ القيوم. ﴿**الله لا إله إلا هو الحيّ القيوم**﴾. وذلك للخبر . . .

ومعنى ﴿**الله**﴾ : المعبود بحق، إذ الأصل فى تركيبه : إله فحذفت الهمزة منه وعرّف بال فصار ﴿**الله**﴾ وجُعل عَلماً على ذات الرب الواجب الوجود سبحانه وتعالى. وعلى القول بأنه مشتق غير مرتجل فإنه مأخوذ مِن أَلهه يأله إلٰهة وألوهية : إذا عَبَدَه مُحِباً لهِ غايَة الحب مُعظما له غاية التعظيم خاشيا إياه غاية الخشية .

ومادة أَله جاءت فى لغة العرب لمعان كثيرة منها أَلِهَ إذا عبد، وأله إذا تحيرّ، وإله إذا فزع، وإله إذا سكن. وكل هذه المعانى صالحة لاسم الله إذ هو تعالى المعبود بحق. قال تعالى : ﴿**وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله**﴾ أى معبود فيهما معاً. والله تعالى تتحيَّر العقول فى معرفة كنه ذاته وتضطرب وتقر بالعجز؛ إذ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير، وتفزع إليه الخلائق إذا نزل بها أمر تدعوه وتتضرع إليه ليكشف عنها ما نزل بها، وتسكن إليه القلوب المؤمنة وتطمئن بذكره قال تعالى : ﴿**ألا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾ فلذا كان أفضل أنواع الذكر لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير .

رَبّ : الربّ اسم من اسماء الله تعالى، لا يصح اطلاقه على غير الله تعالى إلا مضافاً كما تقدم بيانه. ولفظٌ يطلق ويراد به معان كثيرة فيكون بمعنى الخالق، الرازق، المدبر، المصلح، المربى، المعبود، ويكون بمعنى السيد والمالك. وكل هذه المعانى مستحقة لله تعالى فلا تطلق على الحقيقة إلا عليه عز وجل وتطلق دون الخالق والمعبود على غير الله

تعالى إطلاقا إضافياً غير حقيقى ، فيقال فلان مصلح أو مربٍ أو سيد أو مالك . نحو فلان مصلح السيارات ، ومربى الأولاد ، وسيد البلد ، ومالك الدار ، وما إلى ذلك . ومن شواهد اللغة على اطلاق لفظ الربّ على المعبود قول الأعرابى ، وقد وجد ثعلبا شاغراً رجله يبول على صنم كان يعبده :

أربٌ يبول الثعلبان برأسه ... لقد ذل من بالت عليه الثعالب

وتركه كافراً به فلم يرجع إليه أبداً . . .

وللأستغاثة باسم الرب تعالى أثرٌ طيب إذا كانت بلسان صادق وقلب سليم من الشرك إذ قال رسول الله ﷺ : «إذا قال العبد يارب يارب ثلاثا ، قال الله تعالى عبدى سل تعط» . رواه ابن أبي الدنيا فى الدعاء عن عائشة رضى الله عنها .

العالمين : العالمين جمع واحِدُهُ عالَم ، والعالم كل ما سوى الله تعالى ، وسمى كل شىء من المخلوقات عالماً كعالم الملائكة وعالم الجن وعالم الإنسان ، وعالم الدواب وعالم الطير وعالم النبات ، وعالم السموات ، لأنه علامة على خالقه ومدبره ومصلحه وحافظه عز وجل .

ومن هنا كان ربّ العالمين معناه : خالق الخلائق ومالكهم ، ومدبر وجودهم وحياتهم ، ومعبودهم الحق الذى لا معبود لهم على الحقيقة غيره سبحانه وتعالى .

كان ذلك شرح مفردات الآية الكريمة تفصيلاً . وأما تفسير الآية إجمالاً فإنه :

(يخبر تعالى عباده بأن له الحمد كله ، استحقه بخلقه العوالم كلها ، وبملكها كلها ، وتدبيرها كلها ، والقائم على إصلاحها وتربيتها كلها فلا ربّ لها غيره ، ولا معبود حق لها سواه . وضمن هذا الإخبار الأمرُ بحمده تعالى والثناء عليه بلفظ الحمد لله . وأنه تعالى يحب أن يحمد على آلائه ، كأنما قال : قولوا الحمد لله ربّ العالمين) . . .

هذا معنى الآية وأما ما فيها من هداية وأحكام فإلى القارىء الكريم ذلك إزاء الأرقام التالية :

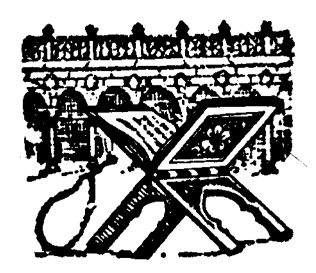
(١) فضل «**الحمدُ لله**» حيث قالها الله تعالى لنفسه وأمر بها عباده أن يقولوها له ، وفى الحديث[١] الصحيح الحمد رأس الشكر ، وأن الله تعالى يحب من العبد إذا أكل الأكلة أو شرب الشربة أن يحمده عليها . وما من عبد أنعم الله عليه بنعمة فقال فيها : الحمد

(١) أورد هذه الأحاديث ابن كثير فى تفسير سورة الفاتحة فليراجعها من شاء .

لله ، إلا كان الذى أعطى أفضل مما أخذ . وما من أحد أحب إليه الحمد من الله تعالى ، ولذا حمد نفسه بنفسه فقال الحمد لله .

(٢) أن الحمد لا يكون إلا لمن له فضائل أو فواضل اقتضت حمده فلا يحل حمد أو مدح من لا فواضل له ولا فضائل ؛ إذ مدح البخيل بالكرم زور، ومدح السخيف بالكمال كذب . ومدح الجبان بالشجاعة باطل، ومدح الظالم بالعدل حرام . ودليل هذه الحقيقة أننا بالاستقراء والتتبع ما وجدنا الله تعالى حمد نفسه إلا وذكر موجب الحمد ومقتضاه مثل الحمد لله رب العالمين، الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب . . .

(٣) وجوب قول الحمد لله فى الصلاة ومشروعيته بالندب عند حصول كل نعمة وتجددها، ومن ذلك عند لبس الثوْب والفراغ من الأكل أو الشرب ، وعند دخول المسجد والخروج منه « بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسوله » وعند افتتاح الخطبة ، وختم الدعاء . «سبحان ربك ربّ العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين» وعند ركوب الدابة أو السيارة والطائرة والسفينة للآية . ﴿**لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه**﴾ . ولازم ذكر النعمة شكرها والحمد لله رأس الشكر. اللهم أجعلنا من الحامدين لك الشاكرين لإنعامك وإفضالك بطاعتك وطاعة رسولك ﷺ . . .



أَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَى الْمُكَلَّفِ .. عِبَادَةُ اللهِ تَعَالَى

وُضُوح ذَلِكَ مِنْ كِتَابِ اللهِ وَدَعَوَاتِ الرُّسُلِ

٢

للشيخ عبد الله الغنيمان
رئيس قسم الدراسات العليا

القسم الثانى : توحيد التوجه والقصد بالنفس واللسان والقلب رغبة ورهبة بالعبادة لله وحده والخلوص من الشرك جليله ودقيقه ، فإذا نوى المرأ بمايأتى وما يترك التقرب إلى الله تعالى وطلب ما لديه صار موحداً له وبصرفه شيئاً من ذلك لغير الله يكون مشركاً علم أنه شرك أو لم يعلم إذ أساس العبادة سواء كانت لله أو لغيره هو توجه القلب بالذل والخضوع التام المستولى على الخاضع من القوى الغيبية والأمور الخفية التى يرهبها ممن يذل له أو يطمع فيها على غير الأسباب التى يجرى عليها نظام الكون على الدوام سواء كانت تلك القوى الخفية وهمية أو حقيقية ، هذا هو باعث العبادة فى الغالب ، والذى يحمل العابد عليها بالتوجه إلى معبوده بالدعاء وما يتبعه من الأعمال والأقوال ، فرع عن وجودها ودليل على عبودية من صدرت منه ، لأن التوجه إليه شاهد على اتخاذه إلها ، والأعمال هى شواهد لله ولعباده على الخلق ، ودليل على صدق ما أدعى أو كذبه مع أن الله لا يخفى عليه خافية .

وما كان من هذا الذل والخضوع خال عن المحبة والتعظيم ، وبدافع الأمور الظاهرة التى تجرى عليها السنن الكونية والأسباب التى ربطها الله بمسبباتها ونتائجها مما يدخل تحت مقدور من يخافه العباد ، أو من يرجونه من الخلق فهو من تتمة العبادة غير أن ما كان جارٍ منها على الطبائع لا يقدح فى إخلاص من داخله شىء منه ، لأن الأنبياء فمن دونهم كانوا يخافون من عدوهم ، ومن يقدر على أذاهم ، ويرجون من يملك أن ينفعهم ويعاونهم من اتباعهم وغيرهم ، مع اعتمادهم على الله فى حصول مطلوبهم وهذه من الأسباب التى جعلها الله مقتضية وجود مسبباتها .

ولم يسجل التاريخ نبأ كائن ينكر وجود إله عليٍّ قدير ، حتى العقائد الوثنية التى كانت ومازالت تؤمن بآلهة متعددة ، حتى هذه تدين بالتقديس لإله واحد من آلهتها وتؤمن بأنه فوق الكل عزة وعظمة وقدرة ، وهو مالك الملك رب السماوات والأرض وأنه رب الأرباب ، ومالك كل شىء ، إلّا أنهم أشركوا بعض عباده معه فى الدعاء والتوجه إليهم بصفتهم مقربين إليه

ملكهم ما يطلب منهم، بزعمهم ولكن الذى وقف في وجه دعوة الرسل أمم كانت تعبد مع الله آلهة أخرى.

ولهذا لم تكن رسالة الرسل فى دعوة الناس إلى الإيمان بوجود الله أو ربوبيته، إذ كان هذا مستقراً فى القلوب وإنما كانت دعوة الرسل إلى توحيد الله فى إلهيته بأن يعبد وحده لا شريك له والتخلى عما اتخذوه معبوداً من دون الله تعالى، وأولياء يلجأو ن إليهم وشفعاء يعبدونهم بالحب والدعاء والخوف والرهبة والرجاء قال الله تعالى: ﴿**ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبد الله واجتنبوا الطاغوت**﴾. والطاغوت كل من أضلك عن سبيل الله، أو صرفك عن طريق الحق، أو احتكمت إليه فى دينك بحكم يحكم فيه بالهوى أو عبدته من دون الله، قال تعالى: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾ لم يقل لا رب سواى لأن الناس جميعاً يوحدون الله فى ربوبيته ولم يقل إنى إله لأنهم جميعاً يؤمنون بذلك ولكنه قال: ﴿**لا إله إلا أنا**﴾ وأمر بعد ذلك بعبادته ليوحده الناس فى الألوهية ويعبدوه وحده وهذه رسالة الرسل وهى توحيد الله فى إلهيته بأن يعبدوه وحده لا شريك له، وفى يوم النداء من الطور، فى تجلى النور، كان أول ما أمر به موسى أن يسمعه ويطيعه، ويبلغه ﴿**إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى**﴾ (سورة طه: ١٤). وملاك ذلك أن لا يعبد إلا الله، وأن لا يعبده إلا بما شرع، فمن ابتغى بعمل غير وجه الله، فهو مشرك، ومن عَبَدَ الله وحده، بما لم يأذن به الله ولم يشرعه فهو مبتدع ضال، ولا يكون الدين لله خالصا إلا إذا كان كل ما نعمله ونقوله هو لله خالصا وسواء كان من شئون الدين أو من شئون الحياة مادمنا نرجو الثواب من الله تعالى عليه، قال ﷺ يقول الله عز وجل: «من عمل عملاً اشرك معى فيه غيرى تركته وشركه»(١) فذكر العمل مطلقاً غير مقيد بكونه عمل دينى أو دينوى، ليكون وجود العبد كله فى الحياة والاتجاه وغيره لله وحده، وقال ﷺ: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح الدجال قالوا بلى يارسول الله؟. قال: الشرك الخفى يقوم الرجل فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل»(٢) فمجرد تزين الصلاة لأجل ملاحظة عيون الناس بالاعجاب شرك بالله، فتوحيد الله لا يتحقق إلا أن يكون ظاهر الإنسان وباطنه سره وعلانيته عمله وقوله دينه ودنياه كله لله وحده، فيجب أن يكون هوى قلبك وباعث عملك وغاية جهادك فى الحياة لله وحده، وقد يكفر الإنسان بمعبود فى لسانه وقلبه مستكين له ومملوك عليه، وتشهد عليه أعماله بأنه عبد الدينار وعبد الدرهم، أو عبد الشيطان، ألم تر إلى قول إبراهيم عليه السلام: «ياأبت لا تعبد الشيطان» وما كان آزر

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه أنظر مسلم بشرح النووى جـ١٨ ص١١٥، وابن ماجة فى سننه جـ٢ ص١٤٠٥.
(٢) أحمد. أنظر المسند جـ٣ ص٣٠ وسنده صحيح.

يسمى معبوده شيطاناً ولا يؤمن بأنه شيطان، ولكن الذى يصده عن عبادة الله هو الشيطان، أو ولى الشيطان، فهو عونه وأخوه قال الله تعالى : ﴿**ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان. . .**﴾ (يس : ٦٠) .

وأنواع العبادة كثيرة متعددة : «وهى اسم لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة»(١) وتكون فى القلب كالإخلاص فى الأعمال، واليقين بالأمور الغيبية، والخوف والرجاء، والتوبة، والندم على ما صدر من سىء الأعمال، ومنها ما يدفعه قلب العبد على اللسان من الدعاء، والنداء والاستغاثة ممن يرجوويتوكل عليه لقضاء حاجة، أو تفريج كربة، ومنها ما يكون باللسان والقلب والجوارح، كالمحبة، فمن أشرك فى الحب الذى لا يصلح إلا لله، مع الله غيره، فقد جانب التوحيد، وأتى بما يضاده، قال تعالى : ﴿**ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله**﴾، (سورة البقرة : **١٦٥**) . ومنها الصلاة والركوع والسجود والذبح قال تعالى : ﴿**فصل لربك وأنحر**﴾ . (سورة الكوثر : **٢**) . وقال جل وعلا : ﴿**ياأيها الذين آمنوا اركعوا وأسجدوا وأعبدوا ربكم**﴾، (سورة الحج : **٧٧**)، ومنها الطواف، فلا يطاف إلا فى بيت الله، ولله وحده، قال تعالى : ﴿**وليطوفوا بالبيت العتيق**﴾، (سورة الحج : **٢٩**)، وأنواعها كثيرة يصعب حصرها جدا .

وضد التوحيد الشرك وهو أقسام ثلاثة شرك أكبر بأن يجعل شيئاً من العبادة لله وغيره وهذا فاعله إذا مات ولم يتب منه يخلد فى النار، كما قال تعالى : ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾ . (سورة النساء : **٤٨**)

والثانى شرك أصغر مثل يسير الرياء وقوله لرجل ما شاء الله وشئت والحلف بغير الله وما شابه ذلك، ولو كان المحلوف به خاتم النبيين، وأشرفهم ﷺ .

الثالث الشرك الخفى وهذا قد يكون أكبر وقد يكون أصغر، حسب الباعث عليه ولاسترسال معه، ومن أنواع الشرك أن يتوجه الإنسان بالدعاء إلى الله تارة وإلى غيره أخرى سواء قصد ذلك على سبيل الوساطة، أوطلب منه أي من غير الله ـ غرضه، بالنداء والاستغاثة واللجاء إليه والتمسكن له، فمن فعل ذلك فقد جعل لله عديلا، ومساويا، سواء سمى ذلك توسلا أو شفاعة، وسواء كان المتوسل به نبيا، أووليا، أوعدوا طريدا، فكل ذلك شرك ينافى التوحيد، ومن الأعمال القبيحة سؤال الله بجاه مخلوق، أوبحقه وعمله لأن من سأل الله بذلك فقد اعتقد أنه يؤثر على الله، كالشفاعة على الرؤساء، ولهذا لا يتوسلون ويسألون الله إلاّ بجاه من يعتقدون له الجاه العريض، والمكانة الحاملة لله على أن يعطيهم

(١) قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله . أنظر الرسالة المعروفة بالعبودية فاتحتها .

حاجتهم بزعمهم والجاه والمنزلة أصبحت فى عرف الناس ولغتهم هى النفوذ والقوة المؤثرة، على من يتوجه إليه لتحصيل خيره، أو دفع شره، فعلى هذا ما يسميه توسلا وزورا معيدوا الوثنية، من منتحلى الإسلام، وهو على لغة القرآن والعرب، العبادة بعينها، فإذاً التوسل الذى يعنونه هو الشرك الأعظم وهو يشمل عندهم .

أولاً : الطواف عند قبور من يقدسونهم، وتقبيلها وأخذ ترابها للاستشفاء به والتبرك بها، وذبح الذبائح لهم، لأنهم يرجون بذلك أن يعطوهم، أضعاف ما قدموا لهم .

الثانى : ما ينفقونه فى هذا السبيل، من الحرث والأنعام، طمعا أن يبارك لهم بدعواتهم، وأسرارهم ونفحاتهم الإلهية فى أموالهم وأنفسهم وذرياتهم .

الثالث : عمارتهم قبورهم، بالبناء العالى، والقباب المزخرفة، والستائر الفاخرة، والإضاءة عليها وبذل المال فى هذا السبيل، وتحمل مشقات السفر إليها .

الرابع : الحلف بهم، والخوف منهم، والتخويف بهم، وتحذير بعضهم بعضا من عقابهم، لاعتقادهم أنهم يقدرون على ذلك، كما يعتقدون فيهم النفع لمن يحبهم، ويفى لهم بالنذور، ويزور أوثانهم .

الخامس : توجههم إليهم بالدعاء والنداء والاستغاثة والاستعانة بهم إذا نزل بهم ضر، أو مسهم كرب .

السادس : سؤالهم الله بحقهم، وتوسلهم إليه بجاههم ومنزلتهم، وما لهم عنده من الدرجات .

السابع : تعبدهم وصلاتهم عند قبورهم، وتفضيل البقاع التى يوجدون فيها، اعتقادا منهم أن الدعاء عندهم مقبول، ومستجاب لما لهم من القداسة. وهذا كله شرك بالله وخروج عن دينه الذى جاءت به رسل الله كلهم .

الثامن : السفر إلى مشاهدهم، قصدا للعبادة عندهم، لاعتقادهم أنها فى تلك الأماكن أفضل منها فى المساجد، وهذا كله مناقضة لشرع الله، الذى جاء به خاتم الرسل صلوات الله وسلامه عليه، وإعادة لدين الوثنية، ومن المؤسف أن تصدر مثل هذه الأفعال من خريجى الجامعات، والمتصدرين للفتوى والتوجيه .

ومما يتعلق به المشركون قديما وحديثا الشفاعة :

الشفاعة : لقد كانت الشفاعة فى قديم الزمان وحديثه طريقا إلى الشرك، ثم أصبحت تطلق على الشرك بعينه كما قال الله تعالى : ﴿**ويعبدون من دون الله مالا يضرهم**

ومـالا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ ، والشفاعة مأخوذة من الشفع ، وهى ضم طلب الشـافـع إلى طلب المشفـوع له ، ومـا عبد المشركون فى كل عصر صالحيهم إلا بحجة أنهم يشفعـون لهم عنـد الله ، وعملهم لهذه الغـاية صادر بلا ريب عن اعتقادهم فى أوليائهم أنهم يملكـون الشفـاعـة ، ولـوكان عنـدهم عقـل لأخلصوا العبادة لله وحده ، لأن الشفاعة وغـير هـا ملكـه لا يشـاركه فى ذلك أحد ، وهو الرحمن الرحيم الغفور الودود ، وهؤلاء يدعون العبيـد الأمـوات ، أن يمنحـوهم ما يملكـه الله وحده ، ولا يسئلون مالك الملك بدل إذلالهم أنفسهم لأصنـامهم وطـواغيتهم ، وإذا كانـوا لا يؤمنـون بالقرآن ، ايجوز فى عقل الإنسان أن يطلب الشيء ممن لا يملكـه ، ان عقـل المشـركـين هو الـذى أباح للعبيد أن يسئلوا الصخرة الصماء رحيق الجنة والميت امداد البركات ، فى الحياة ، والعاجز الضعيف الفقير أن يهب لهم القدرة ، والقوة والغنى ، وزين الشيطان لهم ، أن رحمة القبور ، أقرب إليهم من رحمة الخلاق الرحيم ، فاستجاروا بمن لا يجير نفسه ، من دود الأرض ، واسترحموا من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا .

إن الشفـاعـة ملك خاص لله وحده ، فمن الشرك القول : «نسئلك الشفاعة يارسول الله» لأن السـائـل ذلـك يسألـه ما يملكـه الله وحـده ، فيحبب أن يقول : اللهم أجعلنا ممن يستحق شفـاعـة نبيـك . بيـد أن الشيطان زين لعباده أنه لا فرق بين الأمرين ، وأن التفريق بينهـما تزمت وتنطـع ، فى الـدين قال الله تعـالى : **﴿قـل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكـون مثقـال ذرة فى السـماوات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾** . نفى الله عمن سواه كل ما يتعلق به المشركون ، نفى أن يكون لغيره ملك أو قسط من الملك ، أو يكون عوناً لله ، فلم يبق إلا الشفاعة ، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب كما قال : **﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾** فالشفاعة التى يظنها المشركون ، منفية **﴿من ذا الذى يشفع عنده إلا بأذنه﴾** . وأخبر النبى ﷺ أنه لا يبدأ بالشفاعة أولا ، بل يسجد لله ويحمده ثم يأذن له فى الشفاعة بقول الله له اشفع . وقال أبو هريرة : من أسعـد النـاس بشفـاعتك يارسول الله ؟ قال من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه»[1] فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص وهى محرمة على المشرك ، وحقيقتها تفضل الله سبحانه على أهل الاخـلاص بمغفـرتـه بواسطـة دعـاء من أذن له أن يشفـع ليكـرمـه ، وينال المقام المحمود ، فالشفاعة التى نفاها القرآن ما كان فيها شرك ، والتى اثبتها هى ما كانت بإذنه ، ولمن رضى عنه ، وقد بين النبى ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والاخلاص .

---

(١) فتح البارى جـ١ ص١٩٣ وجـ١١ ص٤١٨ .

منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله

فيه الحكمة .. والعقل



للدكتور ربيع بن هادي مدخلي

رئيس قسم السنة بالدراسات العليا بالجامعة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله، فلا مضل له، ومن يضلل، فلا هادى له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون .

وبعد : فإن الدافع لاختيار هذا الموضوع عدة أمور من أهمها :

أولاً : أن الأمة الإسلامية اختلفت فى مناح شتى عقدية وغيرها وتفرقت بها السبل، فنزل بها من الويلات - نتيجة لهذا التفرق ولعدم الاحتكام فى قضايا الخلاف إلى كتاب الله وسنة نبيهم - مالا يعلم مداه وفداحته إلا الله من تمزق صفوفهم وتأجج نيران الخلاف والخصومات فيما بينهم، ثم تغلب أعداء الإسلام على أوطانهم واستباحتهم لبيضتهم واستعبادهم واستذلالهم .

ثانيا : حدوث تيارات فكرية برزت فى الساحة الإسلامية بطرق ومناهج، لإصلاح حال الأمة وانقاذها :

- منها السياسى .

ومنها الفكرى .

ومنها الروحى .

وكل واحد من هذه التيارات يدعى ممثلوه أنه المنهج الإسلامى الحق الذى يجب اتباعه والذى لا ينقذ الأمة سواه .

هذان السببان مع أسباب أخر دفعتنى إلى القيام بواجب من أعظم الواجبات وأهمها

ألا وهو بيان منهج الأنبياء فى الدعوة إلى الله فى ضوء الكتاب والسنة وبيان مزاياه التى لا يشارك فيها وبيان ضرورة اتباعه وحده لأنه الطريق الأوحد الذى يوصل إلى الله ويكسب رضاه وهو السبيل الأوحد لانقاذ الأمة والموصل إلى السيادة فى الدنيا والسعادة فى الأخرى .

نص المحاضرة مع اضافات واسعة ومهمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وبعد :

فإن الله تعالى الخالق البارىء المصور العليم الحكيم قد خلق هذا الكون العظيم ودبره ونظمه بعلمه المحيط وحكمته العالية وقدرته الشاملة، لحكم جليلة وغايات نبيلة بعيدة كل البعد عن العبث والباطل واللعب .

قال تعالى : ﴿**وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين، ما خلقناهما إلا بالحق، ولكن أكثرهم لا يعلمون**﴾ (الدخان: الآيتان ٣٨، ٣٩).

وقال تعالى : ﴿**حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم، ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون**﴾ (الاحقاف: ١-٣).

وخلق الجن والإنس وبين الحكمة العظيمة والغاية الكريمة التى خلقهم من أجلها. قال تعالى : ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين**﴾. (الذاريات: ٥٦-٥٨).

وقال تعالى : ﴿**أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم**﴾. (المؤمنون: ١١٥-١١٦).

وقال تعالى : ﴿**أيحسب الإنسان أن يترك سدى**﴾ (القيامة: ٣٦). أى لا يؤمر ولا ينهى .

وقال تعالى : ﴿**تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذى خلق الموت والحياة، ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور**﴾. (الملك: ١-٢). فأخبر تعالى أنه ما خلقهم إلا للابتلاء، والاختبار ليتبين أيهم أحسن عملاً بانقياده لمنهج الله واتباعه لرسل الله .

وقال تعالى : ﴿**يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء، وأنزل من السماء ماء، فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون**﴾. (البقرة: ٢١-٢٢). فأمرهم أن

يقوموا بالغاية التى خلقهم من أجلها، وبين لهم أنه قد وفر وهيأ لهم كل الأسباب التى تساعدهم على القيام بمهمتهم العظيمة، وحذرهم من الإنحراف عن هذه الغاية، والتنكر لهذه النعم الجليلة، ﴿**فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون**﴾ .

وقال تعالى : ﴿**ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا**﴾ . (الاسراء : : ٧٠)، وما أكرم الله الإنسان هذا الاكرام وأحله هذه المنزلة الرفيعة إلا لعظم الغاية التى خلق من أجلها، ألا وهى عبادة الله وحده وتعظيمه وتنزيهه، عن كل النقائص وعن اتخاذ الشركاء والأنداد تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وكثيراً ما نوه الله بكرامة الإنسان ومنزلته فى هذا الكون، وأن هذا الكون، قد سخر لراحته وسعادته، حتى يؤدى وظيفته ويقوم بغايته التى خلق من أجلها على اتم الوجوه وأكملها .

قال تعالى : ﴿**قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة، وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانيةً من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال، الله الذى خلق السماوات والأرض، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره، وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين، وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار**﴾. (ابراهيم : **٣١-٣٣**) .

اكرام الإنسان بالعقل والفطره

وإلى جانب هذه النعم العظيمة والاكرام الفائق لهذا الإنسان فقد منحه نعمة العقل الذى يرفعه إلى مستوى التكاليف الإلهية ويؤهله لإدراكها وفهمها، وزوده بالفطرة التى توائم مايأتى به رسل الله عليهم الصلاة والسلام من الوحى الكريم ومن الدين الحق الذى يشرعه الله وينهجه لهذا الإنسان على السنة الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

قال تعالى : ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾ (الروم : ٣٠) .

(١) الفطر: الابتداء والاختراع، والفطرة: الحالة، كالجِلسةِ والرِّكبةِ.

وقال رسول الله ﷺ : « ما من مولود يولد إلا على الفطرة ، فأبواه يهودانه أوينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء» ، ثم يقول أبو هريرة رضى الله عنه : ﴿**فطرت الله التى فطر الناس عليها . . .**﴾ الآية[1]

وعن عياض بن حمار، المجاشعى رضى الله عنه أن النبى ﷺ خطب ذات يوم ، فقال فى خطبتـه : «إن ربى عز وجـل أمـرنى أن أعلمكم ما جهلتم ، مما علمنى فى يومى هذا كل مال نحلته[2] عبادى حلال ، وإنى خلقت عبادى حنفاء[3] كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم[4] عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم ، أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا . . . »[5] الحديث .

اكرام البشر بارسال الرسل إليهم وأنزال الكتب عليهم

ثم لم يكلهم الله إلى ما آتـاهم من فطـرة وعقـل ، بل أرسـل إليهم الـرسـل مبشـرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتب لتبين لهم الحق من الباطل ولتكون مرجعاً لهم ، فيما يختلفون فيه ، حتى لا يبقى للناس أى عذر، ولتقوم عليهم الحجة ، فلا يبقى لهم حجة على الله بعد الرسل .

وكلف جميع الأمم بطاعة هؤلاء المصطفين الأخيار واتباعهم والإنقياد لهم وأنزل أشد

= والمعنى : أنـه يولـد على نوع من الجبلة ، والطبـع المتهيىء لقبـول الـدين فلوترك عليها لاستمر على لزومها ، وإنما يعدل عنه من يعدل بالآفة من آفات البشر والتقليد «النهاية لابن الأثير (٣/٤٥٧) .

وقال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ : فى الفتح (٣/٢٤٨) .

«اختلف النـاس فى المـراد بالفطـرة ، وأشهـر الأقـوال ، أن المـراد بالفطـرة : الإسـلام قال ابن عبـد البر : هو المعروف عند عامة السلف ، وأجمع أهل العلم بالتأويل على أن المراد بقوله تعالى : ﴿فطرة الله التى فطر الناس عليها﴾ الاسلام .

(١) أخرجه البخاري ٢٣ ـ كتاب الجنائز ٧٩ ـ باب إذا أسلم الصبى فمات يصلى عليه ، حديث ١٣٥٨ ، ١٣٥٩ ، ٩٢ ـ باب ما قيل في أولاد المشركين حديث ١٣٨٥ ، ٦٥ ـ كتاب التفسير ، حديث٤٧٧٥ . ومسلم ، ٤٦ ـ كتاب القدر، حديث ٢٢ ، ٢٣ ، وأبو داود، ٣٤ ـ كتـاب السـنـة ١٨ ـ باب في ذراري المشـركـين ، حديـث ٤٧١٤ ، وأحمـد في المسنـد (٢/٣١٥، ٣٤٦، ٣٩٣) ، (٢/٢٣٣، ٢٧٥) ، ومـالـك في الموطأ (١ : ٢٤١) ١٦ ، كتاب الجنائز. حديث (٥٢) ، والترمذي في السنن (١/٤٤٧) ، ٣٣ ـ كتاب القدر ٥ ـ باب ما جاء كل مولود يولد على الفطرة ، حديث (٢١٣٨) ، وفي لفظ في البخاري ومسند أحمد والموطأ والترمذي «كل مولود يولد على الفطرة» .

(٢) نحلته أعطيته ، والمراد : كل مال أعطيته عبداً من عبادى فهو له حلال ، والمراد : إنكار ما حرموا على أنفسهم من السائبة والوصلة والبحيرة والحامي وغير ذلك ، وإنها لم تصر حراماً بتحريمهم وكل مال ملكه العبد فهو له حلال حتى يتعلق به حق .

(٣) أي مسلمين .

(٤) أي استخفوهم فذهبوا بهم وأزالوهم ، عما كانوا عليه ، وجالوا معهم في الباطل .

(٥) أخرجه مسلم (٤/٢١٩٧) ، ٥١ ـ كتاب الجنة ٢٦ ـ باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار، حديث٦٣ .

العقاب بمن كذبهم وعاندهم فى الدنيا، وسوف ينزل بهم العذاب الأنكى والأشد، العذاب السرمدي الخالد فى دار الجزاء العادل .

ما هى رسالة هذه الصفوة المختارة من البشر صلوات الله وسلامه عليهم وما الذى قدموه لأممهم ؟

إن رسالتهم تشمل كل خير وتبعد من كل شر، فقدموا للإنسانية كل ما يسعدها فى الدنيا والآخرة، فما من خير إلا دلوا الناس عليه، ولا شر إلا حذروا الناس منه .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : كنا فى سفر، فنزلنا منزلا فمنا من يصلح خباءه، ومنا من ينتضل[1]، ومنا من هو فى جشره[2] إذ نادى منادى رسول الله ﷺ الصلاة جامعة[3] فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ، فقال : «إنه لم يكن نبي قبلى إلا وكان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها فى أولها وسيصيب آخرها بلاء، وأمور ينكرونها. وتجيء فتن فيرقق[4] بعضها بعضا، وتجيء الفتنة، فيقول المؤمن: هذه مهلكتى ثم تنكشف. وتجيء الفتنة، فيقول المؤمن: هذه هذه فمن أحب أن يزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله، واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذى يحب أن يؤتى إليه، ومن بايع إماما، فاعطاه صفقة يده وثمرة قلبه، فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر» .

هذه رسالة كل الأنبياء تدل على كل خير وتحذر من كل شر، لكن من أين تنطلق وبماذا تبدأ وعلى أى شيء تركز ؟

إن هناك دعائم وقواعد وأصولا تركز عليها دعواتهم وتكون أول منطلقاتهم فى دعوة الناس إلى الله .

تلك الأسس والقواعد هى : (١) التوحيد ، (٢) النبوات ، (٣) المعاد .[5]

هذه الأسس الثلاثة هى ملتقى دعواتهم وأصولها وقد أهتم بها القرآن غاية الاهتمام وبينها غاية البيان وهى أهم مقاصده التى يدور عليها ويكررها، ويورد الأدلة العقلية

---

(١) من المناضلة، وهي : المرامات بالنشاب .

(٢) الجشر: هي الدواب التى ترعى، وتبيت مكانها .

(٣) الصلاة جامعة، هي : بنصب الصلاة على الإغراء، ونصب جامعة على الحال .

(٤) أي يصير بعضها رقيقاً أي حفيفا لعظم ما بعده .

(٥) ألف في بيان هذه الأسس الثلاثة الإمام الشوكاني كتابا سماه : «ارشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد، والمعاد والنبوات» طبع دار الكتب العلمية ببيروت لبنان، وقد ساق أدلته من القرآن والتوراة والأناجيل .

والحسية عليها فى جميع سوره وفى غالب قصصه وأمثاله، يعرف ذلك من له كمال فهم وحسن تدبر وجودة تصور. وقد عنيت بها كتب الله بأجمعها واتفقت عليها الشرائع السماوية بأسرها .

وأهم هذه الأسس الثلاثة وأجلها وأصل أصولها هو توحيد الله تبارك وتعالى الذى تضمنته غالب سور القرآن، بأنواعه الثلاثة المشهورة بل تضمنته كل سورة من سور القرآن، فإن القرآن :

(١) إما خبر عن الله واسمائه وصفاته، وهو التوحيد الخبرى .

(٢) وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادى الطلبي .

(٣) وإما أمر ونهى والزام بطاعته، فذلك من حقوق التوحيد، ومكملاته .

(٤) وإما خبر عن اكرامه لأهل التوحيد، وما فعل بهم فى الدنيا، وما يكرمهم به فى الأخرة، فهو جزاء التوحيد .

(٥) وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم فى الدنيا من النكال وما يحل بهم فى العقبى من العذاب، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد .

فالقرآن كله فى التوحيد وحقوقه وجزائه، وفى شأن الشرك وأهله وجزائهم[١].

توحيد الألوهية وأهميته

وسوف أتناول توحيد الألوهية وأهميته لسببين :

أولا : أنه الجانب الأهم من دعوات الرسل الذى عرضه علينا القرآن ولأنه موضوع الصراع الدائر بينهم وبين خصومهم من المستكبرين والمعاندين من كل الأمم، ولا يزال موضوع الصراع إلى اليوم، ولعله يستمر إلى يوم القيامة ابتلاء واختباراً لورثة الرسل ورفعاً لمنزلتهم .

ثانيا : ان أخطر وأشد وأصعب انحراف مني به المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها فى هذا الجانب فى أكثر جهال المسلمين وفى كثير من مثقفيهم والمنتسبين إلى العلم منهم .

فلنبدأ بعرض دعوات الأنبياء بصفة عامة ثم نعرض دعوات بعضهم بصفة خاصة .

(١) شرح الطحاوية ص٨٨ الطبعة الأولى ١٣٩٢ نشر المكتب الاسلامي وأصله من كلام الامام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم - رحمهما الله -.

قال تعالى : ﴿**ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله، ومنهم من حقت عليه الضلالة، فسيروا فى الأرض، فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين**﴾ (النحل: ٣٦)، وقال تعالى : ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾. (الأنبياء: ٢٥)، وقال تعالى بعد أن ذكر قصص عدد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام : ﴿**إن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاعبدون**﴾. (الأنبياء: ٩٢)، وقال تعالى : ﴿**يا أيها الرسل، كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون**﴾ (المؤمنون: ٥١-٥٢).

قال الحافظ ابن كثير : قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله تعالى : ﴿**وإن هذه أمتكم أمة واحدة**﴾. **يقول : دينكم واحد**[١].

وفى معنى الآيتين من السنة، قوله ﷺ : «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم فى الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات[٢] أمهاتهم شتى ودينهم واحد»[٣].

وقال تعالى عن أولى العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام : ﴿**شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً، والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى، أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب**﴾ (الشورى: ١٣). تلك دعوة الانبياء جميعاً وعلى رأسهم أولوا العزم منهم الأنبياء الذين يبلغ تعدادهم أربعة وعشرين الفا ومائة ألف[٤] يسيرون فى دعوتهم فى منهج واحد، وينطلقون من منطلق واحد، هو التوحيد، اعظم القضايا والمبادىء التى حملوها

---

(١) التفسير (٥/٣٦٥).

(٢) العلات ـ بفتح المهملة: الضرائر، وأصله من تزوج امرأة ثم تزوج أخرى، كأنه علّ منها، والعلل: الشرب بعد الشرب وأولاد العلات: الإخوة من الأب، وأمهاتهم شتى «فتح البارى (٦/٩) وفى النهاية (٣/٢٩١)، الأنبياء أولاد علات «أولاد علات الذين أمهاتهم مختلفة، وأبوهم واحد، أراد أن إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة».

(٣) أخرجه البخاري ٦٠ ـ الأنبياء حديث (٣٤٤٣)، ومسلم (٤/١٨٣٧) ٤٣ ـ كتاب الفضائل، ٤٠ ـ باب فضل عيسى عليه السلام، حديث (١٤٥) وأحمد فى المسند (٢/٣١٩، ٤٠٦، ٤٨٢).

(٤) إشارة إلى حديث أبي ذر أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٥/٤٤٧) وأحمد في المسند (٥/١٧٨) (٥/١٧٩) من طريق المسعودي عن أبي عمر الدمشقى عن عبيد بن الحسحساس عن أبي ذر.

وابن حبان كما في الموارد رقم ٩٤ وأبو نعيم في الحلية (١/١٦٦-١٦٨) وأشار إلى طرق أخرى إلى أبى ذر، وأحمد (٥/٢٦٥) وابن أبي حاتم في تفسيره نقلا عن ابن كثير (٢/٤٢٣) والطبرانى (٨/٢٥٨).

وهناك طرق أخرى عن أبي إمامه في عدد الرسل وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر أخرجه الطبرانى (٨/١٣٩) وابن حبان كما في الموارد رقم (٢٠٨٥).

قال ابن كثير وهذا على شرط مسلم وقال الهيثمى رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح غير أحمد بن خليد الحلبى وهو ثقة.

إلى الإنسانية جميعا فى جميع أجيالهم ومختلف بيئاتهم وبلدانهم وأزمانهم .

مما يدل على أن هذا هو الطريق الوحيد الذى يجب أن يسلك فى دعوة الناس إلى الله ، وسنة من سننه التى رسمها لأنبيائه واتباعهم الصادقين ، لا يجوز تبديلها ولا العدول عنها .

نماذج لدعوات بعض الرسل

ثم إن الله تعالى أخبر عن بعض أفراد الأنبياء العظام كيف واجهوا أقوامهم وإذا بهم يسيرون فى الخط العام الذى رسمه الله لهم وإذا بهم فى المنهج الذى قرره الله لجميعهم لا تند عنه دعوة أحد منهم :

قال تعالى : ﴿**ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنى لكم نذير مبين ، أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم ، فقال الملأ الذين كفروا من قومه ، ما نراك إلا بشراً مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم اراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين**﴾ (هود : ٢٥-٢٧)

﴿**وإلى عاد أخاهم هوداً ، قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، أفلا تتقون ، قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة ، وانا لنظنك من الكاذبين ، قال ياقوم ليس بى سفاهة ، ولكنى رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربى ، وأنا لكم ناصح أمين ، أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم ، لينذركم ، واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بصطة ، فاذكروا آلآء الله لعلكم تفلحون قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ، ونذر ما كان يعبد آباؤنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ، قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب اتجادلوننى فى اسماء سميتموها أنتم وأباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، فانتظروا إنى معكم من المنتظرين فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين**﴾ (الأعراف : ٦٥-٧٢) .

وهكذا دعوات كل الأنبياء ، كلهم ساروا فى هذا المنهج فى الدعوة إلى توحيد الله وعبادته وحده أولاً وواجههم أقوامهم - إلا من هدى الله - بالسخرية والتكذيب والاستهزاء ، كما قال تعالى : ﴿**وكم أرسلنا من نبى فى الأولين ، وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون**﴾ (الزخرف : ٦-٧) .

وما أشد التكذيب والاستهزاء والسخرية على النفوس المؤمنة الأبية ، إنها أشد عليهم من وقع السيوف ومن السجون والتعذيب ولقد عبر عن هذا المعنى الشاعر العربى بقوله :

وظلم ذوى القـربى أشـد مضـاضـة ... على الـنفس من وقـع الحسـام المهنـد

ولقـد سألت عائشـة رضى الله عنهـا النبى ﷺ فقـالت له : «هل أتى عليك يوم كان أشـد من يوم أحـد ؟ فقـال : لقـد لقيت من قومـك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبـة، إذ عرضت نفسي على ابن عبـد ياليـل بن عبـد كلال، فلم يجبنى إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم استفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسى، فإذا أنا بسحابة، قد أظلتنى، فنظرت فإذا فيها جبر يل، فناداني، فقال : إن الله قد سمع قول قومـك لك ومـا ردوا عليـك، وقـد بعث الله إليـك ملك الجبـال، لتأمـره، بما شئت فيهم، فنادانى ملك الجبال، فسلم على، ثم قال : يامحمد! إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثنى ربى إليك لتأمرنى بأمرك، فما شئت ؟ إن شئت أن اطبق عليهم الأخشبـين[1]، فقـال له رسـول الله ﷺ : بل ارجوالله أن يخرج من اصلابهم، من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»[2] .

وقـد ذكـرت كتب السيرة بعض اجوبة هؤلاء الساخرة ومواقفهم المزرية، وأن رسول الله ﷺ ـ عمـد إلى نفـر من ثقيف هم سادة ثقيف وأشـرافهم وهم أخـوة ثلاثـة، عبد ياليل ومسعــود، وحبيب. . . فجلس إليهم، فدعــاهم إلى الله وكلمهم لما جاءهم له من نصـرة الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال أحدهم : هو يمرط ثياب الكعبة، إن كان الله ارسلك، وقـال الآخـر : أمـا وجـد الله أحـداً ارسله غيرك، وقال الثالث : والله لا أكلمــك أبـداً، لإن كنت رسـولا من الله كما تقـول، لأنت أعظم خطـراً من أن أرد عليـك الكلام، ولإن كنت تكذب على الله، ما كان ينبغى لى أن أكلمك. فقام رسول الله ﷺ، وقد يئس من خير ثقيف[3] .

والشاهد من الحديث، والقصة أن ما يلقاه الأنبياء من السخرية والاستهزاء ومن أذى المشركين السفهاء أشد على أنفسهم من كل بلاء حتى من المعارك الطاحنة التى تهزق فيها الأرواح وتـراق فيهـا دمـاء أصحابهم الزكية. فلقد قتل يوم أحد من أصحاب رسول الله ﷺ

---

(١) الاخشبان : جبلان بمكة، هما أبو قبيس والجبل الذي تقابله.

(٢) أخرجه البخاري ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق، حديث (٣٢٣١) ومسلم (١٤٢١/٣)، ٢٩ ـ باب ما لقى النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، حديث (١١١).

وفى الحديث بيان دعوة رسول الله وصبره في سبيلها وحلمه على قومه وانظر كيف استأنى بهم واستبقاهم من الهلاك الماحق الذي اشفـوا عليـه امـلاً في الله ورجـاء أن يخرج من اصـلابـه من يعبـد الله ولا يشرك به شيئا ويالها من غاية نبيلة لا يعرفها إلا من ذاق نعمة التوحيد وعرف مكانته.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (١٣٥/٣)، والدرر في اختصار المغازى والسير لابن عبد البر ط دار الكتب العلمية بيروت (ص١٠٥).

أكثر من سبعين شهيداً[1]، فيهم مصعب بن عمير[2] وحمزة بن عبد المطلب[3] عم رسول الله ﷺ، وشج رسول الله ﷺ وكسرت رباعيته[4]، ولقي ما لقي هو وأصحابه من أذى المنافقين، ولقى مالقي قبل ذلك وهو بمكة وفى يوم بدر وغيرها من المشاهد، ومع كل ذلك يرى أن أشد ما لقيه هو يوم الطائف، لأنه لقى من السخرية والاحتقار مالا تحتمله النفوس الأبية .

ومن هنا يقول رسول الله ﷺ : «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل، فالأمثل»[5] فالأمثل ثم الأمثل هم الصالحون السائرون فى منهاجهم فى الدعوة إلى الله والداعون إلى ما دعوا إليه من توحيد الله وإخلاص العبادة له وحده، ونبذ الشرك بها سواه، وينالهم من الأذى والبلاء مثل ما أصاب أسوتهم الأنبياء .

ومن أجل هذا ترى كثيراً من الدعاة يحيدون عن هذا المنهج الصعب، والطريق الوعر، لأن الداعى الذى يسلكه سيواجه أمه وأباه وأخاه وأحبابه وأصدقاءه وسيواجه المجتمع وعداوته وسخرياته وأذاه، يحيدون إلى جوانب من الإسلام لها مكانتها ولا يتنكر لها من يؤ من بالله لكن هذه الجوانب ليس فيها تلك الصعوبة والشدة والسخرية والأذى خصوصا فى

---

(١) قال البخاري - رحمه الله في ٦٤ -: المغازى ٢٦ - باب من قتل من المسلمين يوم احد، حديث ٤٠٧٨ حدثنا عمرو بن على، حدثنا معاذ بن هشام، قال: حدثنى أبى عن قتادة، قال: «ما تعلم حيا من أحيا. العرب أكثر شهيداً أغرّ يوم القيامة من الأنصار قال: قتادة: وحدثنا أنس بن مالك، أنه قتل منهم يوم أحد سبعون، ويوم بئر معونة سبعون، ويوم اليمامة سبعون».

(٢) عن خباب - رضى الله عنه - قال: هاجرنا مع النبى ﷺ، ونحن نبتغى وجه الله فوجب أجرنا على الله، فمنا من مضى - أو ذهب - لم يأكل من أجره شيئا وكان منهم مصعب بن عمير قتل يوم أحد فلم يترك إلا نمرة، كنا إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطيت رجلاه خرج رأسه فقال النبى (ص) غطوا بها رأسه واجعلوا على رجليه إلا ذخر. . . . ، أخرجه البخارى ٦٤ - كتاب المغازي ٢٦ - باب من قتل يوم أحد حديث (٤٠٨٢) ومسلم كتاب الجنائز. (٢/٧) مع شرح النووى. وأحمد في المسند (١٠٩/٥). والنسائى (٣٢/٤).

(٣) قصة استشهاده في البخاري ٦٤ - كتاب المغازى ٣٢ - باب قتل حمزة بن عبد المطلب - رضى الله عنه - حديث (٤٠٧٢) ومسند أحمد (٥٠٠/٣، ٥٠١).

(٤) عن أنس - رضى الله عنه - قال: شج النبى ﷺ يوم أحد فقال: كيف يفلح قوم شجوا نبيهم، فنزلت: ﴿ليس لك من الأمر شيىء﴾ (آل عمران١٢٩). أخرجه البخاري ٦٤ - كتاب المغازى ٢١ - باب ليس لك من الأمر شيىء، بدون رقم ومسلم (١٤١٦/٣)، ٣٢ - كتاب الجهاد والسير ٣٧ - باب غزوة أحد، حديث ١٠٤.

وفيه حديث سهل بن سعد برقم ١٠١ بلفظ جرح وجه رسول الله ﷺ، وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه».

(٥) أخرجه الترمذي (٦٠٢/٤)، ٥٦ - باب ما جاء في الصبر على البلاء، حديث (٢٣٩٨) وابن ماجه (١٣٣٤/٢) ١٣ - باب الصبر على البلاء حديث (٤٠٢٣)، والدارمى (٢٢٨/٢) حديث ٢٧٨٦ وأحمد في المسند (١٧٢/١، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥) كلهم من طريق عاصم بن أبى النجود وهو صدوق له أوهام عن مصعب بن سعد قال: الترمذي حديث حسن صحيح. وفي تصحيح الترمذي له نظر وكأنه لاحظ في الحكم شواهده فإن له شواهد:

١ - عن أبي سعيد الخدري أخرجه ابن ماجه (٦٣٣٤/٢) ٣٢ - باب الصبر على البلاء حديث (٤٠٢٤) قال في الزوائد اسناده صحيح نقلا عن محمد فؤاد. ٢ - من حديث فاطمة بنت اليمان أخرجه أحمد (٣٢٩/٦).

٣ - من حديث أبي هريرة أشار إليه الترمذي بقوله وفي الباب عن أبي هريرة وأخت حذيفة بعد اخراجه حديث سعد.

المجتمعات الإسلامية فإن سواد الأمة الإسلامية يلتفون حول هذا اللون من الدعاة ويحيطونهم بهالة من التبجيل والتكريم لا سخرية ولا أذى اللهم إلا إذا تعرضوا للحكام وهددوا كراسيهم فإنهم حينئذ يقمعونهم بكل شدة كاحزاب سياسية تناوىء الحكام وتهدد عروشهم ، والحكام فى هذا الباب لا يحابون قريبا ولا حميا ولا مسلما ولا كافراً .

وعلى كل حال نقول لهؤلاء الدعاة مهما شنشنوا وطنطنوا ومهما رفعوا أصواتهم باسم الإسلام أربعوا على أنفسكم فإنكم خرجتم عن منهج الله وصراطه المستقيم اللاحب الذى مرت به مواكب الأنبياء واتباعهم فى الدعوة إلى توحيد الله وإخلاص الدين له ومهما تفلسفتم ورفعتم عقيرتكم باسم الإسلام فإنكم عن منهج الأنبياء الذى سنه الله لناكبون .

ومهما بذلتم من الجهود وجسمتم دعوتكم ومنهجكم فإنكم تتشاغلون بالوسائل قبل الغاية وما اقل جدوى الوسيلة إذا أضرت بالغاية وضخمت على حسابها بل ياويل هؤلاء الدعاة ان أصروا على المضى فيما ابتدعوه من مناهج وحاربوا منهج الأنبياء فى الدعوة إلى توحيد الله تحت شعارات براقة تخلب ألباب البلهاء والجهلاء بمنهج الأنبياء .

إن الحديث عن دعوات الأنبياء إلى توحيد الله ومنهجهم وما لاقوا فى سبيل ذلك من الأهوال والبلايا والمحن أمر لا يتسع له مجال كهذا .

ولسوف اقتصر على عرض دعوات خمسة منهم صلوات الله وسلامه عليهم وذلك سيجعلنا على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك :

١ — فأولهم نوح ، أبو البشر الثانى ، وأول رسول إلى أهل الأرض عاش هذا النبى العظيم عمراً مديداً ودهراً طويلا ألف سنة إلا خمسين عاما لبثها فى دعوة قومه إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له ، لا يكل ولا يمل ، ليلاً ونهاراً سراً وجهاراً قال تعالى : ﴿**إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه ، أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ، قال : ياقوم إنى لكم نذير مبين ، أن اعبدوا الله واتقوه ، وأطيعون ، يغفر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم إلى أجل مسمى ، إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ، لو كنتم تعلمون قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهاراً ، فلم يزدهم دعاءي إلا فراراً ، وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم ، جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم ، وأصروا واستكبروا استكباراً ، ثم إنى دعوتهم جهاراً ، ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً ، فقلت : استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ، ما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم اطواراً ، ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً ، وجعل**

القمر فيهن نوراً ، وجعل الشمس سراجا ، والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا والله جعل لكم الأرض بساطا ، لتسلكوا منها سبلا فجاجا ، قال نوح : رب إنهم عصونى ، واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً ، ومكروا مكراً كباراً ، وقالوا : لا تذرن آلهتكم ، ولا تذرن وداً ولا سواعاً ، ولا يغوث ويعوق ونسراً ، وقد أضلوا كثيراً ، ولا تزد الظالمين ، إلا ضلالا مما خطيئاتهم أغرقوا ، فادخلوا ناراً ، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً﴾ (نوح : ١-٢٥) .

ماذا فى دعوة هذا الرسول الكريم ، وقد قص الله علينا خلاصة دعوته الكريمة التى استغرقت ألف سنة إلا خمسين عاماً .

إنها دعوة جادة إلى توحيد الله وعبادته وحده ، فى جهد دائب ما ترك وسيلة تمكنه إلا استخدمها لاقناعهم بدعوته سرا وجهاراً وترغيبا وترهيبا ووعداً ووعيداً ، واحتجاجا واستدلالا بالأدلة العقلية والحسية ، من واقع أنفسهم وحياتهم ومما بين أيديهم من السماء والأرض ، وما فيهما من آيات وعبر وكل ذلك لم يجد فيهم نفعا ولا دفعهم إلى استجابة بل أصروا على كفرهم وضلالهم ، واستكبروا استكباراً .

أصروا على التشبث بأصنامهم ومعبوداتهم الباطلة ، فكانت النتيجة لهذا الأصرار والاستكبار، الهلاك والدمار، وفى الآخرة الخلود فى عذاب النار .

وهنا نتساءل لماذا يستمر هذا النبي العظيم كل هذه الآماد الطويلة ، ويبذل هذه الجهود الكبيرة ، دون كلل أو ملل يدعو إلى مبدء التوحيد ؟

ولماذا يمدحه الله ويثنى عليه الثناء العاطر، ويخلد ذكره ويجعله فى عداد الرسل أولى العزم ؟

هل دعوة التوحيد تستحق كل هذه العناية والاكبار ؟ ، هل هذا المنهج وتحديد هذا المنطلق لهذا النبي الكريم مجانب للمنطق والحكمة والعقل ؟ أو أنه عين الحكمة ومقتضى المنطق الصحيح ، والعقل الواعى الرجيح لماذا يقره الله على سلوك هذا المنهج فى الدعوة طوال ألف سنة إلا خمسين عاما ويشيد به ويخلد اسمه وقصصه ، ويكلف أعظم الرسل وأعقل البشر أن يجعل منه أسوة فى دعوته وصبره ؟

الجواب المنصف القائم على العقل والحكمة ، ومعرفة مكانة النبوة والثقة العظيمة فيها وتقديرها حق قدرها ، أن دعوة التوحيد ومحاولة القضاء على الشرك وتطهير أرض الله منه تستحق كل هذا وانه عين الحكمة ومقتضى الفطرة والعقل .

وأن الـواجب على كل الـدعـاة إلى الله أن يفهمـوا هذا المنهـج ، وهذه الدعوة الإلهية العظيمـة ، والمطلب الكبـير ، فيكـرسـوا كل جهـودهم وطاقاتهم لتحقيقه ونشره فى أرض الله كلهـا ، وأن يتعـاونـوا ويتكـاتفـوا ويتحـدوا ، ويصـدق بعضهم بعضا ، كما كان الرسل دعاة التوحيد يبشر سابقهم بلاحقهم ويصدق لاحقهم سابقه ويؤيد دعوته ويسير فى مضماره .

يجب أن نعتقـد أنـه لوكان هنـاك منهج أفضل وأقوم من هذا المنهج لاختاره الله لرسله وآثـرهم به ، فهـل يليق بمؤمن أن يرغب عنـه ويختـار لنفسـه منهجاً سواه ويتطاول على هذا المنهج الربانى وعلى دعاته .

وثانيهم : أبو الأنبياء وإمام الموحدين الحنفاء ـ إبراهيم خليل الله ـ الذى أمر الله سيد المرسلين، وخاتم النبيين وأمته باتباعه والائتساء بدعوته والاهتداء بهديه ومنهجه(١) .

قال تعـالى : **﴿وإذ قال إبـراهيم لأبيـه آزر أتتخـذ أصنـاماً آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبـين ، وكـذلـك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ، فلما جن عليـه الليـل رأى كوكبـا ، قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغاً ، قال هذا ربى ، فلما أفل قال لإن لم يهدنى ربى ، لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة ، قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهـت وجـهى للذى فطـر السـماوات والأرض حنيفـاً ، ومـا أنـا من المشـركـين﴾** (الأنعـام : ٧٤ـ٧٩) . دعـوة حارة قويـة متـدفقـة إلى توحيـد الله ، وإخلاص الدين له ونبذ الشرك ورفضه، تبدأ بالأسرة وتمتد إلى الأمة تحارب الشرك بالأصنام، وتزلزل الشرك بالكواكب .

ويسلك خليل الله أقوم الطرق فى المناظرة والمحاجة ، لإقامة حجة الله ودحض الشرك وباطله وشُبَهِهِ .

فالتعبـير بالأصنـام تحقـير لآلهتهم المـزعـومة المصطنعة ، وتسفيه لأحلامهم ، ورصده للكواكب المذكورة واحداً تلو الآخر وهى تغيب وتأفل عنهم ليأخذ من حالها البرهان الواضح على بطـلان ما يزعمـون من ألـوهيتهـا فمن يرعـاهم ويحفظهم ويدبر شؤونهم وشؤون هذا الكون حين غيابها وأفولها ، وإذن فعليهم أن يرفضوا هذه الآلهة المزعومة الباطلة ويكفروا بها ،

---

(١) اشارة إلى قول الله تعالى : ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾ «سورة النحل ، الآية(١٢٢) .

وإلى قوله تعالى : ﴿قل : صدق الله ، فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾ سورة آل عمران الآية ٩٥ .

وينفضوا أيديهم منها، ويتجهوا إلى إلههم الحق، الذى فطر السماوات والأرض، والذى لا يغيب ولا يحول يعلم جميع أحوالهم ومطلع على حركاتهم وسكناتهم، ويرعاهم ويحفظهم ويدبر شؤونهم حجج قوية يستمدها من الواقع الملموس والكون المنظور.

قال تعالى: ﴿**واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً، إذ قال لأبيه ياأبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ياأبت إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا ياأبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا، ياأبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا، قال أراغب أنت عن آلهتى ياإبراهيم، لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا، قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا وأعتزلكم وما تدعون من دون الله، وأدعوا ربى، عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا، فلما اعتزلهم، وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب، وكلا جعلنا نبيا، ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا**﴾ (مريم: ٤١-٥٠). دعوة حارة إلى التوحيد، قائمة على العلم والمنطق والعقل وعلى الخلق القويم، وتهدى الضال إلى الصراط المستقيم يقابلها تعصب أعمى يقوم على الهوى والجهل والعناد والمكابرة وإلا فكيف يعبد ويخضع لمن لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنه شيئاً.

إن علم التوحيد أيها القارىء، هو العلم الذى يعتز به جميع الأنبياء وبه يصولون على الباطل والجهل والشرك، فالجهل بهذا العلم ـ علم الأنبياء الهادى إلى الحق والمنقذ من الضلال والشرك ـ هو الجهل المميت والسم القاتل الذى يقتل العقل والفكر. ﴿**ياأبت إنى قد جاءنى من العلم فاتبعنى أهدك صراطا سويا**﴾.

وبعد هذه الجولات القوية الواعية يقوم بها إبراهيم ﷺ فى ميدان الدعوة إلى الله دعوة الأسرة والأمة التى أقام فيها على أبيه وقومه الحجج الدامغة واجه بهذه الدعوة العظيمة ذلك الحاكم الجبار الطاغية المتأله بكل قوة وشجاعة. قال تعالى: ﴿**ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه، أن آتاه الله الملك، إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيي ويميت، قال أنا أحيي وأميت، قال إبراهيم، فإن الله يأتى بالشمس من المشرق، فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر، والله لا يهدى القوم الظالمين**﴾ (البقرة: ٢٥٨).

لقد دعا إبراهيم ﷺ هذا الطاغية المتأله إلى توحيد الله والإيمان بربوبيته وألوهيته، فطغى واستكبر عن الاجابة إلى توحيد الله والتنازل عن دعوى الربوبية. فحاجه إبراهيم وناظره هذه المناظرة النيرة البرهان الواضحة المعالم قال إبراهيم: ﴿**ربى الذى يحيي ويميت**﴾ أى هو المنفرد بالخلق والتدبير والإحياء والإماتة. فقال الغبى المتجبر: ﴿**أنا أحيي**

وأميت﴾ أى أقتــل من أردت قتله وأستبقى من أردت استبقـاءه . وهـذا الجـواب فيـه تمويـه وتضليـل للأغبيـاء وحيـدة عن الجـواب ، لأن قصـد إبـراهيم عليـه الصلاة والسلام أن ربه ينشىء الحيـاة فى الإنسـان والحيـوان والنبات من العدم ، ويردها إلى الأموات بقدرته وأنه هو الـذى يميت النـاس والحيـوانات بآجالها بأسباب ربطها وبغير أسباب ، فلما رآه إبراهيم يموه ويـدجـل تدجيـلا ربـما انطلى على الأغبيـاء والهمج ، قال ملزما له بتصديق قوله إن كان كما يزعـم : **﴿فـإن الله يأتى بالشمس من المشـرق فأت بها من المغـرب ، فبهت الـذى كفر﴾** أى وقف متحـيراً مشـدوهـا ، منقطـع الحجـة قد ألقم حجرا وأخرس لسانه وزهق باطله ، **﴿إن الباطل كان زهوقا﴾** .

وفى هذا درس لمن ألقى السمـع وهـوشهيـد ، إنهـا دعـوة إلى التـوحيـد تمثـل قمـة الإخـلاص والحكمـة ، والعقـل ، وتأتى البيـوت من أبـوابهـا وتنطلق من حيث أراد الله ، لا مصارعة على الملك ، ولا منافسة على الحكم ، ولوكان هدف إبراهيم عليه الصلاة والسلام الـوصـول إلى الحكم لسلك منهجـا غير هذا المنهـج ولوجد من يلتف حوله ويصفق له ولكن يأبى الله وأنبيـاؤ ه وصـالحـو الدعاة من اتباع الأنبياء حقا فى كل زمان ومكان إلا سلوك طريق الهداية والرشاد وبيان الحق وإقامة الحجة على المكابر والمعاندين .

وقـد قام إبـراهيم عليـه السـلام بهذا الـواجب العظيم على أكمـل الوجوه وأتمها أقام الحجـة على أبيـه وقـومـه حكومة وشعبا ، فلما رأى منهم الأصرار على الشرك والكفر والإقامة على الباطل والضلال لجأ إلى الإنكار والتغيير باليد والقوة .

فمن أين يبـدأ بالتغـيير وما هو الأسلوب الرشيد لتغيير هذا الواقع المظلم الجاثم على أمتـه أيثـور على الـدولة لأنها منبع الشرور والفساد ومصدر الشرك والضلال كيف لا والحاكم يدعى الربوبية ويصر عليها . لماذا لا يدبر انقلابا يطيح فيه بهذه الحكومة الكافرة وعلى رأسها جبـار متألـه وبـذلك يقضى على كل الوان الفساد والشرك وتقوم على انقاضه الدولة الإلهية بقيادة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، والجواب حاشا الأنبياء وحاشا نزاهتهم من سلوك هذه الطرق أو التفكير فيها فإنها طرق الظلمة والجهلة والسفهاء وطلاب الدنيا والملك .

إن الأنبيـاء دعـاة توحيد ورواد هداية إلى الحق وأنقاذ من الباطل والشرك فإذا امتدت أيـديهم إلى التغيـير وهم أعلم النـاس وأعقلهم فلابـد أن تبـدأ بالقضـاء على منابع الشرك والضلال الحقيقية وكذلك فعل إبراهيم الحليم الحكيم الرشيد البطل الشجاع .

قال تعالى : **﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التـماثيـل التى أنتم لها عاكفـون . قالـوا وجـدنـا آبـاءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم**

وآبــاؤكم فى ضلال مبــين . قالــوا أجئتنــا بالحق أم أنت من الـلاعنـين . قال بل ربكم رب السـماوات والأرض الـذى فطـرهن وأنـا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياإبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألـوهم إن كانـوا ينطقـون . فرجعـوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون . قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون . قالوا حرقوه وأنصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنـا يانـار كونى برداً وسـلامـا على إبـراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسـرين﴾ (الأنبيـاء : ٥١-٧٠) . آتى الله إبـراهيم رشـده على علم بأنه أهل لذلك هذا النبى الحكيم الـرشيـد واجه فساداً فى العقيدة وفساداً فى الحكم . أمة انحط تفكيرها وضلت عقولها ، فعبدت الأصنام من الأخشاب والاحجار والكواكب وتحكمها حكومة فاسدة يقودها جبار متأله فأسلسلوا له القياد .

فمن أين يبدأ بالإصلاح ياترى ؟

أيبـدأ بمصـاولـة الحـاكم لأنـه قطعا يحكم بغير شريعة الله ويحكم بقوانين وتشريعات جاهليـة ، لاشـك فى ذلـك ، ويـدعى الربوبية جهاراً وحق التشريع أويبدأ بإصلاح العقيدة عقيدة الأمة وعقيدة الحكومة الجاهلية .

القـرآن يحدثنـا عن هذا النبي الرشيد إمام الأنبياء أنه بدأ بإصلاح العقيدة أى الدعوة إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له وحده ومحاربة الشرك والقضاء عليه وعلى أسبابه واقتلاعه من جذوره فدعـــاهم فعـــلا إلى توحيـد الله ونبـذ عبـادة ما سواه ، وجـادلهم فى هذا المجـال وجـادلـوه ، فدمغهم بالحجـج القـاهرة والبراهين الظاهرة وجردهم من كل سلاح من أسلحة الحجة حتى الجأهم إلى الاعتراف بالظلم والضلال والتعصب الأعمى والجمود القاتل على تقليد الآباء **﴿قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين﴾** .

فلما رأى إبراهيم أهواء جامحة وعقولا متحجرة ، دبر لهم مكيدة ورسم لهم خطة حكيمة شجاعة لتحطيم آلهتهم وتم تنفيذ هذه الخطة بكل قوة وشجاعة وجرأة وأثار هذا العمل البطـولى[1] الحكـومـة والشعب ضده واستـدعـوه للمحـاكمـة العلنية ، ووجهوا إليه الإتهام

---

(١) هذا العمـل البطـولى العظيم ومـا سبقـه من دعوة حكيمة إلى التوحيد ونبذ الشرك في ميزان كثير من دعاة الاصلاح اليوم =

﴿**أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياإبراهيم**﴾ فأجابهم بأسلوب تهكمى ساخر ﴿**بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون**﴾ فكان هذا الجواب التهكمى المفحم كالصاعقة العنيفة هوت على رؤوسهم المخبولة ﴿**ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون**﴾ ثم لما اعوزهم سلاح الحجة لجأوا إلى القوة سلاح كل عاجز عن الحجة فى كل زمان ومكان، ﴿**قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين**﴾ ونجى الله خليله إبراهيم ورد الله كيد الكافرين الخاسرين فى نحورهم ﴿**قلنا يانار كونى برداً وسلاما على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين**﴾ .

وكان فى نجاة إبراهيم من تلك النار العظيمة بعد أن حولها الله برداً وسلاما على إبراهيم آية عظيمة من أعظم آيات الله على نبوته وصدقه وصدق ما جاء به من التوحيد وبطلان ما هم عليه من الشرك والضلال، وكافأ الله إبراهيم عليه السلام على هذه الدعوة الحكيمة وعلى هذا الجهاد والتضحية الرائعة ﴿**ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين . ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين . وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا، وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين**﴾ (الأنبياء: ٧١-٧٣) .

(**ثالثهم**) : يوسف الكريم ابن الكريم ابن الكريم[1] الذى أنزل الله فى شأنه سورة طويلة تقص لنا حياته الكريمة ومراحلها من طفولته إلى موته وكيف تقلبت به الأحوال، وما واجه من صعاب، فتلقاها بقوة النبوة وصبرها وحكمتها وحلمها .

رأى يوسف عليه السلام، فساد قصور الفراعنة فى مصر وظلمها وعرف عقائد الأمة التى عاش فيها عرف ما فيها من فساد ووثنية تتخذ الأصنام والابقار ألهة مع الله .

قصة هذا النبي الكريم عليه السلام ـ طويلة نأخذ منها الإشارة إلى سجنه ودعوته .

= يعتبر من الاهتمامات بالقشور والتوافه فلا حول ولا قوة إلا بالله إنها لا تعمى الأبصار، ولكنها تعمى القلوب التى في الصدور.

(١) إشارة إلى حديث ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال : «الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام» . أخرجه البخارى ٦٠ كتاب الأنبياء باب ١٨ (٣٣٨٢، ٣٣٩٠) وأحمد فى المسند (٢/ ٩٦) .

وإلى حديث أبى هريرة رضى الله عنه : سئل رسول الله ﷺ : «من أكرم الناس ؟ فقال اتقاهم لله، قالوا : ليس عن هذا نسألك، قال : فاكرم الناس يوسف نبى الله ابن نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله، قالوا : ليس عن هذا نسألك. قال : فعن معادن العرب تسألونى ؟ خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا» . أخرجه البخارى ٦٠ الأنبياء، حديث (٣٣٨٣)، والترمذى (٥/٢٩٣) التفسير، باب ١٣، حديث (٣١١٦)، وأحمد فى المسند (٢/ ٣٣٢، ٤١٦) كلاهما عن طريق محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة بلفظ : «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» .

قال تعالى : ﴿ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً . وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين . قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون . ياصاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (يوسف : ٣٦-٤٠) .

عاش هذا النبي الكريم عليه السلام في القصور وعرف مفاسد الحكم والحكام عن كثب، وذاق من ويلاتهم كيداً وظلما واضطهاداً وسجنا وعاش بين ظهراني أمة وثنية تعبد الأصنام والأبقار والكواكب، فمن أين ينطلق للإصلاح ومن أين تكون نقطة البدء؟ . هل يبدأ في الدعوة إلى الله وهو مسجون ظلما ويشاركه في السجن مظلومون مثله من أثارتهم وتهييجهم على الحكام الظلمة المستبدين، وهذا منطلق سياسي لاشك فيه والفرصة متاحة أمامه أو يبدأ بالدعوة من حيث انطلق آباؤ ه الكرام وعلى رأسهم إبراهيم خليل الله وإمام الدعاة إلى توحيد الله ومن حيث انطلق جميع رسل الله لاشك أن طريق الإصلاح الوحيد في كل زمان ومكان هو طريق الدعوة إلى العقيدة والتوحيد وإخلاص العبادة لله وحده .

إذن فليبدأ يوسف من هذا المنطلق مقتديا بآبائه الكرام ومعتزاً بعقيدتهم ومحقراً ومندداً بسخف المشركين واتخاذهم أربابا من دون الله من الأصنام والابقار والكواكب .

وبعد هذا البيان الواضح والدعوة الصارخة إلى التوحيد ونبذ الشرك يؤكد دعوته وحجته بقوله : ﴿أن الحكم إلا لله﴾[1] ثم يفسر هذه الحاكمية بتوحيد الله وعبادته وحده ﴿أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم﴾، ويقول عن التوحيد ﴿ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ .

(١) هذه الآية قاعدة أساسية من قواعد التوحيد كما بين الله ذلك على لسان يوسف عليه السلام ومن المؤسف جدا أن ترى كثيرا من دعاة الاصلاح السياسيين قد ابتعدوا بتفسيرها جدا عن مدلولها الأساسي اخلاص العبادة لله وحده إلى مدلول سياسي هو اقامة الدولة التي يزعمون انها ستطبق شريعة الله في الأرض بالنيابة عنه وبالغوا في هذا الاتجاه حتى انسوا الناس المعنى الأصيل للآية ولايفهمون عنها إلا المعنى الجديد فلا حول ولا قوة إلا بالله وهكذا عاملوا كل أو معظم آيات التوحيد وارتكبوا كل هذا تحت شعار الحاكمية وهذا شيء لم يسبقوا إليه فإلى الله المشتكى .

ويصـل يوسف عليـه الصـلاة والسـلام إلى أعلى منصب فى هذه الدولة[1] وهو يدعو إلى توحيـد الله ويقيم على دعـوتـه ونبـوته البينات . قال تعالى فى بيان هذه الأمور : ﴿**وقال الملك أئتـونى به استخلصـه لنفسى فلما كلمـه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين . قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم**﴾ (يوسف : ٥٤ـ٥٥) .

وقـال شاكـراً لمولاه : ﴿**رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويـل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت ولي فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما والحقنى بالصالحين**﴾ (يوسف : ١٠١) .

وقال الله فى بيان دعوته : ﴿**ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فمازلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا . كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب**﴾ (غافر : ٣٤) .

من فقه سيرة يوسف عليه السلام التى عرضتها علينا هذه الآيات الكريمة أن الدعوة إلى التوحيد أمر لابد منه ، وأن الشرك لا هوادة ولا مداهنة فى محاربته فلا يجوز السكوت عنه مهما كانت ظروف الداعية إلى الله بل لا يجوز لمسلم اطلاقا أن يحابى ويداهن فى أمره وهذا يبـين مكـانـة العقيدة وعظم شأنها عند الله وعند أنبيائه ورسله وأن الفرق والبون شاسع جدا بينها وبين فروع الإسلام فلا يجوز أن يكون المسلم خصوصا الداعية أن يكون كاهنا من كهنة المشركين أو سادنا لأصنامهم ، فإن فعل ذلك كان من المشركين الضالين .

أمـا الجـانب التشـريعى ، فإن قامت دولـة الإسلام فلابد من تطبيق شريعة الله ، والا ﴿**فمن لم يحكم بما أنـزل الله فأولئـك هم الكـافـرون**﴾ والكفـر حينئـذ على ما فصله علماء الإسلام من الصحابة وغيرهم قد يكون كفراً أكبر إذا كان يحتقر شرع الله ويستحل الحكم بغيره ، وقد يكون كفراً أصغر إذا كان يعظم شريعة الله ولا يستحل الحكم بغيرها لكن غلبه هواه فحكم بغير ما أنزل الله .

أمـا إذا كانت دولـة الإسـلام غير قائمة ، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها وللمسلم أن يتبـوأ منصبـا فى دولـة غير مسلمـة شريطـة أن يقوم بالعدل وأن لا يطيعهم فى معصية الله ولا يحكم بغير ما أنزل كما فعل نبي الله يوسف . تبوأ منصب النيابة عن ملك كافر وما كان يحكم

---

(١) قال شيخ الاسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في الحسبة (ص٧) .
«وكذلك يوسف الصديق كان نائبا لفرعون مصر وهو وقومه مشركون وفعل من العدل والخير ما قدر عليه ، ودعاهم إلى الإيمان بحسب الامكان» .

بشريعته ﴿. . . ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك﴾ (يوسف : ٧٦)، وكان يقوم بالعدل بين الرعية ويدعوهم إلى توحيد الله .

وفى هذا رد حاسم على من يهون من أمر عقيدة التوحيد ويجامل ويداجى فى قضية الشرك الذى ملأ الدنيا وينظر إلى دعاة التوحيد وأعداء الشرك بعين الاحتقار والإزدراء ويربأ بنفسه ويشمخ بأنفه أن يهبط إلى مستوى دعاة التوحيد ـ وهو من دهاة السياسة وما اثقل على سمعه وقلبه أن يسمع أويقول كلمة توحيد أو شرك . لقد أوقع هذا النوع من الدعاة أنفسهم فى هوة سحيقة فى حين يظنون أنهم فى أعلى القمم الشامخة . وهل يفلح قوم هذا موقفهم من دعوة الأنبياء إلا أن يتوبوا عما هم فيه إلى الله توبة نصوحاً .

(رابعهم) : موسى كليم الله ، القوي الأمين ، نرى دعوته تتجه إلى التوحيد وتحمل فى طياتها أنوار الهداية والحكمة .

لقد تربى موسى ودرج فى قصور أعظم طاغية متأله وعرف من ألوان الفساد والكفر والطغيان والظلم والاستبداد فى قصور الحكم عن مشاهدة واطلاع ما يصعب تصوره واحتماله ورأى ما نزل بقومه بنى إسرائيل من استعباد واستذلال واستحياء النساء وقتل الابناء ما فاق كل ظلم عرفته البشرية .

قال تعالى : ﴿**إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستعطف طائفة منهم تذبح ابناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين**﴾ (القصص : ٤) وكان قوم فرعون أهل وثنية دون شك .

فكيف كان بدء دعوة موسى هل اتجهت إلى إصلاح عقيدة هذه الأمة الوثنية أوبدأت بالمطالبة بحقوق بنى إسرائيل والمصارعة على الحكم والسعى الجاد فى اقامة الدولة الإسلامية وانتزاع السلطة من أيدى الطغاة وعلى رأسهم فرعون المتأله .

لقد كانت دعوة موسى كغيرها من دعوات آبائه واخوته من الأنبياء لقد لقنه ربه أصل التوحيد واصطفاه لحمل رسالته والقيام بعبادته . قال تعالى : ﴿**وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . فلما أتاها نودى ياموسى . إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى ، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى . إن الساعة آتية أكاد اخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى**﴾ . (طه : ٩-١٥) . هكذا فى مفتتح

رسالته تملى عليه عقيدة التوحيد ويكلف شخصياً أن يقوم بها فى واقع نفسه ويتمثلها فى حياته .

ثم يكلفه بالدعوة لهذا المبدء العظيم فيرسله إلى فرعون ويبين له طريق الدعوة وأسلوبها الحكيم الذى يواجه به فرعون. قال تعالى : ﴿**اذهب إلى فرعون أنه طغى فقل هل لك إلى ان تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى**﴾ (النازعات : ١٧-١٩) .

ويشد عضده بأخيه هارون مبالغة فى اقامة الحجة ويعلمهما الرفق واللين فى الدعوة فإن ذلك أقرب الطرق إلى هداية من يريد الله هدايته ﴿**اذهبا إلى فرعون انه طغى. فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى**﴾ (طه : ٤٣-٤٤) . فنفذا أمر ربهما ودعواه إلى الله قاصدين هدايته وتزكيته ليكون ممن يخشى الله ويتقى عواقب الشرك والظلم ، فلم يستجب لهذه الدعوة الهادئة الحكيمة فبرهن موسى على نبوته وصدق رسالته بآيات كبرى لكن الطاغية فرعون زاد طغيانا وتكذيبا ﴿**فكذب وعصى ، ثم أدبر يسعى فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والآولى**﴾ .

ازدياد طغيان فرعون وعسفه وظلمه ومواجهة موسى وقومه هذا الطغيان بالصبر الجميل والتحمل :

﴿**وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك . قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون**﴾ (الاعراف : ١٢٧) .

ما ذنب موسى وقومه فى نظر هؤلاء المجرمين ، لا ذنب لهم إلا الدعوة إلى توحيد الله والثبات عليها والكفر بفرعون ومعبوداته ، ثم ما موقف موسى من هذه الانتهاكات البشعة والتى تجاوزت حدود الوحشية والهمجية . إنه الثبات على العقيدة والصبر الجميل والاستعانة بالله فى مواجهة هذه الشدائد ثم انتظار العاقبة الطيبة والنصر نتيجة وثمرة حميدة لهذا الثبات والصبر ﴿**قال موسى استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين**﴾ . (الاعراف : ١٢٨) .

ولما لم يبق أى أمل فى إيمان فرعون وقومه واشتد البلاء على بنى اسرائيل كان مطلب موسى الوحيد من فرعون أن يترك لبنى اسرائيل حرية الخروج والهجرة إلى حيث يريد الله لهم انقاذاً لهم من التعذيب والتنكيل ﴿**فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى**﴾ . (طه : ٤٧) . إنها لدعوة سامية إلى توحيد الله فيها النور والحكمة وفيها الحرص على هداية المدعويين وتزكيتهم ،

وفيها أقوى أنواع الصبر فى تحمل الأذى وفى مواجهة الطغيان والكبرياء وفيها معالجة المواقف الصعبة بالحكمة والصبر مع قوة الأمل فى الله فى نصر المؤمنين وإهلاك الظالمين وفيها دروس وعظات لمن يريد بدعوته وجه الله ويريد إصلاح البشر وربطهم بالله وهدايتهم إلى صراطه المستقيم .

(والخامس) : سيد الأنبياء وخاتمهم محمد بن عبد الله صاحب أعظم رسالة وأكملها وأشملها ، الذى أرسله الله رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجا منيراً ما ترك خيراً إلا دل أمته عليه ولا شراً إلا حذرها منه .

بماذا بدأ هذا النبي العظيم من مبادىء الإسلام ؟ ومن أين انطلقت دعوته ؟

إنه عليه الصلاة والسلام بدأ بما بدأ به كل الأنبياء وانطلق من حيث انطلقوا بدعواتهم من عقيدة التوحيد والدعوة إلى إخلاص العبادة لله وحده ، من لا إله إلا الله محمد رسول الله وهل يتصور منه أومن أحد من الأنبياء أن يبدأ بغير هذا الأصل العظيم أصل أصول الرسالات كلها . لقد بدأ رسول الله ﷺ بهذا الأصل فأول شىء طرق مسامع قومه قولوا لا إله إلا الله . فقال المستكبرون منهم ﴿**أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشىء عجاب . وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشىء يراد**﴾ . (ص : ٥-٦) ، واستمر داعياً إلى هذا المبدأ الأسمى والمطلب الأعلى طيلة العهد المكى من رسالته ثلاثة عشر عاما لا يكل ولا يمل صابراً على كل ألوان الأذى فى سبيل نشر هذا المبدأ فلم يفرض عليه من التشريعات وأركان الإسلام إلا الصلاة فى السنة العاشرة من البعثة اللهم إلا ما كان يأمر به قومه من معالى الأخلاق كصلة الرحم والصدق والعفاف ولكن محور الدعوة وموضوع الصراع والخصومة إنما هو ذلك الأصل العظيم .

لقد كلف الله هذا النبى الكريم ﷺ تكليفا خاصا أن يقوم بهذا الأصل العظيم . قال تعالى : ﴿**إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين ، ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون**﴾ . (الزمر : ٢-٣) .

وقال تعالى : ﴿**قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ، وأمرت لأن أكون أول المسلمين ، قل إنى اخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . قل الله أعبد مخلصاً له دينى**﴾ . (الزمر : ١١-١٤) . ﴿**قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين**﴾ . (الأنعام : ١٦٢-١٦٣) .

كما أمره أن يقوم بدعوة الناس جميعاً إلى تحقيق هذا المبدأ والنهوض به. قال تعالى: **﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون. الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾**. (البقرة: ٢١-٢٢)، وقال تعالى: **﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾**. (البقرة: ١٦٣)، وقال تعالى: **﴿قل ياأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون﴾**. (الاعراف: ١٥٨).

والآيات فى هذا كثيرة والذى قدمناه إنما هو نموذج لمنهج رسول الله فى الدعوة إلى التوحيد.

أما السنة ففيها الشيء الكثير الدال على افتتاح رسول الله ﷺ دعوته بالتوحيد واختتامها بذلك واستمراره فيما بين ذلك طوال حياته ﷺ:

١ - فعن عمرو بن عبسة السلمي رضى الله عنه قال: «كنت وأنا فى الجاهلية، أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء، وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً، فقعدت على راحلتى، فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفيا جرءاء عليه قومه فتلطفت، حتى دخلت عليه، بمكة، فقلت له: ما أنت؟ فقال: أنا نبي. فقلت: وما نبي؟ قال: أرسلنى الله. فقلت: وبأى شيء أرسلك. قال: ارسلنى بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء. فقلت: ومن معك على هذا. قال: «حر وعبد». قال: ومعه يومئذ أبوبكر وبلال ممن آمن به...[1] (الحديث).

٢ - ولما وفد عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة المخزومي كلما النجاشى ملك الحبشة فقالا له يغريانه بالمسلمين المهاجرين إلى الحبشة: «أيها الملك إنه قد صبأ إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا قومهم ولم يدخلوا فى دينك، وجاءوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنت... فسألهم النجاشى فقال: ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا دينى ولا دين أحد من هذه الأمم؟... فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب فقال له: أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام ونسيء الجوار، يأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا

(١) أخرجه مسلم (٥٦٩/١)، ٦ - كتاب صلاة المسافرين. ٥٢ - باب اسلام عمرو بن عبسة، حديث (٢٩٤). وأحمد في المسند (١١٢/٤).

نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نحن نعبد وآباؤ نا من دونه من الحجارة، والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش، وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً، قال فعدد عليه أمور الإسلام، فصدقناه وآمنا به واتبعناه، على ما جاء به فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك...)(1) الحديث.

وفي أسئلة هرقل لأبي سفيان في مدة صلح الحديبية عن حال رسول الله ﷺ قال لأبي سفيان: ماذا يأمركم؟ قال أبو سفيان قلت: يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمر بالصلاة، والصدق والعفاف، والصلة(2).

فهذه الأحاديث توضح لنا دعوة رسول الله ﷺ في العهد المكي والمدني.

تعذيب أصحابه من أجل لا إله إلا الله عقيدة التوحيد:

لقد عذب أصحاب رسول الله ﷺ اشد ألوان التعذيب من أجل تمسكهم بالعقيدة وإخلاص العبادة لله وحده ونبذ الشرك والكفر. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. قال: «أول من أظهر الإسلام سبعة، رسول الله ﷺ، وأبوبكر وعمار، وأمه سمية، وصهيب وبلال، والمقداد. فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله تعالى بعمه أبي طالب، وأما أبوبكر، فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم، فأخذهم المشركون، وألبسوهم أدراع الحديد، صهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وآتاهم على ما أرادوا، إلا بلالا فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فاعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهويقول: أحد أحد»(3).

---

(1) أخرجه الامام أحمد (١/٢٠٢)، (٥/٢٩٠) قال أحمد: ثنا يعقوب (يعنى ابن ابراهيم ابن سعد الزهرى) ثقة ثنا أبي عن محمد بن اسحاق حدثنى محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى عن أم سلمة بنت أبى اميه (يعنى أم المؤمنين رضى الله عنها) وهو اسناد صحيح إلا محمد بن اسحاق وقد صرح بالتحديث فحديثه حسن.

(2) أخرجه البخاري ١ ـ كتاب بدء الوحى باب ٧ ـ حديث ٦ وهو حديث طويل.

(3) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/٢٨٤)، وصححه، وذكره الذهبى في سير أعلام النبلاء (١/٣٤٨) وقال وله اسناد صحيح، وانظر في الاستيعاب (١/١٤٥-١٤٦) والحلية لأبى نعيم (١/١٤٩).

وفى السيرة لابن هشام «وكان أمية بن خلف يخرجه (يعنى بلالا) إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة، فتوضع على صدره، ثم يقول : لا والله لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى. فيقول وهو فى ذلك البلاء : أحد أحد[1].

وقال ابن إسحاق : وحدثنى حكيم بن جبير، عن سعيد بن جبير، قال : قلت لابن عباس أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به فى ترك دينهم ؟ قال : نعم. والله إن كانوا ليضربون أحدهم، ويجيعونه ويعطشونه، حتى ما يقدر أن يستوى جالساً، من شدة الضرب الذى نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة حتى يقولوا له : اللات والعزى إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم. حتى إن الجعل ليمر بهم فيقولون له أهذا الجعل إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم افتداء مما يبلغون من جهده»[2]، وهذا اسناد حسن صرح فيه ابن إسحاق بالتحديث فأمن تدليسه .

وتعذب سمية حتى الموت من أجل عقيدة التوحيد، لا لأنها كانت زعيمة سياسية. فعن مجاهد قال : «أول شهيدة فى الإسلام سمية والدة عمار أتى أبو جهل فطعنها بحربة فى قبلها»[3]، وقال ابن سعد : «اسلمت قديما بمكة، وكانت ممن يعذب فى الله لترجع عن دينها، وصبرت، حتى مر بها أبو جهل يوما، فطعنها بحربة فى قبلها، فماتت»[4].

الاهتمام بعقيدة التوحيد فى العهد المدني :

وبعد أن هاجر رسول الله وأصحابه إلى المدينة، وقامت دولة الإسلام على كواهل المهاجرين والأنصار، وعلى أساس التوحيد ظل الاهتمام بالتوحيد على اشده والآيات القرآنية تنزل به والتوجيهات النبوية تدور حوله ولم يكتف رسول الله ﷺ بكل هذا.

المبايعة على التوحيد

(١) فكان يبايع عليها عظماء الصحابة فضلا عن غيرهم بين الفينة والفينة وكلما تسنح له فرصة للبيعة عليها. قال تعالى : ﴿**يأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا**

(١) (٣١٨/١).

(٢) السيرة لابن هشام (٣٢٠/١).

(٣) الطبقات لابن سعد (٢٦٤/٨-٢٦٥) قال أخبرنا اسماعيل بن عمر أبو المنذر، حدثنا سفيان الثوري، عن منصور عن مجاهد قال: فذكره وهو اسناد صحيح إلى مجاهد.

(٤) الطبقات لابن سعد (٢٦٤/٨).

يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم﴾(الممتحنة : ١٢)، وهذه الآية وإن كانت فى بيعة النساء فإن رسول الله ﷺ كان يبايع على مضمونها الرجال .

فعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : «كان رسول الله ﷺ فى مجلس، فقال : تبايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ـ قرأ الآية التى أخذت على النساء ﴿**إذا جاءك المؤمنات**﴾ ـ فمن وفى منكم، فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا، فعوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله عليه فهو إلى الله إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه»(١).

وساق ابن كثير عدداً من الأحاديث التى فيها أن رسول الله كان يبايع النساء بمضمون هذه الآية(٢) منها حديث عائشة، وحديث اميمة بنت رقيقة، وحديث أم عطية(٣)، وحديث سلمى بنت قيس إحدى خالات الرسول(٤) وحديث رائطه بنت سفيان الخزاعية(٥). ثم قال : «وكان رسول الله ﷺ يتعاهد النساء بهذه البيعة. ثم ساق حديث ابن عباس(٦) وأحاديث أخر .

أقول : وكذلك كان يتعاهد الرجال، فمما يدل على ذلك حديث عبادة بن الصامت السابق، ومن ذلك حديث عوف بن مالك الاشجعى رضى الله عنه قال : «كنا عند رسول الله ﷺ، تسعة أوثمانية أوسبعة، فقال : ألا تبايعون رسول الله ؟ وكنا حديث

---

(١) رواه البخاري ٢ ـ كتاب الايمان باب ١١ ـ حديث ١٨، ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ٤٣ ـ باب وفود الأنصار، حديث (٣٨٩٢)، ومسلم ٢٩ ـ كتاب الحدود ١٠ ـ باب الحدود كفارات لأهلها، حديث (٤١-٤٤)، والنسائى (١٢٨/٧).

(٢) البخاري ٦٥ ـ كتاب التفسير تفسير سورة الممتحنة ٢ ـ باب إذا جاءك المؤمنات مهاجرات حديث (٤٨٩١) وابن ماجة (٩٥٩/٢) ٢٤ ـ كتاب الجهاد ٤٣ ـ باب بيعة النساء حديث (٢٨٧٤) ٢ ـ مسند أحمد (٣٥٧/٦) والنسائى كتاب البيعة باب بيعة النساء (١٣٤/٧).

(٣) أخرجه البخارى ٦٥ ـ كتاب التفسير تفسير سورة الممتحنة ٣ ـ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك حديث (٤٨٩٢) ومسلم كتاب الجنائز (٢٣٨/٦) بشرح النووى.

(٤) مسند أحمد (٣٧٩/٦-٣٨٠، ٤٢٢-٤٢٣) وفي إسناده سليط بن أيوب قال الحافظ : مقبول وقال الذهبي في الكاشف (٣٨٨/١) وثق فهو حسن لشواهده.

(٥) مسند أحمد (٣٦٥/٦).

(٦) في البخاري ٦٥ ـ كتاب التفسير ٣ ـ باب إذا جاءك المؤمنات يبايعنك حديث (٤٨٩٥) ومسلم ٨ ـ كتاب صلاة العيدين ٨ ـ باب صلاة العيدين حديث (١) والحديث طويل وفيه «فقال : يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا» فتلا هذه الآية حتى فرغ منها ثم قال حين فرغ منها «انتنَّ على ذلك، فقالت امرأة واحدة لم يجبه غيرها منهن : نعم يانبى الله . . .».

عهـد ببيعـة فقلنا : بايعناك يارسول الله ، ثم قال : ألا تبايعون رسول الله . فقلنا : بايعناك يارسـول الله ، ثم قال : ألا تبـايعـون رسـول الله ؟ قال : فبسطنـا أيـدينـا وقلنا قد بايعناك يارسـول الله ، فعـلام نبـايعـك ؟ قال : على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، والصلوات الخمس وتطيعـوا ـ وأسـر كلمـة خفيـة ـ ولا تسألوا الناس شيئاً فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إياه»[1] .

٢ ـ وكان يرسل دعاته ومعلميه وقضاته وامراءه إلى الملوك والجبابرة في الأقطار المختلفة بدعوة التوحيد . فعن أنس رضى الله عنه ـ خادم رسول الله ﷺ ـ أن نبى الله ﷺ كتب إلى كسرى[2] وقيصر وإلى النجاشى وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله ، وليس بالنجاشى الذي صلى عليه النبى ﷺ»[3] .

يوضـح ذلـك نص كتـابه إلى قيصر وأن هدفه الدعوة إلى التوحيد ونصه : «بسم الله الرحمن الرحيم . . . من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهـدى أمـا بعـد ـ فإنى ادعـوك بدعـاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤ تك الله أجرك مرتين ، فإن توليت ، فإن عليك إثم الأريسيين[4] ـ وياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا ، فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون»[5] .

---

(١) أخـرجـه مسلم ١٢ ـ كتـاب الـزكـاة ٣٥ ـ باب المسألة للناس حديث ١٨ ، وأبو داود ٣ ـ كتاب الزكاة ، ٧٢ ـ باب كراهية المسألة حديث (١٦٤٢) ، واحمد (٦/٢٧) ، والنسائى (١٨٦/١) . وابن ماجة ٢٤ ـ كتاب الجهاد ، ٤١ ـ باب البيعة ، حديث (٢٨٦٧) .

(٢) وانظر كتابه إلى كسرى ملك الفرس في البداية والنهاية (٣٦٩/٤) بقريب من كتابه إلى قيصر .

(٣) أخـرجـه مسلم ٣٢ ـ كتـاب الجهـاد ٢٧ ـ باب كتب النبى ﷺ إلى ملوك الكفـار يدعـوهم إلى الله عز وجـل حديث ٧٥ (١٣٩٧/٣) ، والـترمـذي ، ٤٣ ـ كتـاب الاستئـذان ٢٣ ـ باب فى مكـاتبـة المشـركـين ، حديث (٢٧١٦) من حديث أنس . وأحمد (٣٣٦/٣) من حديث جابر ، بلفظ «وكتب رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس إلى كسرى وقيصر ، وإلى كل جبار» .

(٤) الأريسيون : الفلاحون ، ويقال لهم : الاكارون ، والمراد : اتباعه من الضعفاء وغيرهم ، لأنه صار سببا فى استمرارهم على الشـرك ، وهـذا عدل الله وسنتـه فى الـزعماء أنهم يحملون أوزارهم ، وأوزار من يتبعوهم فى الانحراف عن التوحيد والحق ومحاربته ، قال تعالى : ﴿وليحملن أوزارهم ، وأوزار الذين يضلونهم﴾ ، وقال ﷺ : «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة ، ومن دعا إلى ضلالة ، كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة ، لا ينقص من أوزارهم شيئا» .

(٥) أخرجه البخاري ١ ـ كتاب بدء الوحى ٧ ـ حديث ٦ ، وهو حديث طويل اختصرناه وأحمد (٢٦٢/١) .

وعندما وصل الكتاب النبوي إلى قيصر، أرسل إلى أبى سفيان بن حرب فى ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام فى المدة التى ماد فيها رسول الله ﷺ أبا سفيان، وكفار قريش، فأتوه وهم بابلياء فوجه أسئلة إلى أبى سفيان من جملتها، قال قيصر: «ماذا يأمركم، قال أبو سفيان، قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمر بالصلاة، والصدق والعفاف والصلة»(١)

(٢) وكان رسول الله ﷺ يجهز جيوشه للجهاد فى سبيل الله لأعلاء كلمة التوحيد: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله»، ويرشد قواده وجنوده إلى البدء قبل القتال بدعوة الناس إلى التوحيد. فعن بريدة بن الحصيب رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش، أوصاه بتقوى الله فى خاصة نفسه، وبمن معه من المسلمين خيراً، وقال: «إذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال أو خلال، فإن أجابوك إليها فاقبل منهم، وكف عنهم ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك، فاقبل منهم، وكف عنهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين . . . فإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا حاصرت أهل حصن، فارادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم، فإنكم لا تدرون ما يحكم الله فيهم ولكن انزلوهم على حكمكم، ثم اقضوا فيهم بعد ما شئتم»(٢).

ومثل حديث بريدة حديث النعمان بن مقرن المزنى رضى الله عنه أشار إليه كل من مسلم وأبى داود وابن ماجة، بقولهم قال علقمة فحدثت به مقاتل بن حيان، فقال: حدثنى مسلم بن هيصم، عن النعمان بن مقرن، عن النبي ﷺ مثل ذلك.

(٤) وبعث معاذاً إلى اليمن أميراً وقاضيا ومعلماً فقال له رسول الله ﷺ فى وصيته: «إنك تأتى قوما من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله. وفى

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه مسلم ٣٣ - كتاب الجهاد ٢ - باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث حديث (٣)، (٣/١٣٥٦-١٣٥٧). وأبو داود، ٩ - كتاب الجهاد ٩ - باب فى دعاء المشركين، حديث (١٦١٢) (٣/٨٣)، والترمذي، ٢٢ - كتاب السير، ٤٨ - باب وصية النبي ﷺ في القتال، حديث (١٦١٧) (٤/١٨٢). وابن ماجه ٢٤ - كتاب الجهاد، ٣٨ - باب وصية الإمام، حديث (٢٨٥٨).

رواية إلى أن يوحدوا الله وأنى رسول الله ، فإن هم أطاعوك لذلك فاخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة فإن هم أطاعوك لذلك ، فاخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من اغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[1] ، ولا يشك أنه كان يوصى كل دعاته وأمرائه وقضاته بمثل هذه الوصية .

(٥) وشرع الجهاد من أجل التوحيد وتطهير الأرض من فتنة الشرك . قال تعالى : ﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين**﴾ .

قال ابن جرير[2] رحمه الله : يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ : (وقاتلوا المشركين الذين يقاتلونكم ، حتى لا تكون فتنة يعنى حتى لا يكون شرك بالله ، وحتى لا يعبد دونه أحد ، وتضمحل عبادة الأوثان والآلهة والانداد ، وتكون العبادة والطاعة لله وحده دون غيره من الأصنام والأوثان . . .) ، قال قتادة : حتى لا يكون شرك . وساق اسانيده بهذا التفسير إلى قتادة ومجاهد والسدى وابن عباس ، وقال المراد بالدين الذى ذكره الله فى هذا الموضع : العبادة والطاعة لله فى أمره ونهيه . قال ومن ذلك قول الأعشى :

هودان الرباب إذ كرهوا   الدين دراكاً بغزوة وحيال

ثم ساق إسناده إلى الربيع (ويكون الدين لله) يقول : حتى لا يعبد إلا الله ، وذلك لا إله إلا الله عليه قاتل رسول الله ﷺ وإليه دعا» .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قال لا إله إلا الله عصم منى ماله ونفسه الا بحقه وحسابه على الله»[3] .

وقال أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه لأبى بكر الصديق خليفة رسول الله حين عزم على قتال المرتدين بما فيهم مانعى الزكاة فقال له الفاروق رضى الله عنه : «كيف تقاتل

---

(١) أخرجه البخارى ٦٤ ـ كتاب المغازى ٦٠ ـ باب بعث أبى موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع ، حديث (٤٣٤٧) ، ٩٧ ـ كتاب التوحيد ١ ـ باب ما جاء فى دعاء النبي ﷺ إلى توحيد الله تبارك وتعالى حديث ٧٣٧٢ ، ولفظ البخاري هنا «فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله ، فإذا عرفوا ذلك . . . الحديث ، ومسلم ١ ـ كتاب الايمان ٧٥ ـ باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام ، حديث ٢٩ ، ٣٠ ولفظ الأخير ، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله عز وجل فإذا عرفوا ذلك . . . » الحديث .

(٢) التفسير (٢/١٩٤-١٩٥) .

(٣) البخارى ، ٥٦ ـ الجهاد ، ١٠٢ ـ باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة ، ولا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله ، حديث (٢٩٤٦) . ومسلم ـ كتاب الإيمان ، ٨ ـ حديث (٣٣) ، وأبوداود ٩ ـ الجهاد ١٠٤ ـ باب على ما يقاتل المشركون ، حديث (٢٦٤٠) وابن ماجه ٣٦ ـ كتاب الفتن ، باب الكف عمن قال : لا إله إلا الله ، حديث (٣٩٢٧) .

الناس، وقد قال رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه الا بحقه، وحسابه على الله . فقال أبوبكر رضى الله عنه : والله لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعونى عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها» (١) .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس، حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا منى دماءهم، وأموالهم الا بحقها، وحسابهم على الله» ثم قرأ ﴿**إنما أنت مذكر، لست عليهم بمسيطر**﴾ . »(٢) .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»(٣) .

ويلاحظ أن حديث عمر وأبى بكر وأبى هريرة وجابر قد اقتصرت على قضية التوحيد، ولم تتعرض لغيرها . ولعل السبب فى ذلك شدة اهتمام الرسول ﷺ بهذه القضية بحيث أنه يحدثهم بها المرة تلو المرة مقتصراً عليها تنبيهاً منه لهم على عظمتها وأهميتها وادراكا منه صلوات الله وسلامه عليه أنهم يفهمون أن كل أمور الإسلام من مقتضياتها ومستلزماتها وحقوقها خصوصا أركان الإسلام والإيمان .

أقول : وبسبب اقتصار الرسول ﷺ على ما يتعلق بالعقيدة كان استدلال عمر بهذا القدر وكان جواب أبى بكر فى تأييد موقفه بقياس الزكاة على الصلاة «والله لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة . . . » ولو كان يحفظ ما رواه ابن عمر لاستدل به رأسا، ولو كان عمر يحفظ ما رواه ابنه لما اعترض على أبى بكر ولو كان الحاضرون وفيهم أبو هريرة يحفظون ما رواه ابن عمر لذكروا الشيخين به، ولعل السر هو ما أشرنا إليه شدة اهتمام الرسول بالعقيدة واشادته بها وكثرة حديثه عنها .

---

(١) أخرجه البخارى، ٢٤ ـ كتاب الزكاة ١ ـ باب وجوب الزكاة، حديث (١٣٩٩) ومسلم ـ كتاب الايمان ٨ ـ باب حديث (٣٣) .

(٢) أخرجه مسلم ١ ـ كتاب الايمان ٨، حديث ٣٥ والترمذي، ٤٨ ـ كتاب التفسير، تفسير سورة الغاشية، حديث (٣٣٤١) (٥/٤٣٩)، وابن ماجه ٣٦ ـ كتاب الفتن، باب (١)، حديث (٣٩٢٨) .

(٣) أخرجه البخاري ٢ ـ كتاب الايمان ١٧ ـ باب، فإن تابوا وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم حديث (٢٥)، ومسلم، ١ ـ كتاب الايمان باب ٨ حديث (٣٦) .

ولما كان ابرز جانب وأهمه فيما جاء به الأنبياء من تعاليم ربانية هو توحيد الإلهية، وكان هو فى الواقع اعظم قضايا الصراع مع كل أعداء الأنبياء .

وكان ابرز جانب من جوانب الباطل والضلال مما اعلن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عليه الحرب من جهة واستمات المشركون المكذبون من كل الأمم فى الدفاع عنه من جهة أخرى هو عبادة الأصنام والأوثان، وقبور الصالحين والأنبياء وتقديسها وتقديم القرابين لها وتعلق قلوب البشر حكاما ومحكومين بها حبا ورجاء وخوفا وطمعاً وأملا فى شفاعتها لهم عند الله فى قضاء مطالبهم، وكان هذا اللون هو الشرك الأكبر الذى لا يغفر كان لابد - إلى جانب ما قدمناه من الحديث عن منهج الأنبياء خصوصا فى الحديث عن ابراهيم إمام الحنفاء ومحطم أصنام السخفاء - من ذكر طرف من حرب رسول الله ﷺ - الشعواء لهذا الشرك الأكبر ممثلة فى سحق هذه الأوثان فعلا وفى سد كل ذريعة يستدرج بها الشيطان أولياءه من البشر إلى عبادتها واتخاذها أنداداً من دون الله باسم الآلهة أو الأولياء أو تحت أى شعار مضل .

فمن تلك الحرب التى شنها القرآن ورسول منزل القرآن ﷺ قول الله تعالى : ﴿**أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى الكم الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ضيزى إن هى إلا اسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى**﴾ (النجم : ١٩-٢٣) . فهذا تحقير لمعبوداتهم وأى تحقير وحرب عليها أي حرب، وقول الله تعالى : ﴿. . . **فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله . فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق**﴾ (الحج : ٣٠-٣١)، وقول الله تعالى : ﴿**ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون**﴾ (المائدة : ٩٠) .

وعن عمرو بن عنبسة رضى الله عنه وقد تقدم حديثه وفيه : «قلت : آلله أرسلك، قال : نعم، قلت : بأى شىء أرسلك، قال : بأن يوحد الله، ولا يشرك به شىء، وكسر الأوثان وصلة الرحم»(١) .

وفى حديث جعفر بن أبى طالب : « . . . حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤ نا من دونه من الحجارة، والأوثان . . . »(٢) الحديث .

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٥) .

(٢) تقدم تخريجه (ص٤٦) .

وفى حديث أبى سفيان مع هرقل ملك الروم : «يقول - يعنى رسول الله ﷺ - اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم»(١) .

وفى حديث أبى امامة رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : «إن الله بعثنى رحمة للعالمين . وأمرنى ربى عز وجل بمحق المعازف والمزامير ، والأوثان والصلب ، وأمر الجاهلية . . . » الحديث .

ولقد طاشت ألباب زعماء قريش وضاقت ذرعا بهجوم رسول الله ﷺ على أوثانها سواء فيما أنزل عليه من القرآن أو فى دعوته السرية والعلنية لأن هذا أمر لا هوادة فيه ، ودعوته الصادقة تقتضيه .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : «لما مرض أبو طالب ، دخل عليه رهط من قريش ، فيهم أبو جهل ، فقالوا : إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ، ويفعل ويفعل ، ويقول ويقول : فلو بعثت إليه ، فنهيته ، فبعث إليه ، فجاء النبى ﷺ فدخل البيت . . . فقال له أبو طالب : أى ابن أخى ، ما بال قومك يشكونك ، يزعمون أنك تشتم آلهتهم ، وتقول وتقول . قال : وأكثروا عليه من القول ، وتكلم رسول الله ﷺ فقال : ياعم إنى اريدهم على كلمة واحدة ، يقولونها تدين لهم بها العرب وتؤدى إليهم بها العجم الجزية ، ففزعوا لكلمته ، ولقوله وقالوا : كلمة واحدة ! نعم وأبيك عشراً ، فقالوا : ما هى ؟ وقال أبو طالب : وأى كلمة هى ياابن أخى ، فقال : لا إله إلا الله . فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم ، وهم يقولون : اجعل الألهة الهاً واحداً إن هذا لشىء عجاب»(٢) .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : «اجتمعت قريش يوما فقالوا : انظروا اعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فيأت هذا الرجل الذى فرق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا ، فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه ؟ فقالوا : ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة . فقالوا : أنت ياأبا الوليد ، فأتاه عتبة ، فقال : يامحمد أنت خير أم عبد الله ؟ فسكت رسول الله ﷺ

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٦) .

(٢) مسند الامام أحمد (١ / ٣٦٢) والترمذى ٤٨ - كتب التفسير ، تفسير سورة (ص) حديث (٣٢٣٢) وفى اسناده يحيى عمارة ويقال ابن عباد ذكره ابن حبان فى الثقات تهذيب التهذيب (١١ / ٢٥٩) وقال الحافظ مقبول . . تقريب (٢ / ٣٥٤) وقال الذهبى : وثق الكاشف (٣ / ٢٢٤) ورواه ابن جرير (٢٣ / ١٦٥) باسناده إلى الأعمش ثنا عباد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ورواه من طرق إلى الأعمش عن يحيى بن عمارة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ولم أقف لعباد على ترجمة وفى الاسناد ضعف وقد يحتمل التحسين .

ملاحظة فى مسند أحمد عباد بن جعفر ولم أقف له على ترجمة وقد نص ابن كثير أن أحمد رواه عن عباد غير منسوب انظر تفسير ابن كثير (٧/ ٤٦) .

فقال : أنت خير أم عبد المطلب ؟ فسكت رسول الله ﷺ فقال : إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منـك ، فقـد عبـدوا الآلهـة التى عبت وإن كنت تزعم أنـك خير منهم ، فتكلم ، حتى نسمع قولك ، إنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك ، فرقت جماعتنا وشتت أمرنا ، وعبت ديننـا وفضحتنـا فى العـرب ، حتى لقـد طار فيهم أن فى قريش ساحراً ، وأن فى قريش كاهنا ، والله ما ننظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى ، أيهـا الـرجـل إن كان إنـما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون اغنى قريش رجلا ، وإن كان إنما بك البـاءة فاختـر أى نسـاء قريش فلنزوجك عشراً ، فقال رسول الله ﷺ : فرغت ؟ قال : نعم ، فقـال رسـول الله ﷺ : ﴿**بسم الله الـرحمن الـرحيم ، حـم تنـزيـل من الـرحمن الرحيم** . . . ـ حتى بلغ ـ . . . **فإن أعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود**﴾ فقـال عتبـة : حسبـك ! حسبـك ! ما عنـدك غير هذا ؟ قال : لا . فرجـع إلى قريش ، فقـالـوا : ما وراءك ؟ قال : ما تركت شيئـاً أرى أنكم تكلمـونـه به إلا كلمته ، قالوا : فهل أجابك ؟ قال : لا ، والذى نصبها بنية ، ما فهمت شيئاً مما قال غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . قالوا : ويلك أيكلمك الرجل بالعربية ما تدرى ما قال ؟ قال : لا والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة»[١] .

تلك الحـرب كانت حربـا كلاميـة ونفسيـة بالنقـد الـلاذع والتحقير والسخرية ودمغ المشـركـين بالضـلال والجهـل مع اقامة الحجة عليهم ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينـة ، وكـان من آثـار تلك الحـرب ومن آثـار تلك الـدعوة والبيان أن هدى الله كثيراً من العـرب من قريش وغـيرهـم ومن الأوس والخـزرج وفتح الله بصائرهم وعرفوا حقيقة التوحيد ومكـانتـه وعـرفـوا حقـارة الشرك بالأوثان وغيرها وخطورته فى الوقت نفسه على المشركين فى الدنيا والآخرة .

وهذه ثمار طيبة عظيمة كانت نتيجة لجهاد رسول الله ﷺ وأصحابه وصبرهم فى ميدان الدعوة الحقة إلى الله وحملتهم المكثفة على الطواغيت والأوثان والأنصاب .

---

(١) المنتخب في مسند عبد بن حميد (ص٢٠٨) رقم (١١٢١) ومسند أبى يعلى الموصلى (ل ١٠١) كلاهما عن أبى بكر بن أبي شيبـة حدثنـا على بن محمـد عن الاجلح عن الـذيـال بن حرملة الأسـدى عن جابـر ـ رضى الله عنه ـ مرفوعا قال ابن كثير فى تفسيره (٧/ ١٥١) بعد أن ساق الحديث باسناده عن عبد بن حميد وأبى يعلى : «وقد ساقه البغوى فى تفسيره بسنده عن محمد بن فضيل عن الاجلح وهـو ابن عبـد الله الكنـدي وقـد ضعف بعض الشيىء عن الـذيـال . . . » لكن الحـافظ قال فيه «صدوق شيعى من السابعة» تقـريب (١ /٤٦) وقـال الـذهبي : وثقـه ابن معين وغيره وضعفه النسائى وهو شيعى » الكاشف (١ / ٩٩) وشيخه الذيال قال الحافظ : عن جابـر وابن عمـر والقـاسم بن مخيمـرة وعنـه فطر بن خليفة وحصين والأجلح وحجاج بن أرطاة وثقه ابن حبان تعجيل المنفعة (٨٤) وبقية رجال الاسناد ثقات .

ثم لما أصبح للمسلمين شوكة ودولة انتقل رسول التوحيد ﷺ إلى خطوة عملية جديدة هى سحق الأصنام وتحطيمها وإبادتها وتطهير الأرض منها ادراكاً منه لخطورتها فهى المصدر الأساسى والخطير على الأجيال البشرية من فجر تاريخها وإلى أن ينتهى تاريخها كما قال إمام الحنفاء : ﴿**واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام رب انهن اضللن كثيراً من الناس**﴾(ابراهيم : **٣٥-٣٦**) . فمن هنا قرر الرسول الأعظم محمد ﷺ القيام بتطهير الأرض من الأوثان وتسوية القبور لأنها قرينة الأصنام فى اضلال البشرية .

فعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : دخل النبى ﷺ مكة وحول الكعبة ثلاثمائة وستون نصبا ، فجعل يطعنها بعود فى يده ويقول : «جاء الحق وزهق الباطل» ، جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد»[١] .

وجهز رسول الله ﷺ جيشا لذى الخلصة من المدينة إلى خثعم فغزاها . عن جرير بن عبد الله البجلى رضى الله عنه قال : كان بيت فى الجاهلية يقال له ذو الخلصة ، والكعبة اليمانية ، والكعبة الشامية ، فقال لى النبى ﷺ : ألا تريحنى من ذى الخلصة ؟ فنفرت فى خمسين ومائة فارس من أحمس ، فكسرناه وقتلنا من وجدنا عنده فأتيت النبى ﷺ فاخبرته ، فدعا لنا ولأحمس ، وفى لفظ للبخارى : وكان ذو الخلصة بيتا باليمن لخثعم وبجيلة فيه نصب تعبد يقال له الكعبة[٢] . ولفظه فى البخارى ومسلم وأحمد : «ألا تريحنى من ذى الخلصة» .

انظر إلى هذا التعبير النبوى فكان وجود الأوثان يقض مضجعه ويقلقه عليه الصلاة السلام فلا يقر له قرار ولا يجد راحة واعجب من واقع كثير من الدعاة اليوم يرون أمام اعينهم مظاهر الشرك فلا تحرك فيهم ساكنا ولا يحسبون لهذا الواقع المر حسابا بل الأدهى والأمر انهم يتذمرون ممن ينكر ويتألم لهذا الواقع الجاهلى السىء .

وعن أبى الطفيل عامر بن واثلة ، قال : «لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة ، وكانت بها العزى ، وكانت على ثلاث سمرات فقطع السمرات ، وهدم

---

(١) أخرجه البخاري ٤٦ ـ باب المظالم حديث (٢٤٧٧) ، و٦٤ ـ كتاب المغازى ٤٨ ـ باب أين ركز النبى ﷺ رايته يوم الفتح ، حديث (٤٢٨٧) و٦٥ ـ تفسير سورة الاسراء ١٢ ـ باب «وقل جاء الحق وزهق الباطل ، حديث (٤٧٢٠) ومسلم ٣٢ ـ كتاب الجهاد ٣٢ ـ باب ازالة الأصنام من حول الكعبة ، حديث (٨٧) والترمذي ٤٨ ـ كتاب التفسير ١٨ ـ تفسير سورة الاسراء حديث (٣١٣٨) . والإمام أحمد في المسند (١/٣٧٧) .

(٢) البخارى ٦٤ ـ كتاب المغازى ٦٢ ـ باب غزوة ذى الخلصة ، أحاديث (٤٣٥٥ ، ٤٣٥٦ ، ٤٣٥٧) ، ومسلم ٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة ، ٢٩ ـ باب من فضائل جرير بن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ ، حديث (١٣٦ ، ١٣٧) . وأبو داود ٩ ـ كتاب الجهاد ، ١٧٢ ـ باب بعثة البشراء (٢٧٧٢) (٣/٢١٥) والامام أحمد في المسند (٤/٣٦٠ ، ٣٦٢) .

البيت، الـذى كان عليهـا ثم اتى النبى ﷺ فاخبـره فقال : ارجع فإنك لم تصنع شيئاً فرجع خالـد فلما ابصرتـه السدنـة وهم حجبتها امعنوا فى الجبل، وهم يقولون : ياعزى، ياعزى فأتاها خالد، فإذا هى امرأة عريانة ناشرة شعرها تحفن التراب على رأسها فغمسها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ، فاخبره فقال : تلك العزى»[١].

وكـانت منـاة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب، فبعث رسول الله ﷺ أبا سفيان ليهدمها وقيل على بن أبى طالب[٢].

وسألت ثقيف رسول الله ﷺ أن يدع الطاغية وهى اللات، لا يهدمها، ثلاث سنين فابى رسـول الله ﷺ، فما برحـوا يسألـونه سنة سنة، ويأبى عليهم، حتى سألوه شهراً واحداً بعـد قدومهم، فأبى عليهم أن يدعهـا شيئـاً مسمى. وإنـما يريـدون بذلك فيما يظهرون أن يسلمـوا بتركهـا من سفهـائهم ونسـائهم وذرياتهم . . . فأبى رسول الله ﷺ إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة يهدمانها[٣]، وعن عثمان بن أبى العاص أن رسول الله ﷺ أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كان طاغيتهم[٤].

قال ابن جرير[٥] : وكانوا قد استقوا إسمها من اسم الله فقالوا : اللات يعنون مؤنثة منـه تعـالى الله عن قولهم علواً كبـيراً. وروى بأسـانيده إلى قتادة، وابن عباس ومجاهد وابن زيد، إن اللات بتشديد التاء رجل كان يلت السويق للحاج فمات فعكفوا على قبره فعبدوه .

وقـال الإمـام البخـارى : حدثنـا مسلم بن إبـراهيم، حدثنا أبو الأشهب، حدثنا أبو الجـوزاء عن ابن عبـاس رضى الله عنهـما فى قولـه : الـلات والعزى. كان اللات رجلا يلت سويق الحاج[٦].

---

(١) أخرجه النسائى في التفسير في الكبرى كما فى تحفة الاشراف (٤/ ٢٣٥) أخبرنا على بن المنذر، أخبرنا ابن فضيل، حدثنا الوليد بن جميع، عن أبى الطفيل، لما فتح رسول الله ﷺ مكة. . » الحديث، وهو اسناد حسن. وانظر تفسير ابن كثير (٧/ ٤٢٩-٤٣٠).

(٢) السيرة لابن هشام (١/ ٨٥-٨٦).

(٣) السيـرة لابن هشـام (٢/ ٥٤٠-٥٤١). وابن جريـر (٣/ ١٤٠)، والبداية والنهاية (٥/ ٣٢) ط مكتبة المعارف وعيون الأثر لابن سيد الناس (٢/ ٢٢٨) وزاد المعاد (٣/ ٤٩٩-٥٠٠).

(٤) ابن ماجه ٤ ـ كتاب المساجد، حديث (٧٤٣)، وأبو داود ٢ ـ الصلاة، حديث (٤٥٠) ورجاله ثقات إلا محمد بن عبد الله ابن عياض «مقبول».

(٥) فى التفسـير (٢٧/ ٥٨، ٥٩)، والسـيرة لابن هشـام (٧٨-٨٩) وقـد أطال النفس فى الحديث عن أصنام العرب ومعبوداتها وبيان عبادتها.

(٦) فى الصحيح ٦٥ ـ كتاب التفسير، تفسير سورة النجم ٢ ـ باب «أفرأيتم اللات والعزى».

ولما كانت فتنة القبور والأوثان من باب واحد، والرباط بينها وثيق جداً حيث إن الأوثان والأنصاب إنما نحتت وصورت وعبدت حبا وغلوا فى الصالحين كما فعل قوم نوح بود وسواع ويغوث ويعوق ونسر لأنهم رجال صالحون كذلك إنما شيدت القبور وشدت إليها الرحال وقدمت لها القرابين حبا وغلوا فى رجال صالحين وفى أقوام الله أعلم باحوالهم وبمآلهم .

وعلى كل حال فلما كان النوعان من باب واحد لم يدخر رسول الله ﷺ وسعا فى الأمر بهدم القبور ونهى أن يبنى عليها أو يزاد عليها ونهى عن تجصيصها ونهى عن الصلاة عليها وإليها وحذر التحذير الشديد من شرها ولعن من يتخذون المساجد عليها، عن أبى الهياج الأسدى قال : قال لى على بن أبى طالب : ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله ﷺ، ألا تدع تمثالا إلا طمسته ولا قبراً مشرفا إلا سويته[1] .

ألا ترى أن رسول الله ﷺ كان يبعث عليا لتسوية القبور كما يبعثه لطمس التماثيل ولا تستبعد أن رسول الله ﷺ كان يجند رجالا هنا وهناك للقيام بهدم الأصنام والقبور كما مر بنا سابقا .

وعن ثمامة بن شفي قال : كنا مع فضالة بن عبيد، بأرض الروم برودس، فتوفى صاحب لنا، فأمر فضالة بن عبيد بقبره، فسوى ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها[2]، وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه[3]، وعن أبى مرثد الغنوى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لا تصلوا إلى القبور، ولا تجلسوا عليها»[4] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «اللهم لا تجعل قبري وثنا

---

(١) أخرجه مسلم ١١ ـ كتاب الجنائز، ٣١ ـ باب الأمر بتسوية القبر، حديث (٩٣)، وأبو داود ١٥ ـ كتاب الجنائز، ٧٢ ـ باب فى تسوية القبر، حديث (٣٢١٨)، والترمذى ٨ ـ كتاب الجنائز. ٥٦ ـ باب ما جاء في تسوية القبور، حديث (١٠٤٩) والنسائى (٤/٧٣). وأحمد في المسند (١/٩٦، ١٢٩).

(٢) أخرجه مسلم ١ ـ كتاب ٣١ ـ باب الأمر بتسوية القبر حديث (٩٢) وأبو داود ١٥ ـ كتاب الجنائز. ٧٢ ـ باب فى تسوية القبور، حديث (٣٢١٩)، والنسائى (٤/٧٢-٧٣).

(٣) أخرجه مسلم ١١ ـ كتاب الجنائز، ٣٢ ـ باب النهي عن تجصيص القبور والبناء عليها حديث (٩٤) وأبو داود ١٥ ـ كتاب الجنائز، ٧٦ ـ باب في البناء على القبر حديث (٣٢٢٥)، والنسائى (٤/٧٢).

(٤) أخرجه مسلم ١١ ـ كتاب الجنائز ٣٣ ـ باب النهى عن الجلوس على القبر حديث (٩٧، ٩٨) وأبو داود، ١٥ ـ كتاب الجنائز، ٧٧ ـ باب كراهية القعود على القبر، حديث (٣٢٢٩).

يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[1].

وتستمر هذه العناية النبوية الواعية، لأخطار الأوثان والقبور إلى آخر لحظة من لحظات حياة الرسول الناصح الأمين صلوات الله وسلامه عليه. فعن جندب بن عبد الله البجلي رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس وهويقول: «إنى أبرأ إلى الله أن يكون لى منكم خليل، فإن الله قد اتخذنى خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولوكنت متخذاً من أمتى خليلاً لاتخذت أبابكر خليلاً، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإنى أنهاكم عن ذلك»[2].

وعند احتضاره وبعد اختياره للرفيق الأعلى كان شغله الشاغل خطر فتنة القبور على هذه الأمة التى جهل أكثرها قدر هذه الاهتمامات النبوية وجهلت خطر هذه الفتنة الماحقة.

فعن عائشة أم المؤمنين وابن عباس رضى الله عنهم قالا: لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه فقال: وهوكذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر مثل ما صنعوا[3].

وعن أسامة بن زيد رضى الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال في مرضه الذى مات فيه: «ادخلوا على أصحابى، فدخلوا عليه وهو مقنع ببردة معافرى[4] فكشف القناع، فقال: لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد[5].

---

(١) مالك فى الموطأ ٩ - كتاب قصر الصلاة فى السفر ٢٤ - باب جامع الصلاة حديث ٨٥ مرسلا وأحمد (٢/٢٤٦) ثنا سفيان عن حمزة بن المغيرة عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - مرفوعا وابن سعد فى الطبقات (٢/٢٤٠-٢٤١) من طريق مالك به، (٢/٢٤١-٢٤٢) من طريق سفيان عن حمزة به وأبو نعيم فى الحلية (٣١٧/٧) من طريق سفيان عن حمزة به.

(٢) أخرجه مسلم ٥ - كتاب المساجد ٣ - باب النهى عن بناء المساجد على القبور حديث (٢٣)، والنسائى فى الكبرى، كما فى تحفة الاشراف (٤٤٣/٢) وأبو عوانه (٤٠١/١) والطبرانى (٢/١٨٠) حديث (١٦٨٦). وابن سعد فى الطبقات (٢/٢٤٠) مختصراً.

(٣) أخرجه البخارى ٢٣ - كتاب الجنائز. ٦١ - باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور، حديث (١٣٣٠) وباب ٩٦ - حديث (١٣٨٩) ومسلم، ٥ - كتاب المساجد باب النهى عن بناء المساجد على القبور حديث (١٩) عن عائشة، وحديث (٢٢) عن عائشة وابن عباس - رضى الله عنهم - والنسائي (٢/٣٣)، والامام أحمد فى المسند (٢١٨/١)، (٦/٣٤) والدارمي (٢٦٧/١).

(٤) برود باليمن منسوبة إلى معافر وهى قبيلة باليمن «النهاية لابن الأثير».

(٥) رواه أحمد فى مسنده (٥/٢٠٤) والطبرانى فى الكبير (١٢٧/١) حديث (٣٩٣)، (١٣١/١) حديث (٤١١) والطيالسى فى مسنده (ص٨٨) حديث (٦٣٤) وفى اسناده قيس بن الربيع الأسدى قال الحافظ: «صدوق تغير لما كبر وادخل عليه ابنه ما ليس من حديثه، وفيه كلثوم الخزاعى قال فيه الحافظ «مقبول» لكنه مع ذلك يصلح فى الشواهد.

وعن أبى عبيدة رضى الله عنه قال : كان آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ : «اخرجوا يهود الحجاز من جزيرة العرب، واعلموا أن شرار الناس الذين يتخذون القبور مساجد»[1].

سرح طرفك فى مشارق بلاد المسلمين ومغاربها تر العجب العجاب تر واقعاً يتحدى هذه النصوص النبوية، وإذا قرأت عليهم هذه النصوص وبينت لهم مصادرها وتمسك الصحابة واعيان الأمة بها واجهوك بتأويلات اسخف من تأويل من قالوا : «إنما البيع مثل الربا». واتهموك بعداء الأولياء .

والآن نتساءل إذا كانت دعوات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تحمل فى طياتها كل خير، وتحذر من كل شر، فما بالنا نرى فيما قص الله علينا فى كتابه وفى دراستنا لسنة وسيرة نبينا محمد ﷺ أن دعواتهم إلى التوحيد ومحاربة الشرك ومظاهره وأسبابه ووسائله قد أخذت مساحة كبيرة جداً من دعواتهم واستغرقت زمنا طويلا من حياتهم حتى لكأنما كان هذا الجانب هو شغلهم الشاغل. فأين مواقفهم من الحكام الطغاة المستبدين ؟ .

والجواب إن ما انتهجه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هو عين الحكمة والصواب ومقتضى العقل السليم .

فليس فى مشاكل البشر سياسيها واقتصاديها واجتماعيها من الخطر ما يساوى مشكلة الشرك ومضاره ولا يقاربها **﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾**، **﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار﴾**، **﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق﴾**.

فالعقل والحكمة والفطرة تقتضى إذاً أن يبدأ بمحاربة خطر الشرك وأن تستمر دعوات الأنبياء واتباعهم على محاربته ما بقيت منه بقية أو بقى له شكل أو مظهر. فإذا أحاطت بأمة مشاكل عقائدية شرك يدمر عقيدتها ومشاكل اقتصادية ومشاكل سياسية فبأيها تبدأ المعالجة الحكيمة .

أما الأنبياء فلم يبدؤا إلا بمعالجة مشكلة العقيدة بكل قوة والبدء بمعالجة الأمر الأخطر أمر يتفق عليه كل عقلاء البشر. فمثلا لو رأى عاقل ثعبانا ونملة يدبان إلى إنسان لأملى عليه عقله أن يبادر إلى دفع الثعبان أو قتله لشدة خطره على هذا الإنسان ولا يمكن

---

(١) أخرجه الامام أحمد (١/١٩٥) ثنا أبو أحمد الزبيرى، ثنا إبراهيم بن ميمون عن سعد بن سمرة عن سمرة بن جندب عن أبى عبيدة بن الجراح أبو أحمد الزبيرى ثقة ثبت /ع وإبراهيم بن ميمون مولى آل سمره وثقه ابن معين وقال أبو حاتم محله الصدق «تعجيل المنفعة» (ص٢٠) وسعد بن سمره وثقة النسائى وابن حبان تعجيل (ص١٠١)، فهو اسناد صحيح إن شاء الله .

أن يلقى بالاً للنملة ولا لألف نملة .

ولو رأى عقلاء أسداً هصوراً وجماعة من الفئران تهجم عليهم لحملوا حملة واحدة لصد هجوم الأسد وتناسوا الفئران ولو كان معها جماعة أخرى من الضفادع .

ولو أن مسافرين انتهى بهم السير إلى طريقين لا خيار لهم من سلوك أحدهما . أحدهما فيه براكين تقذف بلهبها ونيران تلتهم أشجارها واحجارها ، وثانيهما فيه الأشواك والرمضاء واشعة الشمس اللاهبة لما أختار عقلاؤ هم إلا سلوك الطريق الثانى .

لنأخذ الآن أشد المفاسد أعنى المفاسد السياسية والاجتماعية والإقتصادية وأشدها فساد الحكم لنوازنها بفساد العقيدة فهل هما فى ميزان الله وميزان الأنبياء سواء . أو أن أحدهما أشد خطراً وأدهى وأمر عاقبة .

ففى ميزان الله وميزان أنبيائه أن أشدهما خطراً وأجدر بالتركيز عليه على مر الدهور والعصور وفى كل الرسالات إنما هو الشرك ومظاهره الذى لا يضاهيه فساد مهما عظم شأن هذا الفساد، وبناء على هذا نعود فنقول : إنَّ بَدْأ جميع الأنبياء بإصلاح الجانب العقائدى ومحاربة الشرك ومظاهره هو مقتضى الحكمة والعقل وذلك للأمور الآتية :

أولاً : أن المفاسد المتعلقة بعقائد الناس من الشرك والخرافات وأنواع الضلال أخطر آلاف المرات من المفاسد المترتبة على فساد الحكم وغيره ، فإن لم نقل هذا ونعتقده سفهنا من حيث لا نشعر جميع الأنبياء . ونعوذ بالله من الضلال . إن هذه المفاسد تشمل الحاكم والمحكوم فالحكام أنفسهم فى كل زمان ومكان إلا المؤمنين منهم ـ يخضعون للأصنام والأوثان والقبور ويقومون بتشييدها وحمايتها وعبادتها وتقديم القرابين لها ، ويعتقدون أن لها سلطة غيبية قاهرة فوق سلطانهم المادى ، فهى تضرهم وتنفعهم بذلك السلطان الغيبى فى زعمهم وبتلك القوة القاهرة الخفية أو على أقل تشفع لهم عند الله فى تحقيق مآربهم .

وأوضح مثال لخضوع الحكام للأوثان ذلك الطاغية المتأله فرعون الذى قال متبجحاً : **﴿أنا ربكم الأعلى﴾** ، فقد حكى الله مقالة قومه له وهم يستثيرون فيه الحمية والغيرة لآلهته ومعبوداته فقال : **﴿وقال الملأ من قوم فرعون اتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك﴾** . (الاعراف : ١٢٧) ألا ترى أكبر طاغية عرفته الأرض مع دعواه الربوبية يخضع للأوثان ويتخذها ألهة .

وهذا النمروذ ملك الكلدانيين الذى ادعى الربوبية يأمر باحراق إبراهيم عليه السلام عندما حطم الأصنام أخذاً بثأر هذه الأصنام لأنها آلهته .

وهؤلاء ملوك الهند والفرس يعبدون الأوثان والنيران وملوك الرومان فى الماضى وحكام أوربا وأمريكا فى الحاضر يعبدون الصلبان والصور، وكم من حكام المسلمين فى الماضى والحاضر من فَتِنَ بالأموات وشاد عليهم القبور وتعلق بها قلبه حبا ورجاء وخوفا وارتكبوا ما خشيه رسول الله على هذه الأمة وحذر منه .

ومن هنا يتضح لك جدية منهج الأنبياء وأحقيته ، ويتضح لك أهمية مواقف الرسول الحاسمة من الأوثان والقبور كما يتضح لك حكمة إبراهيم وعمق فكره وبعد نظره حينما اطلقها صيحة مدوية تتجلجل فى الافاق والأجيال ﴿**واجنبنى وبني أن نعبد الأصنام، رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم**﴾ (إبراهيم ٣٥، ٣٦) .

فترى إبراهيم وهو على غاية من الحق والصواب ـ يجأر إلى الله من مخاطر الأصنام ولا يجأر إليه من مخاطر الحكام على جسامة فسادهم وخطرهم .

ثانياً : ان الله ما ارسل الرسل إلا ليعلموا الناس الخير وينذرونهم بطش الله والشر قال تعالى : ﴿**كان الناس أمة واحدة، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين**﴾ (البقرة: ٢١٣)، وقال تعالى : ﴿**وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ، فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ (الأنعام: ٤٨)، وقال تعالى : ﴿**وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين**﴾ (الكهف: ٥٦)، وقال تعالى : ﴿. . . **رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل**﴾ (النساء: ١٦٥) .

وقال رسول الله ﷺ : «ولا أحد أحب عليه العذر من الله ، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين»(١)، وقال تعالى : ﴿**فهل على الرسل إلا البلاغ المبين**﴾ (النحل: ٣٥)، وقال تعالى : ﴿**وما على الرسول إلا البلاغ المبين**﴾ (النور: ٥٤)، وقال تعالى : ﴿**وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين**﴾ وهذه مهمة الانذار والتبشير والإبلاغ مهمة جليلة وعظيمة نبيلة يكفيها عظمة ونبلا أنها مهمة الأنبياء وتتناسب مع مكانتهم الرفيعة فإنها أشق وأعظم ما يتحمله البشر أو يتحمله ورثتهم

(١) أخرجه البخارى ٩٧ ـ كتاب التوحيد ٢ ـ باب قول النبي ﷺ لا شخص اغير من الله، حديث (٧٤١٦)، ومسلم ١٩ ـ كتاب اللعان حديث (١٧) (٢/١١٣٦)، وأحمد فى المسند (٤/٢٤٨). والدارمى (٢/٧٣)، حديث (٢٢٣٣).

من الدعاة الصادقين المخلصين السائرين فى مناهجهم ولهذا قال رسول الله ﷺ : «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل». وقد ذكرنا سلفا مدى ما يواجه الداعية إلى التوحيد من المشقة وكيف لا يستطيع غيرهم أن يجول فى هذا الميدان .

ثالثاً : أن الله سبحانه وتعالى ، لم يكلفهم بإقامة دول وإسقاط أخرى وذلك فى غاية الحكمة ، لأن الدعوة إلى إقامة دولة تلوح فيها المطامع لطلاب الدنيا وطلاب الجاه والمناصب وأصحاب الأغراض والأحقاد وأصحاب التطلعات والطموحات فما أسرع ما تستجيب هذه الأصناف للدعوة إلى قيام دولة يرون فيها تحقيق مآربهم وشهواتهم ومطامعهم .

لمثل هذه الاعتبارات ـ والله أعلم ـ وغيرها مما يعلمه الله الخلاق العليم الحكيم ابتعدت دعوات الأنبياء ومناهجهم عن استخدام هذا الشعار البراق الملوح أو المصرح بالأطماع والشهوات العاجلة وسلكت منهجا حكيما نزيها شريفا ينطوى على الابتلاء والاختبار فيتبعهم ويؤمن بهم كل صادق مخلص متجرد من كل المطامع والأغراض الشخصية ، لا يريد بإيمانه وتوحيده وطاعة رسل الله عليهم الصلاة والسلام إلا الجنة ومرضاة ربه ، ولا يخاف إلا من غضبه وأليم عقابه . ولهذا لا يتبعهم فى الغالب إلا الفقراء والمساكين والضعفاء . قال تعالى ـ حكاية عن قوم نوح : ﴿**قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون**﴾ (الشعراء : ١١١) ، وقال عن قوم صالح : ﴿**وقال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه . قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ، قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون**﴾ (الاعراف : ٧٥-٧٦) . وجاء فى اسئلة هرقل لأبى سفيان ، «فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ . قال أبوسفيان ، فقلت : بل ضعفاؤهم . ثم قال هرقل : وسألتك أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم اتباع الرسل» .

فالدعوة إلى إقامة دولة أسهل بكثير وكثير ، والاستجابة لها أسرع ، لأن أكثر الناس طلاب دنيا وأصحاب شهوات ولما ذكرنا من الأسباب والعقبات والصعاب فى طريق دعوات الرسل نجد أنه لا يتبعهم إلا القليل فنوح ، لبث ألف سنة إلا خمسين عاما يدعو إلى الله ومع ذلك ﴿**وما آمن معه إلا قليل**﴾ (هود : ٤٠) .

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «عرضت علي الأمم ، فرأيت النبى ومعه الرهيط ، والنبى ومعه الرجل والرجلان ، والنبى وليس معه أحد ، إذ رفع لى سواد عظيم فظننت أنهم أمتى ، فقيل لى : هذا موسى وقومه ، ولكن انظر إلى الافق

فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لى هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب﴾[1].

وهذا إبراهيم الخليل قامع المشركين بالحجج الدامغة والبراهين قال الله تعالى فى شأنه وشأن من آمن له **﴿فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم﴾** (العنكبوت: ٢٦)، وهذا لوط يقول الله فى نجاة من معه من العذاب ولعلهن بناته فقط **﴿فاخرجنا من كان فيها من المؤمنين، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾** (الذاريات: ٣٥-٣٦).

ولا يغض ذلك من منازل الأنبياء مثقال ذرة بل هم فى أعلى المنازل وهم أنبل الناس وأجل الناس وأكرمهم وفوقهم فى كل شأن فى الرجولة والشجاعة والفصاحة والبلاغة والبيان والنصح والتضحية وقد قاموا بواجبهم على أكمل الوجوه من الدعوة إلى التوحيد والتبليغ والتبشير والانذار فإذا قل اتباعهم أو لم يتبع بعضهم أحد فالعيب كل العيب على الأمم التى رفضت الاستجابة لدعوتهم لأنها فى نظرهم - لا تحقق لهم اغراضهم الدنيئة ومع ذلك ما كانوا طلاب ملك بل كانوا دعاة هداية وتوحيد ولا كانوا يعدون اتباعهم للثورات والانقلابات السياسية .

وقد يهدى الله قوم نبي من الأنبياء فيستجيبون له أو كثير منهم فتكون لهم دولة، ثمرة طيبة، لإيمانهم وتصديقهم وأعمالهم الصالحة، فيقومون بواجبهم من الجهاد لإعلان كلمة الله وتطبيق التشريعات والحدود وغيرها من الأمور التى شرعها الله لهم كما حصل لنبينا محمد ﷺ وأصحابه الكرام توج الله إيمانهم وعملهم الصالح وصبرهم الجميل على بغى المشركين وتطاولهم بأن نصرهم، وأظهر دينهم، ومكن لهم فى الأرض كما قال تعالى: **﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدوننى، لا يشركون بى شيئاً﴾** ولقد عرض على رسول الله الملك بمكة فرفض إلا المضى فى الدعوة إلى التوحيد ومحاربة الشرك والأوثان أرسلت قريش - لما اقلقها أمر رسول الله ﷺ - عتبة بن ربيعة فأتى رسول الله ﷺ، فقال: «ياابن أخى إنك منا حيث قد علمت من السطة فى العشيرة، والمكان فى النسب وإنك قد اتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت بهم

---

(١) أخرجه البخارى ٧٦ - كتاب الطب ١٧ - باب من اكتوى أو كوى غيره حديث (٥٧٠٥)، ومسلم ١ - كتاب الايمان ٩٤ - باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، حديث (٣٧٤). وأحمد فى المسند (١/ ٢٧١).

أحلامهم وعبت به آلهتهم، ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منى اعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها، فقال له رسول الله ﷺ : قل ياأبا الوليد أسمع. قال : ياابن أخى، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنالك من أموالنا حتى تكون من أكثرنا أموالاً، وإن كنت تريد به شرفا سودناك حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه أوكما قال ـ حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال : أفرغت ياأبا الوليد ؟ قال : نعم. قال : فاستمع منى. قال : أفعل. قال : ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم . . . حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون، بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم، فهم لا يسمعون**﴾. ثم مضى رسول الله ﷺ يقرؤ ها عليه. فلما سمع عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليها يسمع منه ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال : قد سمعت ياأبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك . . . فذهب عتبة إلى قريش فلما جلس إليهم. قالوا ما وراءك ياأبا الوليد. قال : ورائى إنى قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هوبالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة. يامعشر قريش : أطيعونى واجعلوها لى خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به، قالوا : سحرك والله ياأبا الوليد بلسانه. قال : هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدالكم»(١).

وروى ابن إسحاق باسناده إلى ابن عباس أنه اجتمع نفر من قريش وعرضوا على رسول الله ﷺ ـ عرضا قريبا من عرض عتبة ومقالته لرسول الله ﷺ ـ بقوله : «ما بى ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا وأنزل على كتابا، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربى، ونصحت لكم فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وإن

---

(١) أورده ابن اسحاق في السيرة، قال حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرطبى قال حدثت أن عتبة بن ربيعة وساق القصة. السيرة لابن هشام (١/٢٩٣-٢٩٤) ولها شاهد من حديث جابر أخرجه عبد بن حميد وأبويعلى تقدم تخريجه وبه تتقوى القصة وتعتضد.

تردوه على أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم . . . »[1]. ومن هنا رفض رسول الله ﷺ طلب بعض القبائل أن يكون الأمر لهم بعد موته إن صح هذا الخبر .

قال ابن إسحاق : وحدثني الزهري أنه أتى بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم نفسه، فقال له رجل منهم، يقال له بيحرة بن فراس : والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش، لأكلت به العرب. ثم قال : أرأيت ان نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال : الأمر إلى الله، يضعه حيث يشاء، فقال له : أفتهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله، كان الأمر لغيرنا، لا حاجة لنا بأمرك فأبوا عليه»[2].

وخلاصة هذا أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما جاؤ ا لاسقاط دول وإقامة أخرى، ولا يطلبون ملكا ولا ينظمون لذلك أحزابا وإنما جاؤ ا لهداية البشر وانقاذهم من الضلال والشرك واخراجهم من الظلمات إلى النور وتذكيرهم بأيام الله ولوعرض عليهم الملك لرفضوه، ومضوا في سبيل دعوتهم، وعرضت قريش الملك على رسول الله فرفضه وقد عرض عليه أن يكون ملكا نبيا أوعبداً رسولا فاختار أن يكون عبدا رسولا . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء، فإذا ملك ينزل فقال جبريل : إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خلق قبل الساعة، فلما نزل، قال : يامحمد ! أرسلني إليك ربك قال : أفملكا نبيا يجعلك أوعبداً رسولا . قال جبريل : تواضع لربك يامحمد، قال : بل عبداً رسولا»[3].

ومن هنا ما كان يبايع الأنصار وغيرهم إلا على الجنة وكانت بيعة الأنصار في أحلك الظروف وأشدها فما كان فيها وعد بالمناصب لا الملك ولا الامارات ولا بالمال وبغير ذلك من حظوظ العاجلة. عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : «إني من النقباء الذين بايعهم

---

(1) السيرة لابن هشام (1/295-296) قال ابن اسحاق حدثني بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير وعن عكرمة مولى ابن عباس، عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قال: اجتمع نفر من قريش عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان . . .) وهذا يقوى ما قبله ويشد كل منهما الآخر.

(2) السيرة لابن هشام (1/424-425) والسيرة النبوية للذهبي (ص189-190).

(3) مسند أحمد (2/231) وابن حبان كما في الموارد (ص525) رقم (2137) كلاهما من طريق محمد بن فضيل عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال الالباني وهذا اسناد صحيح على شرط مسلم - الصحيحه (4/3) - وله شاهد من حديث ابن عباس قال الالباني أخرجه البغوي في شرح السنة (473/3) وسنده ضعيف «لكني لم أجده في الموضع المشار إليه».

رسول الله ﷺ وقال : بايعناه على أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل النفس التى حرم الله، إلا بالحق، ولا ننتهب، ولانعصي - بالجنة».

وعن أبى مسعود الأنصارى رضى الله عنه قال : انطلق رسول الله ﷺ ومعه العباس عمه إلى السبعين من الأنصار عند العقبة تحت الشجرة، فقال : ليتكلم متكلمكم ولا يطيل الخطبة فإن عليكم من المشركين عيناً، وإن يعلموا بكم يفضحوكم، فقال قائلهم - وهو أبو أمامة : سل يامحمد لربك ما شئت ثم سل لنفسك ولأصحابك ما شئت، ثم أخبرنا مالنا من الثواب على الله عز وجل، وعليكم إذا فعلنا ذلك. فقال : أسألكم لربى عز وجل أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأسالكم لي ولأصحابى أن تؤونا وتنصرونا، وتمنعونا مما منعتم منه أنفسكم. قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : لكم الجنة. قالوا : فلك ذلك»[1].

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : «مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتتبع الناس فى منازلهم بعكاظ ومجنة، وفى المواسم بمنى، يقول : من يؤينى، من ينصرنى حتى أبلغ رسالة ربى وله الجنة حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أومن مضر كذا) فيأتيه قومه، فيقولون : احذر غلام قريش، لا يفتنك، ويمشى بين رجالهم، وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله إليه من يثرب، فاويناه، وصدقناه فيخرج الرجل منا، فيؤمن به ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا فيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، ثم ائتمروا جميعا، فقلنا حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطرد فى جبال مكة، ويخاف، فرحل إليه منا سبعون رجلا، حتى قدموا عليه فى الموسم، فواعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين، حتى توافينا، فقلنا : يارسول الله نبايعك. قال : تبايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل، والنفقة فى العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن تقولوا فى الله لا تخافون فى الله

---

(١) رواه الإمام أحمد فى المسند (٤/١١٩-١٢٠) قال : ثنا يحى بن أبى زكريا بن أبى زائدة، حدثنى أبى عن عامر يعنى الشعبى. ثم رواه بهذا الاسناد عن مجالد عامر الشعبى عن أبى مسعود الأنصارى ثم رواه بهذا الاسناد عن اسماعيل بن أبى خالد عن الشعبى يقول : ما سمع الشيب ولا الشبان خطبة مثلها.

وقد تابع أبا الزبير الإمام الشعبى رحمه الله قال البزار رحمه الله «حدثنا محمد بن معمر، ثنا قبيصة ثنا سفيان عن جابر وداود (هو ابن أبى هند القشيرى، ثقة متقن، كان يهم فى آخر حياته تقريب) عن الشعبى عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ للنقباء من الأنصار : «تؤونى وتمنعونى قالوا : نعم، فما لنا. قال الجنة»، قال البزار لا نعلمه يروى عن الشعبى إلا بهذا الاسناد انظر كشف الاسناد (٢/٣٠٧).

وقد ذكر الحافظ ابن حجر هذه الأحاديث وحكى تصحيح بعضها وحسن بعضها وقوى بعضها أنظر فتح البارى (٧/٢٢٢-٢٢٣).

لومـة لائم ، وعلى أن تنصـرونى ، فتمنعـونى إذا قدمت عليكم مما تمنعـون منـه أنفسكم وأزواجكم وأبناء كم ، ولكم الجنة . قال : فقمنا إليه فبايعناه وأخذ بيده أسعد بن زرارة ، وهو أصغرهم فقال : رويداً ياأهل يثرب ، فإنا لم نضرب أكباد الإبل الا ونحن نعلم أنه رسول الله ﷺ وأن اخراجه اليوم مفارقة العرب ، كافة ، وقتل خياركم ، وأن تعضكم السيوف فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك ، وأجركم على الله ، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جبينة ، فبينوا ذلك ، فهوعذركم عند الله ، قالوا : أمط عنا ياأسعد فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً ولا نسلبها أبداً ، قال : فقمنا إليه فبايعناه ، فأخذ علينا وشرط ويعطينا على ذلك الجنة»(١) .

ومن هنـا أيضـا كان يربى أصحابـه على القـرآن والسنـة وعلى الإيـمان والصـدق والإخـلاص لله فى كل عمـل بعيـداً عن الأسـاليب السياسية والاغراء بالمناصب العالية . فما كان يمنى أحداً منهم قبل دخوله فى الإسلام أو بعده بمنصب فى الدولة هذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه أحد عظماء الصحابة وأقواهم شخصية ما كان يعده رسول الله ﷺ بالمناصب ولا تتطلع نفسه إليها حتى جاء يوم خيبر أى بعد عشرين سنة من البعثة فاجأهم رسول الله ﷺ بقـولـه : «لأعطـين الـرايـة غداً رجـلا يحب الله ورسـولـه يفتـح الله على يديه فبات هو والصحابة يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها» وقال عمر رضى الله عنه ما أحببت الإمارة إلا يومئذ(١) .

لأى شىء تطلع هؤلاء الصحـابـة الكرام أللإمارة نفسها أم لنيل هذه المنزلة العظيمة حب الله ورسوله ؟ ولماذا كان عمر بن الخطاب لا يحب الإمارة لو كان رسول الله يحببها إليهم

---

(١) أخرجه الامام أحمد (٣/٣٢٢) : ثنا عبد الـرزاق ، أنا معمر عن ابن خثيم عن أبى الزبير عن جابر ، (٣/٣٣٩) : ثنا اسحاق بن عيسى ، ثنا يحيى بن سليم ، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن أبى الزبير أنه حدثه عن جابر أن رسول الله ﷺ وذكر الحديث .

وأخرجه ابن حبان فى صحيحه ، كما فى موارد الظمآن (ص٤٠٨) والحاكم (٢/٦٢٤) وصححه ووافقه الذهبى .

(٢) أخرجه مسلم ٤٤ ـ كتاب الفضائل ٤ ـ باب فضائل على رضى الله عنه حديث (٣٣) عن أبى هريرة وحديث (٣٤) عن سهل بن سعد وفيه : فباتوا يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها وفيه رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله .

وحـديث (٣٢) عن سعـد بن أبى وقـاص وفيـه : لأعطـين الراية رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله قال : فتطاولنا لها» . والسبب هو ما ذكرناه حرصهم على هذه المنزلة الرفيعة عند الله لا على الإمارة نفسها .

وأخرجـه البخـارى ٥٦ ـ كتـاب الجهـاد ١٤٣ ـ باب فضـل من اسلم على يديه رجل حديث (٣٠٠٩)، ٦٢ ـ كتاب فضائل الصحابة . ٩ ـ باب مناقب على رضى الله عنه حديث (٣٧٠١) .

والـترمـذى ٥٠ ـ كتـاب المنـاقب باب ٢١ ـ حديث (٣٧٣٤) . (٥/٤٣٨) وابن ماجة فى المقدمة ١١ ـ حديث (١١٧) اسناده ضعيف فيه محمد بن أبى ليلى وهو ضعيف .

ويـربيهم عليهـا ويمنيهم بها. بل كان ينفـرهم منهـا ويحـذرهم من الحرص عليها، عن أبى هريـرة رضى الله عنـه قال: «انكم ستحـرصـون على الإمـارة وستكون ندامة يوم القيامة، فنعم المرضعة وبئست الفاطمة»(١)، وينهى عن طلبها والحرص عليها، عن عبد الرحمن بن سمرة رضى الله عنه قال: «قال لى رسول الله ﷺ: ياعبد الرحمن! لا تسأل الإمارة. فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها»(٢).

بل فوق كل هذه الأسـاليب يرسى قاعـدة إسـلاميـة تحرم المناصب على من يتعشقها ويحـرص عليهـا، عن أبى موسى الأشعـرى رضى الله عنه قال: «دخلت على النبي ﷺ أنا ورجـلان من بنى عمى فقـال أحـد الـرجلين: يارسول الله أمِّرنا على بعض ما ولاك الله عز وجـل. وقـال الآخـر مثـل ذلـك، فقـال: إنا لا نولي على هذا العمل أحداً سأله ولا أحداً حرص عليـه»(٣). وفى لفـظ عنـد مسلم: «ما تقول ياأبا موسى أوياعبد الله بن قيس قال: فقلت: والذى بعثك بالحق ما أطلعانى على ما فى أنفسهما وما شعرت أنهما يطلبان العمل، قال: وكأنى انظـر إلى سواكـه تحت شفتـه وقد قلعت، فقال: لن أولا نستعمل على عملنا من اراده، ولكن أذهب أنت ياأبا موسى، فبعثه إلى اليمن ثم اتبعه معاذاً»، وفى النسائى: «إنا لا نستعين فى عملنا بمن سألنا».

قال الحـافـظ. قال المهلب: «الحرص على الولاية هو السبب فى اقتتال الناس عليها حتى سفكت الدماء واستبيحت الأموال والفروج وعظم الفساد فى الأرض بذلك ووجه الندم أنه قد يقتل أو يعزل أو يموت فيندم على الدخول فيها لأنه يطالب بالتبعات التى ارتكبها، وقد فاته ما حرص عليه بمفارقته. قال: ويستثنى من ذلك من تعنى عليه كأن يموت الوالى

---

(١) أخرجه البخارى ٩٣ ـ كتاب الأحكام، ٧ ـ باب ما يكره من الحرص على الامارة حديث (٧١٤٨) والامام أحمد فى المسند (٤٤٨/٢) والنسائى فى كتاب آداب القاضى (١٩٩/٨).

«نعم المرضعة لما فيها من حصول الجاه والمال ونفاذ الكلمة، وتحصيل اللذات الحسية والوهمية حال حصولها وبنت الفاطمة عند الانفصال عنها بموت أو غيره وما يترتب عليها من التبعات فى الآخرة فتح البارى (١٢٦/١٣).

(٢) البخـارى ٩٣ ـ باب من سأل الامـارة وكـل اليهـا حديث (٧١٤٧) ومسلم ٣٣ ـ كتـاب الإمارة ٣ ـ باب النهى عن طلب الامارة والحرص عليها حديث ١٣ ـ والنسائى (١٩٨/٨).

(٣) البخارى ٩٣ ـ كتاب الأحكام ٧ ـ باب ما يكره من الحرص على الإمارة (٧١٤٩) ومسلم ٣٣ ـ كتاب الامارة باب النهى عن طلب الامارة، حديث ١٤، ١٥ (١٤٥٦/٣) والنسائى (١٩٨/٨).

ولا يوجد بعده من يقوم بالأمر غيره، وإذا لم يدخل فى ذلك يحصل الفساد بضياع الأحوال»[1] .

وعلى كل حال فالإمارة والقضاء من الأمور التى لا بد منها ولا تقوم حياة المسلمين إلا بها وبها تعصم الدماء والأموال. ولكن يجب أن نسلك فى اختيار الأمراء والقضاة منهاج رسول الله ﷺ فلا تعطى هذه هذه المناصب لمن يسألها أو يحرص عليها أو يرشح نفسه لها عن طريق الانتخابات مثلا فإن هذا من الحرص عليها، وإنما يختار لها الاكفاء علما وزهداً فيها وتقوى. ثم ينبغى أن نستفيد من هذا المنهج النبوى فى التربية، فلا ينبغى أن ننشىء الشباب على حب القيادة والرئاسة والسيادة والإمارة فلو نشأناهم على حب هذه الأشياء خالفنا هدى رسول الله ﷺ واوقعنا الشباب فى المهالك وأى فلاح ننتظره فى الدنيا والآخرة ان خالفنا منهج رسول الله ﷺ .

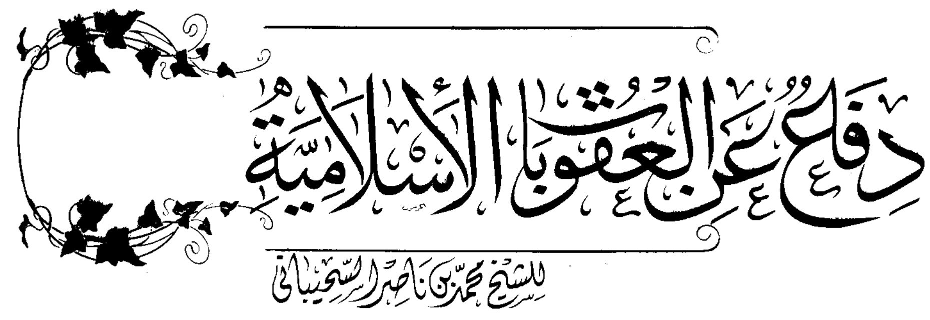
﴿ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين، وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون﴾. (النور: ٤٧-٤٨).

قال رسول الله ﷺ :

« إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً : يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم .

ويكره لكم : قيل وقال، وكثرة السؤال، واضاعة المال » . . .

(١) فتح الباري (١٣/١٢٦).



للشيخ محمد بن ناصر السحيباني
عميد كلية الشريعة بالجامعة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين. . .

أما بعـــد :

فقد سبق أن وعدت فى مقالة سابقة تكلمت فيها عن مزايا التشريع الإسلامى، وأشرت إلى ما تتعرض له الشريعة الإسلامية من استنقاص وازدراء من قبل أعدائها، ومن قبل من يتظاهرون بأنهم من أبنائها، وقد وعدت فى تلك المقالة أن أخص العقوبات الإسلامية بكلمة مختصرة موجزة، أبين فيها ما تبين من وجوه الحكمة فيها، وما تمتاز به عن العقوبات التى وضعها الإنسان وضعاً ارتجالياً متأثراً بأهوائه ورغباته، مسترشداً بنظره القاصر، وتفكيره المحدود، وقبل أن أدخل فى موضوع العقوبات، أقدم بكلمة قصيرة عن الجريمة ونظرة الإسلام إليها، فأقول مستعيناً بالله :

أولا : تعريف الجريمـــة :

الجريمة عند أهل اللغة تأتى بمعنى الجناية وبمعنى الذنب. قال فى اللسان :

وجرم إليهم وعليهم جريمة وأجرم : جنى جناية[1].

وفى تاج العروس، والجرم بالضم الذنب كالجريمة. وقال : والمجرمون فى قوله تعالى : ﴿**وكذلك نجزى المجرمين**﴾ الكافرون لأن الذى ذكر من قصتهم التكذيب بآيات الله والاستكبار عنها قاله الزجاج[2]، والذى يلفت النظر، أن لفظة الاجرام وردت فى كثير من الآيات الكريمة، وكلها والله أعلم يقصد بها الكافرون أو المشركون ونحوهم من المكذبين والمنافقين. كما نقله صاحب التاج عن الزجاج، كما ورد فى قوله تعالى : ﴿**سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون**﴾ الأنعام : ١٢٤ .

(١) لسان العرب لابن منظور جـ/١٢ ص ٩١.

(٢) تاج العروس للزبيدى جـ/٨ ص ٢٢٤.

وقوله تعالى: ﴿انه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحي﴾. (طه: ٧٤)[١].

أما عند الفقهاء فقد عرفها الماوروى بقوله: الجرائم محظورات شرعية زجر الله تعالى عنها بحد أو تعزير[٢].

وقوله تعالى: ﴿يود المجرم لو يفتدى من عذاب يؤمئذ ببنيه﴾، (المعارج: ١١)، وقوله تعالى:

﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين﴾ (القلم: ٣٥)، وهى تصل إلى أكثر من خمسين آية[٣]، بينما فى السنة لم ترد هذه الكلمة على لسان رسول الله ﷺ إلا فى حالات قليلة جدا، كما في حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه، أن النبى ﷺ قال: «إن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته». أخرجه البخاري[٤].

وحديث عائشة رضى الله عنها قالت: قيل لها إن ابن عمر يرفع إلى النبى ﷺ إن الميت يعذب ببكاء الحي، قالت: وهل أبوعبد الرحمن، إنما قال إن أهل الميت يبكون عليه، وأنه ليعذب بجرمه[٥].

ولم تستعمل هذه الكلمة من قبل الفقهاء فى الصدر الأول بمعنى الجناية إلا فى حالات قليلة، فقد بوب البخاري رحمه الله فى كتابه على حديث كعب بن مالك رضى الله عنه فى قصته المشهورة لما تخلف هو ومن معه عن غزوة تبوك، بوب بقوله: باب هل للإمام أن يمنع المجرمين وأهل المعصية من الكلام معه والزيارة ونحوه[٦] مع أن الحديث كما هو معروف لم يتضمن هذه الكلمة، وقد ذكر الحافظ رحمه الله أن رواية ابن التين الاسماعيلى والجرجانى، لم تكن بلفظ المجرمين، وإنما بلفظ المحبوس بدل المجرمين. كما بوب فى الديات بقوله: باب إثم من قتل ذمياً بغير جرم، وساق حديث عبد الله بن عمرو بهذا الصدد[٧]، مع أنه لم يتضمن هذه الكلمة، ومثل ذلك فعل فى كتاب الجزية فعنون بهذا العنوان وساق الحديث.

فقد يكون السلف رضى الله عنهم يتحرجون من اطلاق هذه الكلمة فى حق العصاة من المسلمين لما لاحظوه من ورودها فى القرآن الكريم فى حق الكفار فى أكثر المواضع، وإن

(١) أنظر تفسير النسفى جـ/٣، جـ/٤ ص ٦٠، ٣٤١، ص٢٨٢.
(٢) الأحكام السلطانية للماوردى ص ٢١٩.
(٣) وانظر القرطبى جـ/١٩ ص٢٦٧، جـ/١٨ ص٢٨٦، ٢٤٦.
(٤) أنظر فتح البارى جـ/١٣ ص ٢٦٤.
(٥) المسند جـ/٦ ص٥٧، الفتح الربانى جـ/٧ ص١١٦.
(٦) انظر فتح البارى جـ/١٣ ص٢١٦.
(٧) انظر فتح البارى جـ/١٢ ص٢٥٩، جـ/٦ ص٢٦٩.

كان لا يمتنع استعمالها لغة فى هذا الموضع، أعنى موضع الجناية. . . والله أعلم .

ثانيا : *نظرة الإسلام إلى الجريمة* :

إنه باستقراء النصوص من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة نلاحظ أن نظرة الإسلام إلى الجريمة - الجناية - نظرته إلى الظاهرة العادية فهويعتبر الجريمة جزءاً من المجتمع الإنسانى لا تنفك عنه . فكما أن النقص والتقصير لا ينفك عن الإنسان، وبالتالى عن المجتمع الإنسانى، فإن الجريمة كذلك، فهى ليست إلا صورة من صور النقص والتقصير الذى يعتبر صفة ملازمة لبنى آدم فى هذه الحياة يقول سبحانه وتعالى عن الإنسان : ﴿**قتل الإنسان ما أكفره**﴾ . (عبس : آية ١٧) ﴿**كلا إن الإنسان ليطغى**﴾ (العلق : ٦). ﴿**وكان الإنسان عجولا**﴾ . (الاسراء : ١١) . ﴿**وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا**﴾ . (الأحزاب : ٧٢) وفى الحديث عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه أنه قال حين حضرته الوفاة : قد كنت كتمت عنكم شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ يقول : «لولا أنكم تذنبون لخلق الله تبارك وتعالى قوماً يذنبون فيغفر لهم» . رواه أحمد[1]، وفى الحديث عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»[2] . أخرجه الترمذى . وقال هذا حديث غريب، والحديث وان اختلف فى صحته فمعناه صحيح .

إذن فالجريمة بحد ذاتها كظاهرة اجتماعية، تعتبر فى نظر الإسلام أمراً مسلماً به، ولابد منه لأن الكمال لله سبحانه، والعصمة لله وحده . ولكن كون الجريمة ظاهرة لابد منها، لا يعنى هذا أنه يسلم بوجودها وتترك فى المجتمع لتنمو وتنتشر وتتكاثر دون أن تستنكر وتحارب، بل إن الإسلام وضع لها الحل السليم والعلاج الشافى والحكم العادل، فالإسلام يحارب تكاثر الجريمة وتصاعدها، الا أنه من الأمور المسلم بها أنه لا يمكن بحال من الأحوال أن يخلو مجتمع من جريمة، ولو كان ذلك ممكناً، لكان المجتمع النبوى فى عهد رسول الله ﷺ وفى عهد الخلفاء الراشدين، لكان هذا المجتمع أولى المجتمعات وأقربها إلى الخلو من الجريمة واحراها بالقضاء عليها، إلا أنه من المعروف أن هذا المجتمع الطاهر النظيف قد وجدت فيه الجرائم على اختلاف أنواعها، فالإسلام لا ينظر إلى المجتمع الإنسانى نظرة مثالية خيالية، تهدف إلى انهاء الجريمة من المجتمع والقضاء عليها قضاء مبرماً، لأن من المبادىء الرئيسية أن الانسان مبتلى بالخير والشر - والله سبحانه قد سلط عليه

---

(١) المسند جـ/٥ ص٤١٤ وهو صحيح وقد أخرجه مسلم والترمذى أنظر سلسلة الأحاديث الصحيحة جـ/٤ ص٣٤٥ .

(٢) جامع الأصول جـ/٢ ص٥١٥، سنن الترمذى جـ/٧ ص١٩١ وراجع كشف الخفاء جـ/٢ ص١٧٦ واسنى المطالب للحوت البيروتى ص١٦٧ .

الشيطان، ابتلاءً وامتحاناً، فمادام الشيطان موجوداً، فالجريمة موجودة لأنه هو الذى يوسوس بها فى نفس الإنسان، وهو الذى يدعوه إلى ارتكابها ويحسنها له ﴿**يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً**﴾ (النساء: ١٢٠) ﴿**قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين**﴾ (الحجر: ٣٩-٤٠).

والآيات بهذا الشأن كثيرة جدا والمسألة واضحة. إلا أن الإسلام وهو يسلم بوجود الجريمة لا يتركها هكذا كما أسلفت بل يسعى إلى تقليلها، ووضعها فى حجم معين ويسعى إلى حصر آثارها والتخفيف من نتائجها، ومن ناحية أخرى فالإسلام بهذه النظرة لا يقطع خط الرجعة على المجرمين، بل يدعوهم ويطالبهم بالعودة إلى المجتمع، ويعيد لهم اعتبارهم، ولا يجعل من مقارفتهم للجريمة أياً كانت سبباً فى نبذهم وطردهم إلا بقدر محدود، عندما يصرون على ارتكاب الجريمة ويرتكسون فى الاجرام حيث لا تجدى فيهم الموعظة(١)، فإنه فى هذه الحالة ينتقل إلى العقوبة ومع العقوبة كذلك لا يعتبرهم منبوذين، بل يعتبرهم جزء من المجتمع، ويترك لهم الفرصة ليعيدوا الاعتبار إلى أنفسهم إذا كانوا أحياء، وإذا كانوا فى عداد الأموات - فى حالة العقوبة المتلفة - فهو يعتبرهم مسلمين، لهم ما للمسلمين من حقوق واحترام، فى الحديث أن خالد بن الوليد رضى الله عنه سب المرأة التى رجمت من الزنا، فقال رسول الله ﷺ: «مهلاً ياخالد، فوالذى نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له، ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت». رواه أحمد ومسلم وأبو داود.

وقال لعمر رضى الله عنه عندما قال: تصلى عليها وقد زنت. «لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله». رواه مسلم وغيره، وفى بعض روايات قصة ماعز بن مالك الاسلمى فيما رواه أبوهريرة رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ سمع رجلين من أصحابه يقول أحدهما لصاحبه: انظر إلى هذا الذى ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب، فسكت عنهما، وسار ساعة حتى مر بجيفة حمار شائلاً رجله. فقال: أين فلان وفلان؟ فقالا: نحن ذان يارسول الله. قال: كلا من جيفة هذا الحمار فقالا: يانبى الله من يأكل من هذا؟ قال: فما نلتما من عرض أخيكما أنفاً أشد من أكل منه، والذى نفسى بيده إنه الآن لفى أنهار الجنة ينغمس فيها». رواه أبو داود.

ولما جاءوا بالسارق بعد قطعه قال رسول الله ﷺ: «قل استغفر الله وأتوب إليه فقال:

---

(١) لا ينبغى أن يفهم من ذلك أن العقوبة لا توقع عليهم إلا فى حالة الاصرار بل أن العقوبة توقع على المجرم بمجرد ارتكابه للجريمة ولو لم يصر أو تتكرر منه، إلا فى التعازير فالأمر فيها يختلف.

استغفر الله وأتوب إليه ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم تب عليه» . رواه أحمد وأبو داود .

ولما أتي بشارب خمر وأمر الناس بضربه ، فقال بعض القوم أخزاك الله ، فقال ﷺ : «لا تقولوا هكذا لا تعينوا عليه الشيطان» . رواه أحمد والبخاري .

فهذه النصوص وأمثالها تؤكد ما أشير إليه من أن المسلم إذا ارتكب جرماً مهما كان لا يبرر نبذه وطرده ، ولكن تقام عليه العقوبة المقررة شرعاً ، وفق الأحكام الشرعية فى الإثبات والحكم والتنفيذ ، ويعاد له اعتباره بعد ذلك حياً كان أو ميتاً إذا تاب وصلحت توبته .

العقوبة ضرورة اجتماعيـــــة : (١)

تعتبر العقوبة من الأمور الضرورية للمجتمعات ، ولا يمكن أن يعيش مجتمع دون أن تفرض فيه عقوبة ، فكما أن الجريمة جزء من المجتمع ملازمة له ولا يتصور وجود مجتمع بدون جريمة ، فكذلك لا يتصور وجود مجتمع بدون عقوبة ، فالعقوبة تعتبر رد فعل للجريمة ، ولذلك نجد حتى فى المجتمعات الحيوانية ومجتمع الطيور والحشرات نجد العقوبة فيما بينها يوقعها بعضها على بعض .

والمجتمعات الإنسانية وان كانت العقوبة موجودة فيها ، إلا أن هناك تفاوتاً كبيراً بين مجتمع وآخر فى مدى تأثير هذه العقوبة ، ونتائجها فى المجتمع وذلك من حيث تناسب العقوبة مع الجريمة باعتبارها رد فعل ، فما لم يكن رد الفعل متناسباً مع الفعل بل مساوياً له ، فإن العقوبة تكون فى هذه الحالة فاشلة فى علاج الاجرام .

والذى يحصل أن كثيراً من المجتمعات فى العقوبة تفرق بين الافراط والتفريط فبعضها يتشدد فى العقوبة ويقسو حتى تكون العقوبة أكبر من الجريمة ، مما يدفع بالمجرم أو عائلته أو عصابته أن يسعوا فى استعادة الفرق ، وقد تكون العقوبة أقل من الجريمة بحيث تغرى المجرم بالعودة إلى الجريمة أو تدفع المعتدى عليه إلى الأخذ ببقية حقه بنفسه ، أما بالنسبة للمجتمعات المفرطة فى العقوبة المتساهلة فيها فأمثلتها كثيرة ونستطيع أن نقول إن أكثر الدول الغربية فى الوقت الحاضر ومن سار فى ركابها من الدول الإسلامية على هذه الشاكلة ، من تدليل المجرم وعدم معاملته بحزم .

---

(١) تعريف العقوبة :

يقول صاحب اللسان : العقاب والمعاقبة ان تجزى الرجل بما فعل سوءا ، والاسم العقوبة وعاقبه بذنبه معاقبة وعقابا : أخذه به . هذا عند أهل اللغة . (لسان العرب لابن منظور ١/ ٦١٩) .

وعرفها بعض الفقهاء بأنها الجزاء المقرر لمصلحة الجماعة على عصيان أمر الشارع . (أورده عبد القادر عودة فى التشريع الجنائى ١/ ٦٠٩) .

أمـا المجتمعـات المفـرطـة المتشـددة فمنهـا بعض المجتمعات الغربية إلى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى ، فقد عرفت بريطانيا فى القرن التاسع عشر التشهير بمرتكبى جنايات الغش فى مواد التمـوين ، فكـان الخبـاز الذى يبيع خبزاً يقل وزناً عن الوزن القانونى ، يربط إلى إطار خشبى ويتدلى عنقه من فتحة الإطار، وقد علق بعنقه رغيفٌ ، وربما عوقب بوضع أصابع اليدين فى آلة ضاغطه أو بالضغط على الساقين ، وعرفت الصين حتى تاريخ حديث ألواناً من العقوبات القاسية ، كوضع الواح من الخشب حول أعناق المتهمين ليتمكن الناس من معرفتهم عندما يمرون بهم وقد وقفوا خارج جدار السجن(1) . وفى الهند أشد وأبشع فقد نشرت جريدة الرياض فى أحد أعدادها أن وكالات الأنباء الهندية أعلنت أن إحدى النساء أرغمت خادمتهـا البـالغـة من العمـر خمسة عشر عاماً على غمس يديها فى زيت حار لإثبات برائتهـا من تهمـة سرقـة ساعـة وقعت فى الأسبـوع المـاضى فى مدينة راجكوت غربى الهند . وقالت الوكالة أن الضحية مانجولا ديفى نفت التهمة التى وجهتها لها سيدتها بسرقة ساعة ، وعندها قامت السيدة التى لم يعلن عن اسمها بارغام الخادمة على غمس يديها فى زيت كان يغلى على النـار لإثبـات أنهـا لا تكذب والجدير بالذكر أن مثل طرق التعذيب هذه مألوفة فى الريف الهندى ، ومن أمثلتها قيام الشرطة الهندية بفقأ عيون عشرين متهماًفى جرائم السرقة فى ولايـة بيهـار الهنـديـة الشـرقيـة مؤخرا(2) وكل هذه المجتمعات المفرطة منها والمفرطة فشل في محاربـة الجـريمـة ، ولا يرجع فشل هذه المجتمعات فى محاربة الجريمة لمجرد أن العقوبات لا تتنـاسب مع الجـرائم ، بل هنـاك أمـر مهم وهو أن هذه المجتمعات المفرطة والمفرطة لا تؤمن بشـرع الله ولا تحكم بحكم الله بل تتبـع الهـوى فى أحكـامها وأنظمتها وتتخبط فى اجتهادها ولـذلـك لا يمكن أن تصـل إلى نتيجـة مرضية وحالة مسعدة والله تعالى يقول : ﴿**ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن**﴾ . (المؤمنون : ٧١) .

أمـا الشـريعـة الإسـلامية فإنها فى عقوباتها متوسطة لا افراط ولا تفريط خاصة عندما تطبق بأمانة وعدالة ، فإنها تؤثر تأثيراً بالغاً فى التقليل من الاجرام والحد منه .

الحكمـة من العقـــــوبة :

إن الحكمـة من العقـوبـة بصفة عامة هى معالجة الأمراض الاجتماعية فإذا نظرنا إلى المجتمع كوحدة واحدة وجسم واحد ، ونظرنا إلى الأفراد وهم يمثلون خلايا الجسم وأعضائه

---

(١) الجريمة والعقاب فى المجتمع القبلى الافريقى : محمد عبد الفتاح ابراهيم (ص١٤٠-١٤١) .

(٢) جريدة الرياض العدد ٤٧٢٣ الصادر بتاريخ ١٤٠١/٣/١هـ.

وأطرافه، أمكننا أن نتصور كيف أن ايقاع العقوبات على بعض الأفراد يعتبر علاجاً للمجتمع، تماماً كما يعالج جسم الإنسان، إما بأدوية مرة، أو بالمضاد، أو بالشق والجراحة، وقد يصل الأمر إلى بتر العضو وإزالته حتى لا يكون سبباً فى تلف الجسم كله، وهذا ما يحصل لخلايا وأعضاء هذا الجسم الكبير المجتمع، فقد يعالج بعض أفراده بالجلد، أو الهجر أو الحبس أو القطع أو القتل إذا لزم الأمر .

وللعقوبة من ناحية أخرى أهداف ترجع إلى الجانى وأهداف ترجع إلى عموم الناس، فبالنسبة للجانى تهدف العقوبة إلى استصلاحه وزجره إذا لم تكن العقوبة متلفه (قتلا)، وبالنسبة لسائر الناس فإن العقوبة تهدف من ناحية إلى حماية مصالحهم الضرورية فى الأعراض والأموال والأبدان، والعقول، وغير ذلك من المصالح، ومن ناحية أخرى تهدف إلى ردع المجرمين وتخويفهم وتحذيرهم من الوقوع فيما وقع فيه المتهم فيحل بهم مثل ما حل به من العقوبة .

هل العقوبات الإسلامية قاسية :

تعرضت العقوبات التى شرعها الله سبحانه وتعالى، وشرعها رسوله ﷺ، لتأديب المجرمين وزجرهم وردعهم، من جلد وهجر أو قطع أو رجم أو قتل، لقد تعرضت للهجوم والسخرية والاستهزاء من قبل كثير من الكتاب، فتارة توصف بأنها وحشية وتارة توصف بأنها عقوبات قاسية قديمة ولا تليق بالعصر الحديث، ومن المؤسف أن نجد مثل هذا الانتقاد عند بعض الكتاب المسلمين، فهذا أحد الكتاب وهو يتحدث عن العقوبات وتطورها يقول : والتعويض المدنى يمتاز عن الدية بأنه مرن يزيد وينقص حسب مقدار الضرر الناتج عن الجريمة، كما أنه يمتاز عن القصاص فى أنه لا يقصد به مجرد الانتقام من الجانى وإنما يقصد به إزالة الضرر الواقع على المجنى عليه إذا أمكن، أو تعويضه عن هذا الضرر ليخفف أثره إذا لم تكن الإزالة ممكنة، كما أن التعويض المدنى يمتاز عن الدية والقصاص فى أنه حق مدنى منفصل عن العقوبة فيمكن للمجنى عليه أن يتنازل عنه، ولكن ذلك لا يعفى الجانى من العقوبة التى هى حق للمجتمع(١) وهذا كلام جاهل بالشريعة، وإلا فأى مرونة أكثر من المرونة فى تقادير الديات فى التشريع الإسلامى وتقديرها بحسب الضرر الذى يصيب المجنى عليه، ولم تبلغ شريعة من الشرائع ولا نظام من الأنظمة ما بلغته هذه الشريعة فى تقدير الديات بحسب الأصابة، حتى قدروا للظفر ديته، وللشعر ديته، ولكل جرح

---

(١) العقوبات الجنائية فى التشريعات العربية : د. توفيق الشاوى الصفحات ٢٤، ٧٣-٧٥.

بحسب غوره فى البدن ديته التى تناسبه ، فأى مرونة أكثر من هذه المرونة ، ومن ذا الذى يجهل أن للمجنى عليه أن يتنازل عن الدية ، بل هو مدعو إلى ذلك ومرغب فيه ، كما أن التنازل عن الدية لا يعنى الاعفاء من المسئولية مطلقاً ، بل لولى الأمر أن يعزر الجانى تعزيراً مناسباً ، كل هذه المعلومات يدركها أقل المسلمين اطلاعاً ، ولكنه الجهل أو التجاهل .

وفى موضع آخر يقول : ومنذ بدأت حركة إصلاح النظم الجنائية فى العصور الحديثة أصبحت العقوبات البدنية محل هجوم شديد من ناحية الفلاسفة والمصلحين ، باعتبار أنها تتضمن امتهاناً لكرامة الإنسانية الواجب رعايتها حتى بالنسبة للمجرمين . . . إلى أن قال : ولم تشذ التشريعات العربية عن تأثير المذاهب الإصلاحية بل نرى أن التطور التشريعى فى بلادنا يأخذ نفس الاتجاه . . . ثم يمضى فى كلامه . . . ورغم أن الاتجاه الحديث يرمى إلى الغاء هذه - العقوبات الجسمانية ، لما يترتب عليها من مهانة واذلال للآدمى بمعاملته معاملة الحيوان ، فإن بعض المؤلفين يرى ضرورة بقائها فى أحوال معينة ، ولكن الاتجاه الغالب فى العالم المتحضر يدعو إلى الغائها باعتبارها لا تتناسب مع المدنية الحاضرة(١) أما عقوبة القتل فهى بزعمهم أصبحت محل نقد كثير من الفلاسفة والباحثين ، لأنهم يرون أن القتل اجراء وحشي لا يجوز أن يرتكبه المجتمع ضد أحد الأفراد لأى سبب كان مادام يمكن الاستعاضة عنه بالسجن المؤبد(٢) .

وعن عقوبة الجلد : لقد تأثرت التشريعات المعاصرة بالنقد الموجه إلى عقوبة الجلد أو الضرب ذلك النقد الذى يستند إلى منافاتها لكرامة البشرية إذ أن استعمال الضرب فى تأديب الإنسان تشبيه له بالحيوان ونزول به إلى مرتبة الدواب مما يتعارض مع الاحترام الذى تقتضيه الصفة الإنسانية التى لا يمكن نزعها عن الشخص لمجرد أرتكابه جريمة(٣) . هذا نموذج من النماذج الكثيرة . ونحن نرد على هؤلاء المتهجمين بردين رد مجمل ورد مفصل - مع الاختصار الذى يقتضيه المقام .

فأما الرد المجمل :

فإن هؤلاء المتهجمين على العقوبات الإسلامية أحد رجلين ، أما كافر بالإسلام لا يؤمن بالله ولا برسوله ﷺ ، وأما مسلم ، فبالنسبة للكافر فإن القضية مع الكفار أكبر وأعظم من أن تقف عند فرع من فروع الدين فهم أصلا لا يؤمنون بالله سبحانه ومن يزعم منهم أنه

(١ ، ٢) العقوبات الجنائية فى التشريعات العربية . د. توفيق الشاوى الصفحات ٢٤ ، ٧٣-٧٥ .

(٣) العقوبات الجنائية فى التشريعات العربية . د. توفيق الشاوى ٢٤ ، ٧٣-٧٥ .

يؤمن بالله فهو لا يؤمن به الإيمان الصحيح الكامل، ولا ينطلق فى إيمانه من تصور صحيح. فهم لا يؤمنون بالرسول ولا يقرون برسالته ولا يؤمنون بالقرآن ولا بالبعث بعد الموت والحساب والجزاء. وهذه القضايا أخطر وأكبر من قضية العقوبات. فمادام هؤلاء لا يسلمون بأصول الدين ولا يسلمون لله سبحانه بالحكمة والعدالة والرحمة، بل إنهم ليتهجمون على الشريعة الإسلامية ويسخرون منها فمن باب أولى ألا يسلموا بما دون ذلك. وأما المسلم الذى يتهجم على العقوبات الإسلامية فإما أن يكون متظاهرا بالإسلام مجرد تظاهر وهو يبطن الكفر والالحاد والنفاق، فهذا شأنه شأن الفريق الأول، وإما أن يكون مسلما ضعيفا جاهلا، فهذا ينبغى أن يعرف أنه لا يصح إيمانه حتى يسلم بكل ما شرعه الله وشرعه رسوله ﷺ، فالله سبحانه وتعالى عليم حكيم خبير، متصف بكل صفات الكمال منزه عن كل صفات النقص فأحكامه وشرائعه تبدو فيها صفاته من الحكمة والرحمة وقد ندرك ذلك وقد لا ندركه ولكن مقتضى الإيمان أن نسلم لله سبحانه بكل ما شرعه لنا، وإن كان هذا لا يمنع أن نتحرى الحكمة ونبحث عن أسرار التشريع بأدب مع الله سبحانه ومع رسوله ﷺ، هذا هو الرد المجمل باختصار.

أما الرد المفصل فإنه :

يحتاج منا إلى وقفات وهى وقفات سريعة حيث أن المقام لا يتحمل الاطالة.

الوقفة الأولى :

مقارنة العقوبات الإسلامية بالعقوبات فى المجتمعات الأخرى لنرى مدى القسوة والشدة فيهما، ولقد تطرق الأستاذ عبد القادر عوده رحمه الله فى كتابه التشريع الجنائى الإسلامى إلى شىء من ذلك فقال : فإذا قدرنا أن الجرائم التعزيرية التى يمكن العقاب عليها بالقتل تصل إلى خمس جرائم، كانت كل الجرائم المعاقب عليها بالقتل فى الشريعة لا تزيد على عشر جرائم عند من يجيزون القتل تعزيرا، وكان عددها لا يزيد على خمس جرائم عند من لا يجيزون القتل تعزيرا، وتلك ميزة انفردت بها الشريعة الإسلامية من يوم نزولها، فهى لا تسرف فى عقوبة القتل ولا تفرضها دون مقتضى، ونستطيع أن نحيط بمدى تفوق الشريعة فى هذه الوجهة، إذا علمنا أن القوانين الوضعية كانت إلى آواخر القرن الثامن عشر تسرف فى عقوبة القتل إلى حد بعيد، بحيث كان القانون الانجليزى مثلا يعاقب على مائتى جريمة بالإعدام، والقانون الفرنسى يعاقب على مائة وخمس عشرة جريمة بالإعدام(١).

(١) التشريع الجنائى الإسلامى جـ ١ ص ٦٨٩.

ويقـول فى موضـع آخـر وهـو بصـدد الحـديث عن أسـاس المسئولية الجنائية ، «كانت القـوانـين الـوضعية فى العصور الوسطى وإلى ما قبل الثورة الفرنسية تجعل الإنسان والحيوان بل والجماد محلا للمسئولية الجنائية ، وكان الجماد يعاقب كالحيوان على ما نسب إليه من أفعال ضارة ، كما يعـاقب الإنسـان على ما ينسب إليـه من أفعـال محرمـة ، وكـانت العقوبة تصيب الأمـوات كما تصيب الأحيـاء ، ولم يكن المـوت من الأسبـاب التى تعفى الميت من المحـاكمة والعقاب . ولم يكن الإنسان مسئولاً جنائياً عن أفعاله فقط وإنما كان يسأل عن عمل غيره ولو لم يكن عالماً بعمل هذا الغير ، ولو لم يكن له سلطان على هذا الغير ، فكانت العقوبة تتعدى المجرم إلى أهله وأصدقائه وتصيبهم كما تصيبه ، وهو وحده الجانى وهم البرءاء من جنايته .

وكان الإنسان يعتبر مسئولا جنائيا عن عمله ، سواء كان رجلا أو طفلا مميزا أو غير مميز وسـواء كان مختـارا أو غير مختـار ، مدركـا أو فاقد الادراك وكانت الأفعال المحرمة لا تعين قبل تحريمها ، ولا يعلم بها الناس قبل مؤاخذتهم عليها ، وكانت العقوبات التى توقع غير معينة فى الغالب . . . الخ[1]

وكان من الممكن فى بعض الشرائع القديمة بل وفى العصور الوسطى فى أوربا نفسها أن توقع العقوبات الجنائية على حيوان ، أو على جثة الجانى بعد موته أو على من به مس من الجنون[2] .

ولقـد المحت فى الفقـرة السـابقـة إلى بعض العقـوبات القاسية التى تمارس فى بعض المجتمعات كما فى الهند والصين ـ فالعقوبات الإسلامية كما نلاحظ من هذا العرض المختصر المقارن أشد ما تكون قتلا أو قطعاً ومع ذلك فعدد الجرائم التى يعاقب عليها بالقتل لا يجاوز العشـر أو الخمس ، والجـرائم التى يعـاقب عليها بالقطع جريمتان فقط . وسوف نلاحظ فيما بعد الحكمة الدقيقة فى سن هذه العقوبات للجرائم الخاصة بها .

والقوانين الوضعية وإن كان أغلبها فى العصر الحاضر قد استبدل عقوبة الحبس المؤ بد بعقـوبـة الأعـدام وصـارت تركـز على عقـوبة السجن مؤقتا أو مؤ بدا فإن السجن المؤ بد أو الطـويـل الأجـل ليس إلا قتـلا بالتقسيـط للمجرم ، وقتلا لأسرته معه ، فلا هو بالميت الذى استراح من عناء السجن ورهبته وافضى إلى ما قدم من خير أو شر ، ولا هو بالمطلق سراحه ليعمل ويكدح ، وكم تعانى أسرة السجين من الشقاء والضياع ، وكم تفقد من العناية والرعاية .

---

(١) التشريع الجنائى جـ ١ ص ٣٨١ .

(٢) محاضرات عن المسئولية الجنائية فى التشريعات العربية . د. توفيق الشاوى ص٣٢ .

ولقد لخص «عودة» رحمه الله عيوب عقوبة الحبس بعدة نقاط مؤيدة بالأرقام الاحصائية فذكر منها[1] :

أولا : ارهاق خزانة الدولة وتعطيل الإنتاج فلاشك أن الدولة سوف تتحمل نفقات كبيرة لإعداد السجون وصيانتها والعناية بها، ومع ذلك فلا يزال السجناء يعانون فى كثير من الدول من قلة العناية والرعاية .

ثانيا : افساد المسجونين ويقول بهذا الصدد وكان من الممكن أن تتحمل الجماعة هذه الخسارة الكبيرة سنوياً ـ أى نفقات هذا السجن والسجناء لو كانت عقوبة الحبس تؤدى إلى إصلاح المسجونين، ولكنها فى الواقع تؤدى بالصالح إلى الفساد وتزيد الفاسد فساداً على فساده، فالسجن يجمع بين المجرم الذى ألف الاجرام وتمرس بأساليبه، وبين المجرم المتخصص فى نوع من الاجرام وبين المجرم العادى، كما يضم السجن أشخاصاً ليسوا بمجرمين حقيقين، وإنما جعلهم القانون مجرمين اعتباراً كالمحكوم عليهم فى حمل الأسلحة أو لعدم زراعة نسبة معينة من القمح والشعير، وكالمحكوم عليهم فى جرائم الخطأ والاهمال، إلى آخر ما ذكره رحمه الله . فحاصل ما ذكر أن السجن أصبح مدرسة اجرامية يلقن فيها المجرمون العتاة والمعتادون المبتدئين من المجرمين .

إلى أن قال : ولقد دلت المشاهدات على أن الرجل يدخل السجن لأمر لا يعتبره العرف جريمة كضبط قطعة سلاح معه، وكان المعروف عنه قبل دخوله السجن أنه يكره المجرمين ويأنف أن يكون منهم، فإذا خرج من السجن حبب إليه الاجرام واحترافه بل صار يتباهى به إلى آخر ما ذكر، وهو كلام جيد مدعم بالإحصائيات فيحسن الرجوع إليه .

ثالثا : قتل الشعور بالمسئولية : وعقوبة الحبس فوق أنها غير رادعة فإنها تؤدى إلى قتل الشعور بالمسئولية فى نفوس المجرمين، وتحبب إليهم التعطل، خاصة من يقضى منهم مدة طويلة فى السجن .

رابعا : انعدام قوة الردع : ان عقوبة الحبس قد فرضت على أساس أنها عقوبة رادعة ولكن الواقع قد أثبت أنها لا فائدة منها ولا أثر لها فى نفوس المجرمين، فالذين يعاقبون بالاشغال الشاقة وهى أقصى أنواع الحبس لا يكادون يخرجون من السجن حتى يعودوا لارتكاب الجرائم، ولو كانت العقوبة رادعة لما عادوا، لما عوقبوا عليه بهذه السرعة ثم ذكر إحصائيات تدعم ذلك .

---

(١) نقلتها من التشريع الجنائى جـ ١ من الصفحة ٧٣٢ـ٧٤٠ . ملخصة بشىء من التصرف.

ومن الطريف ما ذكره بعض الكتاب أنهم فى أمريكا قاموا بعرض أفلام على السجناء عن بعض المجرمين وكيف كانت نهايتهم المحزنة، وأن الجريمة لم تجرهم إلا إلى الخيبة والفشل، ثم استطلعوا آراء السجناء ليعرفوا مدى تأثرهم بهذه الأفلام وتأثيرها فى سلوكهم، وكان الباحثون يتوقعون أن يعتبر السجناء بمصير المجرمين ويتعظوا، ولكن الذى حصل هو أن السجناء كانوا يركزون على البحث فى نقاط الضعف فى الخطط التى سلكها المجرمون، ويركزون على الأخطاء التى صدرت عنهم، وكانت سببا فى القبض عليهم، فكانوا يقولون لو أن المجرم عمل كذا لنجا، ولو أنه لم يعمل كذا لما قبض عليه وهكذا، مما يدل على تأصل الروح الاجرامية فى هؤلاء، وأن السجن لم يزدهم إلا عتوا وتمردا، مصادقا لما ذكره عودة رحمه الله .

خامسا : ازدياد سلطان المجرمين بعد خروجهم من السجن وتمردهم على المجتمع .

سادسا : انخفاض المستوى الصحي والأخلاقى نظرا لأن السجون ثابتة المساحة . بينما السجناء يزداد عددهم يوما بعد يوم، وبالتالى ينخفض مستوى الخدمات التى تقدم لهم .

سابعا : ازدياد الجرائم : وقد وضعت عقوبة الحبس على اختلاف أنواعها لمحاربة الجريمة ولكن الإحصائيات التى لا تكذب تدل على أن الجرائم تزداد عاماً بعد عام زيادة تسترعى النظر وتبعث على التفكير الطويل ثم أورد الإحصائيات الرسمية التى تؤيد ذلك .

ثامنا : وأمر مهم أغفله «عودة» رحمه الله ألا وهو وضع عوائل المسجونين . من ينفق عليها، ومن يقوم بشأنها، ومن يتولى تصريف شئونها وتدبير أمورها، من يغمر صغارهم بالعطف والمودة، لاشك أن أسرة السجين سوف تتعرض للضياع، وربما لحقت بوليها في ركاب الاجرام نتيجة الانحراف الذى ينجرف بها إلى الاجرام، وبسبب الحاجة الماسة وانعدام الشفقة والعطف، وربما قيل إن المجرم وجوده كعدمه فى الأسرة . بل قد يكون وجوده وبالا عليها وسببا فى ضلالها وانحرافها إن كان وليا لها أو مجرد فرد من أفرادها ربما قيل ذلك .

ولكننا نقول **أولا** إن أكثر المسجونين والعدد الأكبر منهم ليسوا مجرمين بمعنى الكلمة كما ذكر «عودة» رحمه الله، وليست قضاياهم بالقضايا الاجرامية الخطيرة، بل قد لا تكون جريمة على الاطلاق، ولكنها مخالفة بسيطة وبالتالى فلا خوف على السجين لأنه ليس مجرما .

ثانيا : إن المجرم مهما كان متماديا فى الأجرام فإنه أولى برعاية أسرته وهو أشفق عليها

وأرحم بها من غيره ، كما أن الحيوانات المتوحشة تعطف على أبنائها وتربيهم رغم ما فيها من القسوة والوحشية ، فكذلك هذا الإنسان المجرم اللهم إلا فى الجرائم الخطيرة جداً وهى قليلة نادرة فقد تقتضى المصلحة عزل المجرم وابعاده عن أسرته لألا يفسدها وهذا نادر .

فمن هذه الوقفة يتبين لنا كيف أن العقوبات الإسلامية هى أفضل بكثير من العقوبات الوضعية التى تتمثل أكثر مما تتمثل بالسجن المؤقت أو المؤ بد والذى ذكرنا شيئا من مساؤه وعيوبه فالعقوبات الإسلامية أفضل فى حق المجرم وفى حق المجتمع .

الوقفة الثانيـــــة :

هؤلاء الذين يزعمون أن العقوبات الإسلامية قاسية هل درسوها حقيقة وعرفوا الجرائم الشنيعة التى فرضت من أجلها هذه العقوبات ، وهل أدركوا مدى تأثير هذه الجرائم على المجتمع وخطورتها عليه ، ولو أنهم لاحظوا ذلك لما نبسوا ببنت شفه . ومن ناحية أخرى هل درسوا أدلة الإثبات فى هذه الجرائم وكيف أن أدلة الإثبات متناسبة مع العقوبة ومع الجريمة فكما أن العقوبة مشددة فإن أدلة الإثبات كذلك مشددة فيها ، وهناك شروط متعددة ودقيقة ولابد من توافرها فى المجرم والجريمة كى توقع العقوبة على المتهم .

إن أغلب الظن أن هؤلاء المتهجمين على العقوبات الشرعية يسمعون بها مجرد سماع دون أن يدرسوها دراسة متأنية منصفة متجردة ، والا لو فعلوا ذلك لما وسعهم إلا الأكبار لهذه الشريعة فى أحكامها العادلة .

الوقفة الثالثـــة :

لماذا هؤلاء دائما فى صف المجرم ، ولا يرد فى تصورهم إلا المجرم وهو تحت العقوبة جلداً أو قطعاً أو قتلاً ، ولا يرد فى تصورهم مطلقاً ذلك الضحية المسكين ، الذى اعتدى عليه بغير حق ، فجرح أو فقئت عينه أو قتل ظلماً وعدواناً ، أليس المعتدى عليه أولى بالعطف والشفقة والرحمة من ذلك المجرم .

الوقفة الرابعـــة :

إن العقوبات الشرعية التى تبدوا شديدة لا تخرج عن حالتين :

الحالة الأولى : القصاص حيث يجرح من جرح قصاصاً ، وتفقأ عينه قصاصاً إذا فقأ عين غيره عمدا أو جرحه عمدا . ويقتل من قتل قصاصاً ، إذا قتل على وجه العمد ، ولا يمكن أن يعترض حكيم أو عاقل منصف على هذه النظرية ، نظرية القصاص حيث يعاقب

المجرم بنفس الطريقة التى أرتكبها مع الضحية ما أمكن ذلك، إلا فى الحالات التى لا يمكن تنفيذ القصاص فيها، أو أن القصاص يؤدى إلى مفسدة. فيما عدا ذلك فالقصاص هو الأصل ولا يعترض عليه أو ينتقده إلا مغفل أو مغرض. هذه حاله .

الحالة الثانية : أن تكون العقوبة التى تبدو شديدة حدا، والعقوبات الحديه التى قد تكون شديدة لا تزيد عن ثلاث : عقوبة الزانى المحصن رجما، والمحارب قاطع الطريق، بقطعه من خلاف، يده اليمنى، ورجله اليسرى والسارق بقطع يده اليمنى، وهذه الجرائم لا يمكن بحال من الأحوال أن تعالج إلا بهذه العقوبات، هذا أمر، والأمر الثانى أن من ينظر فى هذه الحدود الثلاثة وطرق إثباتها يلاحظ أنها لا تثبت إلا عن طريقين فقط.

الطريق الأولى : طريقة الاعتراف الصحيح، الخالى من الموانع، الصادر من عاقل بالغ، وفى حالة معتبرة شرعاً، دون اكراه أو ضرورة، وأن يثبت على إقراره حتى يتم تنفيذ العقوبه فيه، وله الحق أن يرجع عن إقراره ولو بعد الشروع فى معاقبته .

فأي شدة أو قسوة فى ذلك ؟ إذا كان إنسان عاقل بالغ مدرك يختار عقوبته بنفسه ويعلم أنه سوف يرجم أو تقطع يده أو يجلد إذا أصر على إقراره واستمر فيه، فما ذنب الحاكم فى ذلك، إذا كان هذا المتهم مؤمن ومعتقد بأنه سوف يقدم على ربه، ويعتبر تحمل هذه العقوبة من باب التوبة الصادقة مع العلم بأنه لا يجوز التحايل لأخذ الإقرار فى الحدود، بل القاعدة على العكس حيث يستحب تلقين المتهم ما يصرفه عن الاعتراف الصريح .

الطريقة الثانية : أن تثبت هذه الحدود عن طريق الشهادة، وانها لطريق صعبة، ومسلك وعر، فقد وضعت شروط دقيقة عديدة، قل أن تتوفر، خاصة بالنسبة للزنا، فهناك شروط فى الشاهد، وهناك شروط فى الشهادة وشروط فى الاحصان، وشروط فى الزنا، ومن النادر جدا أن تتوفر هذه الشروط فى قضية من القضايا(١) .

ولقد سألنا من نعرف من العلماء والباحثين عما إذا كانوا يعرفون واقعة زنا ثبتت فى عصر من العصور بالشهادة، فلم نجد عندهم جوابا، مما يدل على أن هذا الأمر نادر جدا، فهذه العقوبات والله أعلم هى للتهويل والتخويف، والتهييب للمجرمين، أكثر مما يراد بها ايقاعها بهم. فالمجرم لاشك أنه إذا علم بهذه العقوبة الشديدة، سوف يتصور أنها ربما أوقعت به، ولا يزال فى ذهنه شىء من الاحتمال مهما كان قليلا، وهذا التصور وهذا الاحتمال له دور كبير فى صرف المجرم عن جريمته، ولفت نظره لاعادة الحساب. والله سبحانه وتعالى أعلم .

---

(١) ذكر صاحب المغنى أنه حصل فى عهد الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله واقعة زنا ثبتت بالشهادة وذلك فى الجزء السابع ص١٦٣ فى كتاب الفرائض.

الوقفة الخامسة :

لننظر فى نتائج وآثار العقوبات الإسلامية فى المجتمع الإسلامى، وآثار العقوبات الوضعية فى المجتمعات الأخرى .

لقد كانت آثار هذه العقوبات التى يزعمون أنها قاسية، لقد كانت آثارها الاستقرار والأمن الذى لا يتصور، فلا تكاد تحدث جريمة، فاطمأن الناس على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم وانصرفوا إلى العمل والإنتاج والإصلاح حتى إن الرجل ليترك متاعه فى الطريق دون أن يتعرض له أحد بسوء، وينقل لنا الأستاذ أبو الحسن الندوى انطباعات الأستاذ محمد أسد، وهو من النمسا عندما زار دمشق فى أول القرن العشرين الميلادى، ويوم كانت دمشق تعيش تحت ظل الخلافة العثمانية، على ما كان فيها من تقصير واهمال يقول : (وقفت على ذلك الاستقرار الروحى فى حياة سكانها، إن أمنهم الباطنى كان يمكن أن يرى فى الطريقة التى كان أحدهم يتصرف بها نحو الآخر، ثم يسترسل فيقول : وفى الطريقة التى كان أصحاب الدكاكين يعاملون بعضهم بعضا، أولئك التجار فى الحوانيت الصغيرة الذين كانوا يبدون وكأنما ليس فيهم أيما قدر من الخوف أو الحسد، حتى إن صاحب دكان فيهم ليترك دكانه فى عهدة جاره ومزاحمه، كل ما دعته حاجته إلى التغيب بعض الوقت، وما أكثر ما رأيت زبوناً يقف أمام دكان غاب صاحبه عنه، يتساءل فيما بينه وبين نفسه، ما إذا كان ينتظر عودة البائع أو ينتقل إلى الدكان المجاور، فيتقدم التاجر المجاور دائما «التاجر المزاحم»، ويسأل الزبون عن حاجته ويبيعه ما يطلب من البضاعة، لا بضاعته هو بل بضاعة جاره الغائب، ويترك له الثمن على مقعده، أين فى أوربا يستطيع المرء أن يشاهد مثل هذه الصفقه . هذه صورة[1] .

أما الصورة الثانية : فينقلها لنا الأستاذ عبد القادر عودة رحمه الله، وهو يشير إلى ازدياد الجرائم فى المجتمع المصرى، بسبب عدم تطبيق التشريعات الإسلامية، مقارنا بين المجتمع المصرى والمجتمع السعودى فى ظل الإسلام، فيقول إن الحالة الإقتصادية مهما قيل فيها لا تكون سببا فى ازدياد الجرائم، مادامت العقوبة رادعة، وليس أدل على صحة هذا القول من الحالة فى الحجاز، فلاشك أن الحالة الإقتصادية والاجتماعية فى مصر أفضل منها فى الحجاز، ومع ذلك فقد قلت الجرائم فى الحجاز وازدادت فى مصر وانتشر الأمن هناك واختل هنا . ولقد كان الحجاز فى يوم ما مضرب الأمثال فى اختلال الامن والنظام، والجرأة على

---

(١) من نهر كابل إلى نهر اليرموك أبو الحسن الندوى ص١٥٥ .

ارتكاب الجرائم وترويع الآمنين، والحجاج المسافرين، وقطع الطريق عليهم لنهب مالهم ومتاعهم، ولعل الحالة الإقتصادية والاجتماعية فى الحجاز الآن ليست خيرا منها يوم كان الفساد مستشرياً فى الحجاز، والفرق بين الحجاز قديما وحديثا، هو نفس الفرق بين مصر والحجاز اليوم، هو وجود العقوبة الرادعة فى الحجاز الآن، وانعدامها قديما، وهو كذلك انعدام هذه العقوبة فى مصر اليوم، فهذه العقوبة الرادعة فى ظل الشريعة الإسلامية هى التى وطدت الأمن فى الحجاز، وقضت على السلب والنهب وقطع الطريق، وجعلت الأمن فيه مضرب الأمثال، فلا يسقط من مسافر شىء إلا وجده فى دار الشرطة، ولا يضيع لأحد شىء إلا رد إليه حيث كان، ولو لم يبلغ بضياعه مادام مع المال ما يدل على اسم صاحبه(١) وهذا ما نعيشه الآن فى هذه البلاد والحمد لله حيث أن الإنسان دائما - إلا فى حالات نادرة - مطمئن على متاعه وعلى أمواله يتركها غالبا دون ما حراسة تذكر ودون اهتمام بها فيوفر المجتمع بذلك طاقات كبيرة وجهودا كثيرة بينما الدول الأخرى كما هو معروف، حيث نقرأ يوميا عن الجرائم البشعة التى لا تتصور، حيث تداهم البيوت والمؤسسات المالية ويهجم على المصارف ويختطف التجار والسياسيون، أو أبناؤهم ولا يطلقون إلا مقابل فدية مالية كبيرة، وتختطف الطائرات أما لأغراض سياسية أو لأغراض اجرامية بحته، وأصبح الناس فى كثير من الدول التى تزعم أنها متطورة ومتقدمة وفى قمة الحضارة، أصبح الناس يحذرون من التجول بعد غروب الشمس، وهذا الأستاذ محمد قطب يذكر فى إحدى محاضراته أنه فى سان فرنسسكو حدثه أكثر من شخص وأنه قرأ فى الصحف كذلك، أن الإنسان لا يملك أن يخرج وحده فى هذه المدينة بعد غروب الشمس، ويقول: كنت فى زيارة قصيرة لمدينة صغيرة فى فلادليفيا مدينة أشبه بالمدن الريفية وهى بالنسبة لمدننا كبيرة ولكنها بالنسبة للمدن الأمريكية صغيرة جدا، وجاء الغروب فحدثتنا أنفسنا أن نخرج قليلا للتنزه، فقال لنا المقيمون هناك، احذروا، لا تستطيعون أن تخرجوا، قلنا لماذا، قالوا بسبب العصابات، حيث إنها تبدأ عملها بعد غروب الشمس، قتلا وخطفا وسرقة(٢).

وهذه دولة من الدول الحديثة، المتقدمة صناعيا، وهى المانيا، تقول عنها إحدى الجرائد اليومية، أنه فى تقرير نشر عنها أظهر أن لصوص المانيا الغربية يحافظون على سمعة مواطنيهم، بوصفهم شعباً عرف بتفانيه فى العمل، فقد أوضح التقرير أن هؤلاء اللصوص يرتكبون حادث سرقة كل دقيقة فى شتى أنحاء البلاد، وتقدر لجنة غير حكومية قيمة

(١) التشريع الجنائى جـ ١ ص ٧٤٠.
(٢) من محاضرة ألقاها الأستاذ محمد قطب فى كلية الشريعة بجامعة قطر فى أول عام ١٤٠١هـ.

الممتلكات التى تتعرض للفقد أو الاتلاف نتيجة للسرقات بثلاثة آلاف مليون مارك فى العام الواحد، وقد طالبت اللجنة المواطنين الذين يقضون عطلاتهم خارج مساكنهم بتأمين منازلهم بواسطة الأقفال والسلاسل، أو أجهزة الانذار(١).

ولم يزل الاجرام يفتك بالدول الغربية وغيرها حتى أصبح المجرمون لهم مراكز خطيرة، وكلمة نافذة، بل أصبح لهم مؤسسات رسمية أوشبه رسمية، تحميهم وتدافع عنهم، حتى صاروا كما يقال حكومات داخل الحكومات. ويقول الأستاذ عودة رحمه الله فى هذا الصدد، وهو يتحدث عن سلطان المجرمين، ومن المجرمين من يغادر السجن ليعيش عالة على الجماعة، يستغل جريمته السابقة لاخافة الناس وارهابهم، وابتزاز أموالهم، ويعيش على هذا السلطان الموهوم وهذا المال المحرم، دون أن يفكر فى حياة العمل الشريف والكسب الحلال، وقد أصبح سلطان هؤلاء المجرمين على السكان الآمنين، يزاحم سلطان الحكومات، بل أصبح المجرمون فى الواقع أصحاب الكلمة النافذة، والأمر المطاع، ومن الوقائع التى اعرفها ويعرفها غير ى أن رجال الإدارة يستعينون بالمجرمين أيام الانتخابات العامة، ليوجهوا الناخبين المتمسكين بحزبيتهم، وجهات معينة بعد أن يعجزوا هم عن هذا التوجيه.

وقد أدى هذا المركز الخطير، إلى زيادة المجرمين الشباب الذين يتطلعون بدافع من طموحهم إلى نوال كل مركز ممتاز كما أدى إلى قلب الموازين والأوضاع، فبعد أن كانت الجريمة عارا وذلا فى القديم، أصبحت اليوم مدعاة للتباهى والتفاخر، وبعد أن كان المجرم يطرد ذليلا مهانا، أصبح اليوم عزيز الجانب مسموع الكلمة نافذ السلطان(٢).

فهذه هى بعض آثار العقوبات الوضعية فى المجتمعات الغربية ليست إلا خوفا واضطرابا ورعبا وزيادة مضطردة فى عدد الجرائم وأساليبها وأنواعها.

وتلك بعض آثار العقوبات الشرعية ونتائجها فى المجتمع الإسلامى قديما وحديثا، أمن واستقرار واطمئنان وانخفاض فى نسبة الجرائم، فأي الفريقين أحق بالأمن، وأى الفريقين أحق بالفخر والاعتزاز، فليصفوا العقوبات الشرعية بما شاؤا من الأقاويل، وليتهجموا مادامت تلك آثارها وهذه نتائجها.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وآله وأصحابه أجمعين.

(١) جريدة الرياض العدد ١٣٣٣ الصادر بتاريخ ١٣٩٦/٥/٦هـ.
(٢) التشريع الجنائى ٧٣٧/١.

الإمداد بأحكام الحداد

- ٢ -

للدكتور فيحان شالى المطيرى
أستاذ مساعد بكلية الشريعة

الفصل الخامس فى زمن الإحداد

عرفت آنفاً أقسام الإحداد من حيث الجملة وأنها قسمان جائز وغير جائز وأن كل منهما ينقسم إلى قسمين إذا تقرر هذا فأعلم أن كلامنا هنا خاصُ بزمن الإحداد والجائز فى شريعتنا إذ أننا مطالبون بما فيها من أحكام فنقول : الحداد الجائز على ضربين. على ما بينا قريباً، حداد على القريب الميت غير الزوج وحداد على الزوج وطبقا لهذا التقسيم يكون الكلام فى المدة الزمنية اللازمة للإحداد .

وقد رأيت أن أجعل هذا الفصل مبنيا على مبحثين. المبحث الأول زمن الإحداد على القريب الميت غير الزوج، المبحث الثانى زمن الحداد على الزوج الميت .

المبحث الأول : زمن الحداد على القريب الميت :

إعلم أن الحداد على القريب الميت هو ابتعاد المرأة عن كل مظاهر الزينة التى يدعو فعلها إلى الفرح والسرور ويتنافى مع مظاهر الحزن من المرأة على ذلك الميت . ومن المعلوم أن الشريعة الإسلامية قد رسمت الطريق الذى ينبغى أن تسلكه المرأة عند فقد قريبها وبينت المدة اللازمة للإحداد والتى لا ينبغى تجاوزها وقد رعت الشريعة فى ذلك حق المرأة وحق القريب على حد قوله «لا ضرر ولا ضرار» ومقدار هذه المدة ثلاثة أيام بلياليها يوضحه قوله ﷺ «لا يحل لامرأة أن تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً» .

فقوله : «فوق ثلاث» يفيد جواز الثلاث فما دونها وعدم جواز الزيادة عليها إلا فيما دل عليه الاستثناء. قال ابن حجر فى الفتح بعد ما ذكر الحديث : (واستدل به على جواز الإحداد على غير الزوج من قريب ونحوه ثلاث ليال فما دونها وتحريمه فيما زاد عليه وكأن هذا

القـدر أبيـح لأجل حظ النفس ومراعاتها وغلبة الطباع البشرية ولهذا تناولت أم حبيبة وزينب بنت جحش رضى الله عنهـما الطيب لتخـرجـا عن عهـدة الإحداد وصرحت كل منهما بأنها لم تتطيب لحاجة إشارة إلى أن آثار الحزن باقية عندهما، لكنهما لا يسعهما إلا إمتثال الأمر(١).

وهـذا الـذى ذكـره ابن حجـر رحمـه الله وما دلت عليه الأحاديث الصحيحة الصريحة الثابتة عن رسول الله ﷺ والتى تفيد بمنطوقها ومفهومها أن الحد الأعلى فى حق المرأة للحداد على قريبها الميت هو ثلاثة أيام بلياليها .

وقـد ذكـر أبـو داود فى المـراسيل باسناده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده حديثا يعارض ظاهره هذه الأحاديث ونصه : (أن النبى ﷺ رخص للمرأة أن تحد على أبيها سبعة أيام وعلى من سواه ثلاثة أيام)(٢). والجواب عن الاستدلال بهذا الحديث من وجهين :

(أ) إنـه ضعيف لا تقـوم به حجـة لكونه مرسل قال فإن عمرو بن شعيب لم يكن من الصحـابـة بل ولا من التـابعين، والمرسل فى ضعف الاحتجاج به إنما يكون من التابعين فإذا كان الأمر كذلك فلا تعارض به الأحاديث الصحيحة .

(ب) لو سلمنـا بصحتـه وسـلامـة الاستـدلال به لم نسلم بمعـارضتـه للأحـاديث الصحيحة بل نقول هو مخصص للأب من عمومها فتحد ابنته عليه سبعة أيام بلياليها على ما هو مبين فى الحديث ويبقى ما عداه من الأقارب على العموم الوارد فى الأحاديث والذى يتعين اتباعه والمصير إليه هو ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة التى تم ثبتها قريباً أكثر من مرة .

المبحث الثانى : زمن الإحداد على الزوج الميت

زمن الإحـداد على الـزوج الميت هو زمن العـدة ولهـذا نستعرض بشىء من التفصيل لعدة المتوفى عنها زوجها لما بين الأمرين من العلاقة ليتضح المراد وبالتالى نخلص لمعرفة زمن الإحداد .

والمعتدة من الوفاة لا يخلو إما أن تكون حائلا أو حاملا .

والحائل لا يخلو إما أن تكون ممن تحيض أو يئست من الحيض أو صغيرة لم يأتها الحيض بعد وطبقا لهذا التقسيم فقد ضمنت هذا المبحث المطالب التالية :

---

(١) فتح البارى جـ ٩ ص ٤٨٧ .

(٢) نيل الأوطار جـ ٦ ص ٣٣١ .

المطلب الأول: عدة غير ذات الحمـــل :

غير ذات الحمـل وهى الحـائـل التى عرفت براءة رحمهـا أما بالحيض أولكونها آئسة أو صغيرة لم تحض وقد أجمع أهل العلم من عصر الصحابة رضى الله عنهم إلى يومنا هذا على أن عدة المـرأة المتـوفى عنهـا زوجها غير ذات الحمل أربعة أشهر وعشرا سواء كانت صغيرة أو كبـيرة. مدخـولا بها أوغير مدخـول بها وهـذا هو الـزمن اللازم للإحداد فإذا انقضت عدتها بأتمـام هذه المـدة انقضى الإحـداد بانقضـائهـا وإنـما أجمـع أهـل العلم على ذلك لما جاء فى الكتـاب والسنـة. فمن الكتـاب قولـه تعـالى : ﴿**والـذين يتـوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعـة أشهـر وعشـرا**﴾. ومن السنة قوله ﷺ : «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليــوم الآخــر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعــة أشهــر وعشـرا». متفق عليـه(١). فهـذا الكتـاب والسنـة قد اتفقـا على بيان الظرف الزمنى الذى يجب أن تتر بصه المعتـدة من الـوفـاة ولا تحل قبله للأزواج وهـو الظرف الزمنى للإحداد إذ أن العدة والإحداد شقيقـان فى هذا البـاب فإن قيـل هذا النص عام شامـل لكـل معتدة من الوفاة فتكون عدتها أربعـة أشهـر وعشـرا من غير تخصيص قيـل ليس الأمـر كذلـك لأننا نقول إن هذا النص فى المعتـدات من الـوفـاة غير الحوامل والشرع شاهد بذلك فإن الله تعالى أخرج من عموم هذا النص الحامل المعتدة من الوفاة فإن عدتها تنقضى بوضع حملها وبالتالى يزول عنها حكم الإحداد.

تنبيهـــــــان :

التنبيـه الأول : لو قيـل هذا الحكم خاص بالمـدخـول بها بمعنى أن المدخول بها هى التى تتر بص أربعـة أشهـر وعشـرا بدليـل أن الله تعـالى خصهـا من عمـوم قولـه تعـالى : ﴿**والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء**﴾ قلنا الجواب عن ذلك من ثلاثة أوجه :

(أ) أن الله تعـالى خص المطلقـة قبل الدخول من عموم آية البقرة فلم يوجب عليها عدة وذلـك بآيـة الأحـزاب وهى قولـه تعـالى : ﴿**يـاأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها**﴾(٢).

وليس الأمـر كذلـك فى المتـوفى عنهـا قبل الدخول فهى داخلة فى العموم وليس ثمة ما يخرجها ولا يجوز اخراجها إلا بدليل ولا دليل.

(ب) قد ورد في السنة ما يفيد صراحة وجوب العدة على غير المدخول بها المتوفى عنها

---

(١) المغنى جـ٧ ص ٤٧٠.

(٢) سورة الأحـزاب «٤٩».

زوجها وذلك أن عبد الله بن مسعود (أتِىَ بامرأة تزوجها رجل ثم مات عنها ولم يفرض لها صداقا) ولم يكن دخل بها قال فاختلفوا إليه فقال : أرىَ لها مثل مهر نسائها ولها الميراث وعليها العدة فشهد معقل بن سنان الاشجعى أن النبى ﷺ قضى فى بَروَع ابنة واشق بمثل ما قضى). رواه الأربعة وصححه الترمذى[1].

فهذا الحديث نص على إيجاب العدة على غير المدخول بها وبهذا لا يكون للاعتراض حظّ من النظر.

(جـ) لو سلمنا بعدم النص وأن المعتدة من الوفاة غير المدخول بها مخصصة من عموم آية البقرة وذلك بالقياس على المطلقة قبل المدخول لم نسلم بهذا التخصيص وذلك لأمرين :

أحدهما : أن النكاح عقد عمر فإذا مات أحد الزوجين انتهى والشىء إذا انتهى تقرر أحكامه كتقرر أحكام الصيام بدخول الليل وأحكام الاجارة بانقضائها والعدة من أحكامه.

ثانيهما : أن المطلقة إذا أتت بولد يمكن للزوج تكذيبها ونفيه باللعان وهذا ممتنع فى حق الميت فلا يؤمن أن تأتى بولد فيلحق الميت نسبه وما له من ينفيه فاحتطنا بإيجاب العدة عليها لحفظها عن التصرف والميت فى غير منزلها حفظا لها[2].

التنبيه الثانى : فإن قيل قد ورد فى الأثر عند أحمد وابن حبان والطحاوى من حديث اسماء بنت عميس قالت : (دخل على رسول الله ﷺ اليوم الثالث من قتل جعفر بن أبى طالب. فقال لا تحدى بعد يومك) هذا لفظ أحمد. وفى رواية له ولابن حبان والطحاوى لما أصيب جعفر أتانا النبى ﷺ تسلّى ثلاثا ثم اصنعي ما شئت)[3].

قال العراقى فى شرح جامع الترمذى : (ظاهره أنه لا يجب الإحداد على المتوفى عنها بعد اليوم الثالث لأن اسماء بنت عميس كانت زوج جعفر بن أبى طالب بالاتفاق وهى والدة أولاده عبد الله ومحمد وعوف وغيرهم قال بل ظاهر النهى أن الإحداد لا يجوز[4].

قيل الجواب عن هذا الاعتراض من وجوه :

الوجه الأول : ما ذكره العراقى نفسه بأن هذا الحديث شاذ ومخالف للأحاديث الصحيحة وقد اجمعوا على خلافه. قال ويحتمل أن يقال إن جعفر قتل شهيدا والشهداء

---

(١) سنن أبى داود جـ٢ ص٥٨٨. جامع الترمذى جـ٥ ص١١٤. سنن النسائى جـ٦ ص١٢١. سنن ابن ماجه جـ١ ص١٨٩.

(٢) المغنى جـ ٧ ص ٤٧٠ وما بعدها.

(٣) فتح البارى جـ ٩ ص ٤٨٧.

(٤) فتح البارى جـ ٩ ص ٤٨٧.

أحياء عند ربهم . قال وهذا ضعيف لأنه لم يرد فى غير جعفر من الشهداء ممن قطع بأنهم شهداء كما قطع بجعفر كحمزه بن عبد المطلب وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر[1] .

فأنت ترى أنه حكم على الحديث بالشذوذ وحديث الشاذ ضعيف لا تقوم به حجة .

الوجه الثانى : ما ذكره الطحاوى من أن هذا الحديث منسوخ وأن الإحداد كان على المعتدة كذلك فى وقت ثم أمرت بالإحداد أربعة أشهر وعشرا[2] .

وان كانت هذه دعوى بلا دليل إذ أن النسخ لا يكون إلا بمعرفة التاريخ وهو تقدم المنسوخ وتأخر الناسخ إلا أن احتمال النسخ وارد هنا لأن حديث اسماء هذا متقدم فى الغالب على أحاديث الإحداد الأخرى . فإن حديث اسماء هذا فى غزوة موته وهى فى السنة الثامنة من الهجرة والنبى الكريم توفى فى السنة الحادية عشرة لكن دعوى النسخ لا تثبت بالاحتمال .

الوجه الثالث : هو أن المراد بالإحداد والمقيد بالثلاث قدرا زائدا على الإحداد المعروف فعلته اسماء مبالغة فى حزنها على جعفر فنهاها عن ذلك بعد الثلاث .

الوجه الرابع : هو أن اسماء كانت حاملا فوضعت بعد ثلاث فانقضت العدة فنهاها بعدها عن الإحداد ولا يمنع ذلك قوله فى الرواية الأخرى .

الوجه الخامس : يحتمل أنه ﷺ علم أن عدتها تنقضى عند الثلاث فأمرها بهذا الأمر .

الوجه السادس : يحتمل أن جعفر قد أبانها بالطلاق قبل استشهاده فلم يكن عليها إحداد .

الوجه السابع : ما ذكره البيهقى من أن هذا الحديث منقطع وقال لم يثبت سماع عبد الله بن شداد من اسماء بنت عميس[3] .

وَرُدَّ هذا بأنه تعليل مدفوع فقد صححه أحمد ويجاب منه بأن أحمد قال أنه (أى حديث اسماء) مخالف للأحاديث الصحيحة فى الإحداد قال ابن حجر فى الفتح (وهو مصير منه إلى أنه يعله بالشذوذ وذكر الأشرم أن أحمد سُئل عن حديث حنظلة عن سالم عن ابن عمر رفعه لا إحداد فوق ثلاث فقال هذا منكرُ والمعروف عن ابن عمر من رأيه[4] .

---

(١) فتح البارى جـ ٩ ص ٤٨٤ .

(٢) شرح معانى الآثار للطحاوى جـ ٣ ص ٧٥ .

(٣، ٤) تعليق بياض السنن الكبرى للبيهقى جـ ٧ ص ٤٣٨ .

قال ابن حجر تعقيبا على كلام أحمد وهذا يحتمل أن يكون لغير المرأة المعتدة فلا نكارة فيه بخلاف حديث اسماء والله أعلم(١).

هذا وبعد عرض ما تقدم تعلم أن الأوجه التى ذكرناها كلها محتملة اللهم إلا ما ذكره العراقى من اعلال الحديث بالشذوذ والذى ينبغى أن يعلم هو أن هذا الحديث على فرض صحته معارض لما هو أصح منه وأكثر شهرة ومن المعلوم أن الحديث الصحيح إذا تعارض مع ما هو أصح منه وتعذر الجمع قُدم الأصح فإذا كان الحديث فى الصحيحين ويعارضه حديث آخر فى أحدهما قُدم ما كان فى الصحيحين والأمر كذلك فيما كان فى صحيح البخارى ويعارضه حديث آخر فى صحيح مسلم فإن ما كان فى صحيح البخارى يقدم على ما كان فى صحيح مسلم عند التعارض وعدم إمكان الجمع وما كان فيهما أو فى أحدهما يقدم على غيره عند التعارض وعدم إمكان الجمع وهذا الحديث الذى نحن بصدد الكلام عنه على فرض صحته لم يكن فى الصحيحين ولا فى احدهما بخلاف الأحاديث التى تعارضه فإنها صحيحة لا مطعن لأحد فى صحتها لكونها فى الصحيحين .

هذا وتجدر الإشارة هنا إلى أن المدة المعتبرة للعدة والإحداد فى حق الحائل من النساء هى أربعة أشهر وعشراً ولا يشترط وجود الحيض فى هذه المدة وإنما تنقضى عدة المعتدة المشار إليها وإتمام أربعة أشهر وعشراً لأن الأدلة التى تفيد هذا المعنى من الكتاب والسنة لم تجعل انقضاء عدتها منوطا بشرط حيض ولا غيره وإنما الزمن الوحيد لانقضاء هذه المدة هو أربعة أشهر وعشراً ولأنه لو اعتبر الحيض فى حقها لاعتبر ثلاثة قروء كالمطلقة(٢).

والحاصل هو أن زمن الإحداد فى حق المتوفى عنها زوجها غير الحبلى هو زمن العدة وزمن العدة فى حقها أربعة أشهر وعشراً وإنما هو لكون الجنين يجمع فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم أربعين يوماً علقة ثم أربعين يوما مضغةً فتلك مائة وعشرون يوماً وهى أربعة أشهر. وهذا منصوص عليه فى حديث ابن مسعود الصحيح ولفظه (حدثنا رسول الله وهو الصادق المصدوق إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى وسعيد . . . الحديث)(٣).

---

(١) أنظر الفتح جـ ٩ ص ٤٨٧ .

(٢) المغنى جـ ٧ ص ٤٧١ .

(٣) صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٣٦ .

فالحديث دليل على أن النفخ يكون بعد المدة المذكورة فى الحديث وهى العشرة التى لم نذكرها هنا فأمرت المعتدة إلى تربص هذه المدة ليستبين الحبل إن كان ثمة حبلُ هذا ما يمكن أن يقال فى هذا المقام وقبل أن نترك هذا المطلب يحسن أن نشير إلى مسألتين لهما علاقة بما نحن فيه .

المسألة الأولى : متى يبدأ الإحداد ؟، المسألة الثانية هل المعتبر لخروج المعتدة المتوفى عنها زوجها من عدتها الليالى أو الأيام فى قوله عشراً ؟ .

فنقول المسألة الأولى متى يبدأ الإحداد اختلف الفقهاء فى تحديد الزمن الذى تبدأ فيه المعتدة عدتها وبالتالى إحدادها أهو من وقت موت الزوج أو من وقت علمها ؟ على قولين :

القول الأول للجمهور : وهو أن عدة المتوفى عنها تبدأ من حين موت الزوج وهو زمن وجوب الإحداد عليها سواء علمت بذلك حين الوفاة أو لم تعلم إلا بعد ذلك مالم تنقضى أربعة أشهر وعشراً . فإذا انقضت قبل علمها فلا عدة عليها ولا إحداد وذلك لأن المقصود من العدة هو عدم التزوج وقد وجدوا أيضاً العالمة بالوفاة لو مرت عليها أربعة أشهر ولم تحد خرجت من العدة أتفاقا فكذا هنا[1] . فالعدة هى مضى المدة وذلك يتحقق بدون علمها فهى وعدة الطلاق سواء . غاية ما فى الأمر أنها لم تفعل الإحداد ولكن ذلك لا يمنع من انقضاء العدة كما لو كانت عالمة بموت زوجها .

القول الثانى : عن على رضى الله عنه وهو أن العدة تبدأ من وقت علمها بالوفاة فعلى هذا لا تجب عليها العدة وكذلك الإحداد إلا إذا علمت بوفاة زوجها حتى ولو مرت على وفاته أربعة أشهر وعشراً قبل علمها لم تنقضى عدتها لأن عليها الإحداد ولا يمكنها إقامته إلا بالعلم بموته[2] . ولأن هذه العدة تجب بطريق العبادة فلابد من علمها بالسبب لتكون مؤدية للعبادة .

ورد هذا بان العبادة تبع لا مقصود بدليل أن العدة تجب على الكتابية إذا كانت تحت مسلم وهى لا تخاطب بالعبادات .

وعندى أن العدة تجب عليها من وقت الوفاة لما بينا ولأن المقصود براءة الرحم وقد وجدت فلا مجال لايجاب العدة عليها بعد مرور المدة المنصوص عليها .

المسألة الثانية : هل المعتبر لخروج المعتدة المتوفى عنها زوجها من عدتها الليالى أو

---

(١) مواهب الجليل جـ٤ ص ١١٥٣، المهذب جـ ٢ ص١٨٦، المغنى جـ ٧ ص ٤٧١ .

(٢) فتح القدير جـ ٤ ص ٣١٣ .

الأيام فى قوله عشراً ؟ المدة المنصوص عليها التى تخرج بها المعتدة من عدتها والحال أنها متوفى عنها هى أربعة أشهر وعشراً وهذا لا خلاف فيه لأنه منصوص عليه وإنما اختلف الفقهاء فى أمر واحد وهو الاحتمال الوارد فى قوله عشراً فإنه يحتمل أن يكون المراد بذلك الأيام وأن يكون المراد بذلك الليالى ولهذا اختلف الفقهاء فى ذلك على قولين :

القول الأول للجمهور : وهو أن المعتبر فى ذلك الأيام مع الليالى لأن الاستعمال فى مثل هذا من ذكر عدة الليالى يدخل ما بإزائها من الأيام على ما عرف بالتاريخ حيث يكتب بالليالى فيقال لسبع خلون مثلا ويراد كون عدة الأيام كذلك[1] .

القول الثانى : للأوزاعى وعبد الله بن عمرو بن العاص وهو أن المعتبر فى ذلك الليالى دون الأيام فلو تزوجت فى يوم العاشر جاز وذلك أخذاً من التذكير[2] . فإن جمع المؤنث يذكر وجمع المذكر يؤنث فيقال عشرة أيام وعشر ليال والعدد المختلف هنا هو قوله عشراً فتذكيره دليل على أن المراد بذلك الليالى دون الأيام وهذا واضح من الكتاب والسنة. فمن الكتاب قوله تعالى : ﴿**والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا**﴾ .[3] ومن السنة قوله ﷺ : «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاثة أيام إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً» . كون المعدود الليالى وإلا لأنثه .

والراجح عندى هو القول الأول صحيح أن العدد يذكر مع المؤنث ويؤنث مع المذكر إلا أن العرب تغلب اسم التأنيث فى العدد خاصة على المذكر فتطلق لفظ الليالى وتريد الليالى بأيامها كما قال الله تعالى لزكريا ﴿**آيتك ألاّ تكلم الناس ثلاث ليال سويا**﴾[4] يريد بأيامها بدليل أنه قال فى موضع آخر ﴿**آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً**﴾ يريد بلياليها ولهذا لو قرر أحد اعتكاف العشر الآخير من رمضان لزمه الليالى والأيام معا . ويقول القائل سرنا عشراً يريد الليالى بأيامها فلم يجز نقلها عن العدد إلى الإباحة بالشك[5] هذا إذا كانت عالمة بوفاته يقينا أما إذا شكت فى وقت وفاته فإنها تعتد من الوقت الذي تستيقن فيه بموته لأن العدة يؤخذ فيها بالاحتياط والاحتياط هو الأخذ باليقين وفى الوقت المشكوك فيه لا يقين فلهذا لا تعتد إلا من الوقت المتيقن[6] .

---

(١) فتح القدير جـ ٤ ص ٣١٣، المغنى جـ ٧ ص ٤٧١ .

(٢) فتح القدير جـ٤ ص٣١٣، المغنى جـ٧ ص٤٧١، المبسوط جـ٦ ص٣١ .

(٣) سورة البقرة «٢٣٤» .

(٤) سورة آل عمران «٤١» .

(٥) المغنى جـ ٧ ص ٤٧١ .

(٦) المبسوط جـ ٦ ص ٣٩ .

المطلب الثانى : فى سبب وجوب الإحـــداد :

عرفت قريباً أن الفقهاء مختلفون فى وجوب الإحداد على من يجب واختلافهم فى الجملة راجع إلى أمرين : المعتدة من الوفاة، والمعتدة من طلاق بائن . فالحنفية يتوسعون فى الإيجاب فيوجبون الحداد فى الأمرين معاً أعنى المعتدة من الوفاة والمعتدة من الطلاق البائن البينونة الكبرى، والجمهور يضيقون دائرة الايجاب فيجعلونه خاصاً بالوفاة وتبعا لهذا الاختلاف يكون سبب الايجاب .

فعند الحنفية ومن قال بقولهم يكون سببه الوفاة والبينونة الكبرى، وعند الجمهور يكون سببه الوفاة لا غير وإنما كان سبب الوفاة لمايأتى . فى قوله تعالى ﴿**والذين يتوفون ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً**﴾ فالآية دليل على إيجاب العدة على المتوفى عنها زوجها ووجوب العدة عليها يستلزم إيجاب الإحداد وعدم إيجابه على غيرها بدليل قوله ﷺ : «لا يحل لامرأة تؤمن بالله وباليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً» هذا من جهة ومن جهة أخرى فالعدة والإحداد يجبان اظهارا للحزن بفوت النعمة وتعريفاً بقدرها والمراد بالنعمة هنا هى نعمة النكاح . إذ النكاح كان نعمة عظيمة فى حقها فإن الزوج كان سبب صيانتها وعفافها وايفائها بالنفقة والكسوة والمسكن(١) . ولهذا كان لفراق الزوج أثر فى نفسها فما كان من أمر الشارع إلا أن أوجب عليها للزوج حقوقا اظهاراً للمصيبة بموته ومن تلك الحقوق العدة والإحداد هذا فى المعتدة من الوفاة . وقد عرفت ما استدل به فقهاء الحنفية لإيجاب الحداد على البائن وهو سبب وجوب عندهم .

المطلب الثالث : فى شرط وجوب عدة المتوفى عنها :

شرط وجوب العدة هو النكاح الصحيح فلا تجب على المنكوحة نكاحا فاسدا ولا الموطوءة بالشبهة ولا الموطوءة بالزنا وإنما تجب على المتوفى عنها زوجها سواء كانت مدخولا بها أوغير مدخولٍ بها وسواء كانت ممن تحيض أوممن لا تحيض لعموم قوله عز وجل ﴿**والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً**﴾ ولما تقدم من أن

---

(١) بدائع الصنائع جـ ٣ ص ١٩٢ .

العدة تجب اظهارا للحزن بفوت نعمة النكاح وقد وجد و انّما شرطنا النكاح الصحيح لأن الله تعالى أوجبها على الأزواج ولا يصير زوجاً حقيقة إلا بالنكاح الصحيح وسواء كانت مسلمة أو كتابية تحت مسلم لعموم النص ولوجود المعنى الذى وجبت من أجله وسواء كانت حرة أو أمة أو مدبرة أو مكاتبة فإنه لا يختلف أصل الحكم لأن ما وجبت له لا يختلف(١). ولم أجد فى هذا كله خلافاً عند أهل العلم إلا ما كان من أمر الحنابلة من تفصيل فى ذلك يحسن ذكره وهو أن الرجل لو مات عن امرأة نكاحها فاسد أن عليها عدة الوفاة وهو ما ذهب إليه القاضى من فقهاء الحنابلة وقد نص على ذلك أحمد فى رواية جعفر بن محمد واختارها أبوبكر وقدمها الأكثر لأنه نكاح يلحق بالنسب فوجبت به العدة كالصحيح وقال ابن حامد من الحنابلة لا عدة عليها للوفاة فى ذلك لأنه لا يثبت الحمل فلم يوجب العدة كالباطل(٢).

ومن المعلوم أن المنكوحة بنكاح باطل مجمع على بطلانه كنكاح القريبة من النسب ونكاح المحرمة بالمصاهرة أو الرضاع ونحو ذلك لا تجب عليها عدة الوفاة اجماعا(٣). لأن الفقهاء مختلفون فى وجوب عدة الوفاة على الموطوءة بشبهة وأكثرهم على عدم وجوبها فإذا كان الأمر كذلك فعدم الوجوب فى النكاح الباطل أولى هذا ويشكل على قول الفقهاء القائلين بعدم وجوب العدة على الموطوءة بنكاح فاسد الحكم بوجوب عدة الطلاق على المدخول بها إذ أنه لا فرق بينها وبين المطلقة فى هذا المعنى فالمطلقة إذا كانت ممن تحيض فعدتها ثلاثة قروء وإذا لم تكن كذلك فعدتها ثلاثة أشهر وهذه مثلها إذا حصلت الخلوة والاصابة وإن كان بعدها قبل الاصابة فالمنصوص عند الحنابلة أن عليها العدة إيضاً لأنه اجرى مجرى الصحيح فى لحوق النسب فكذا فى العدة(٤). لكن يزول الاشكال إذا عرفنا أن عدة الوفاة إنما تجب على الزوجة دون غيرها وهو منصوص عليه فى الكتاب والسنة والمنكوحة بنكاح فاسد ليست بزوجة فى الحقيقة فلا تجب عليها عدة الوفاة وإنما وجبت عليها عدة الطلاق لما بينا من الدليل هذا فى العدة والأمر كذلك فى الإحداد والحنفية يستثنون الصغيرة والمجنونة والكتابية من ذلك فى حين أنهم يرون إيجاب العدة على الجميع وقد اسلفنا ما يتعلق بذلك قريبا .

(١) بدائع الصنائع جـ ٣ ص ١٩٢، نهاية المحتاج جـ٧ ص١٢٦، شرح الخرشى جـ٤ ص١٤٣ .
(٢) المبدع جـ٨ ص ١١٥ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) المصدر السابق .

المطلب الرابع : فى وجوب الحداد على المطلقة إذا مات زوجها قبل انقضاء عدتها من الطلاق :

المطلقة لا تخلو من أحد أمرين أما أن تكون رجعية أو بائنا والبائن لا تخلو من أن يكون طلاقها فى صحة الزوج وإما ان يكون فى حالة مرضه وطبقا لهذا التقسيم يكون الكلام فى هذا المطلب ولهذا فقد رأيت أن يكون البحث فى جانبين . أحدهما متفق عليه والآخر مختلف فيه .

فأما المتفق عليه فهو قسمان :

(أ) الطلاق الرجعى .

(ب) البينونة فى حالة الصحة .

وأما المختلف فيه فهو البينونة فى حالة المرض وإليك تحرير المقام والله المستعان .

القسم الأول : من الجانب الأول عدة الرجعية إذا مات زوجها قبل انقضاء عدتها لا خلاف بين أئمة الفتوى فى أن الرجعية إذا مات زوجها قبل انقضاء عدتها من الطلاق تنتقل من عدة الطلاق إلى عدة الوفاة فيكون ابتداء عدتها من حين وفاة زوجها ولا تعتد بالزمن الذى مضى قبل وفاته والحكم فى الإحداد هو نفسه لأنه لا يوجد بوجود العدة وينعدم بعدمها وإنما قلنا بذلك لما يأتى :

(١) أن النكاح قائم بينهما بعد الطلاق الرجعى فكان منتهيا بالموت وبانتهاء النكاح بالموت يلزمها عدة الوفاة .

(٢) أن العدة بعد الطلاق الرجعى تكون بالحيض وهى لا يزول الملك بها إلا بعد تمامها وقد زال بالموت فعليها العدة التى هى من حقوق النكاح وهى عدة الوفاة[1] .

(٣) أن الرجعية زوجة يلحقها طلاقه وينالها ميراثه فتعتد للوفاة كغير المطلقة إذ الطلاق الرجعى لا يوجب زوال الزوجية وإنما تزول بالموت أو بالبينونة أو بخروج الرجعية من عدتها ومن المعلوم أن موت الزوج يوجب على زوجته عدة الوفاة لما بينا أكثر من مرة فوجوب عدة الوفاة على الزوجة بعد الطلاق الرجعى لا يختلف عنه قبله ولهذا كله قال ابن المنذر أجمع كل من تحفظ عنه من أهل العلم على ذلك[2] . وهو كما قال فإننى لم أجد خلافا بين أهل

---

(١) المبسوط جـ ٦ ص٣٩، مغنى المحتاج جـ٣ ص٣٩٦، نهاية المحتاج جـ٧ ص١٤٦، شرح الخرشى جـ٤ ص١٤٦ .

(٢) المغنى جـ ٧ ص٤٧٢ .

العلم فى أن المعتدة الرجعية تستأنف عدة الوفاة إذا مات زوجها فى عدتها وتكون عدتها أربعة أشهر وعشراً .

القسم الثانى : من الجانب الأول فى عدة المبتوتة إذا مات زوجها قبل انقضاء عدتها وكان الفراق بينهما فى حالة الصحة إذا أبان الرجل زوجته فى صحته ثم مات عنها قبل انقضاء عدتها لم تنتقل إلى عدة الوفاة وإنما تعتد عدة الطلاق لا أعلم فى ذلك بين أهل العلم خلافا وذلك لأن النكاح لم ينتهى بالوفاة هنا وإنما زال الملك بالطلاق والسبب الموجب لعدة الوفاة هو الموت لأن الله تعالى قال ﴿**ويذرون أزواجاً**﴾ وهذه ليست بزوجة له عند وفاته حتى لا ترث منه بالرجعية شيئاً ولا يلزمها عدة الوفاة أيضاً(١) فهى أجنبية منه فى نكاحه وميراثه وتحل له أختها فلم تعتد لوفاته كما لو انقضت عدتها(٢) هذا ما يمكن أن نقوله فى هذا الجانب وهو كما ترى متفق عليه بقسميه على ما بينا .

وأما الجانب المختلف فيه وهو فى حكم عدة المبتوتة فى حالة المرض إذا مات زوجها قبل عدتها فقد اختلف الفقهاء فى هذا الجانب على قولين ونحن نذكر آراءهم وما استدل به كل فريق ونخلص إلى القول الراجح حسب الإمكان .

القول الأول : لأبى حنيفة وأحمد ومحمد بن الحسن وسفيان الثورى وهو أن زوج المبتوتة إذا طلقها فى مرض موته ثم مات عنها قبل انقضاء عدتها تعتد أطول الأجلين من عدة الوفاة أو ثلاثة قروء(٣) . وعلى هذا القول يلزمها الإحداد لأنه تبع لعدة الوفاة وقد وجدت هاهنا وقد استدل أصحاب هذا القول بدليل عقلى وهو أن المبتوتة فى مرض الموت ترث زوجها بعد وفاته وميراثها له بعد موته إنما كان بسبب الزوجية وكونه أبانها فى مرض موته فهو متهم بحرمانها من الميراث فيلزمها عدة الوفاة كما لو طلقها طلاقا رجعيا وهذا لأنا أعطيناها الميراث باعتبار أن النكاح بمنزلة القائم بينهما حكما إلى وقت موته أو باعتبار إقامة العدة مقام أصل النكاح حكما إذ لابد من قيام السبب عند الموت لاستحقاق الميراث والميراث لا يثبت بالشك والعدة تجب بالشك وإذا جعل فى حكم الميراث النكاح كالمنتهى بالموت حكما ففى حكم العدة أولى وسبب وجوب العدة عليها بالحيض متقرر حكما فالزمناها الجمع بينهما(٤) .

القول الثانى : للمالكية والشافعية وأبى يوسف من الحنفية وأبى ثور وأبى عبيد وابن

---

(١) المبسوط جـ٦ ص٣٩، المغنى جـ٧ ص٤٧٢، شرح الخرشى جـ٤ ص١٤٦، نهاية المحتاج جـ٧ ص١٤٦ .

(٢) المبدع جـ ٨ ص ١١٤ .

(٣) المغنى جـ٧ ص٤٧٢، المبسوط جـ٦ ص٤٣ .

(٤) المبسوط جـ ٦ ص٤٤ .

المنذر وهو أن المبتوتة فى مرض الموت تبقى على عدة الطلاق إذا مات زوجها قبل انقضاء عدتها ولا تستأنف عدة الوفاة(١)، وذلك لأن حكم النكاح انقطع بينهما بالطلاق وسبب وجوب عدة الوفاة انتهاء النكاح بالموت فإذا لم يوجد لا يلزمها عدة الوفاة كما لو كان الطلاق فى صحته وإنما أخذت الميراث بحكم الفرار وذلك لا يلزمها عدة الوفاة بدليل المرتد إذا مات أو قتل على ردته ترثه زوجته المسلمة وليس عليها عدة الوفاة لأن زوال النكاح كان بردته لا بموته(٢)، ورد هذا بأن النكاح لما بقى فى حق الأرث فبقائه فى حق وجوب العدة أولى لأن العدة يحتاط فى إيجابها فكان قيام النكاح من وجه كافيا لوجوب العدة احتياطا فيجب عليها الإعتداد أربعة أشهر وعشراً(٣).

ولهذا نقول أن الراجح عندنا هو القول الأول لما بينا ولأن الزوج لما أبانها فى مرض موته كان متهما بحرمانها من الميراث فيعاقب بنقيض قصده وهو توريثها من ماله بعد موته فدل على أن علاقة الزوجية لم تنقطع تماماً إذ لو كان الأمر كذلك لما كان لها حق فى الميراث وانقطاع الزوجية بالموت لا خلاف فيه بين أئمة الفتوى فتجب عليها عدة الوفاة لهذا المعنى ويجب عليها الإحداد وكذلك لأن الإحداد تابع للعدة وإنما قال من قال بأن البائن تعتد فى هذه الصورة بأطول الأجلين لأن البائن وارثة هنا على ما قلنا فيجب عليها أن تعتد للوفاة ومن حيث أنها مطلقة يجب عليها أن تعتد للطلاق فيجب أن تعتد بأطولها ضرورة فإنها لا تخرج عن العهدة بيقين إلا بذلك(٤). هذا وتجدر الإشارة هنا إلى أن الزوج المريض المطلق لو مات عن زوجته بعد انقضاء عدتها بالحيض أوبالشهور أوبوضع الحمل أو كان طلاقه قبل الدخول لم تجب عليها العدة لموته وبالتالى لا يجب عليها الإحداد لأن الله تعالى قال ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها**﴾(٥)، قال تعالى: ﴿**والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء**﴾(٦)، وقال تعالى: ﴿**واللائى يئسن من المحيض من نسائكم ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن**﴾(٧) فهذه الآيات كلها تبين عدة المطلقة بيانا شافيا وهى كما ورد فى الآيات على ثلاثة أقسام: أما أن تكون مطلقة قبل الدخول وهذه لا عدة عليها، أما أن

(١) نهاية المحتاج جـ٧ ص١٤٦، مغنى المحتاج جـ٣ ص٣٩٦، شرح الخرشى جـ٤ ص١٤٦، والمغنى جـ٧ ص٤٧٢، المبسوط جـ٦ ص٤٣.

(٢) المبسوط جـ٦ ص٤٣.

(٣) بدائع الصنائع جـ٣ ص٢٠٠.

(٤) المبدع جـ٨ ص١١٤.

(٥) سبق تخريجها.

(٦) سورة البقرة «٢٢٨».

(٧) سورة الطلاق «٤».

تكون مطلقة بعد الدخول وهى ممن تحيض فعدتها ثلاثة قروء أو تكون آئسة أو صغيرة وهذه عدتها ثلاثة أشهر وقد أنقضت عدة طلاقها قبل وفاة زوجها فليس ثمة ما يدعو إلى إيجاب عدة الوفاة عليها لأنها أجنبية تحل للأزواج ويحل للمطلق نكاح أختها وأربع سواها فلم تجب عليها عدة موته كما لو تزوجت ولا يرد عليه ما قررناه قريبا وجوب عدة الوفاة على المطلقة إذا مات زوجها قبل انقضاء عدتها إذا لم يكن الطلاق فى حالة الصحة لأنها لا تحل لغير مطلقها مادامت فى عدتها وهذه بخلافها فإنها قد خرجت من عدتها وحل نكاحها لغير زوجها(١).

المطلب الخامس : فى إحداد المتوفى عنها الحامل

عرفت قريبا أن الإحداد يجب على المتوفى عنها زوجها من وقت وفاة زوجها وهذا قول الجمهور وهو ينقضى فى حق الحائل بمرور أربعة أشهر وعشراً كما تم ثبته آنفا.

والأمر كذلك فى الحامل فإن الحامل المتوفى عنها تحتسب لها مدة الإحداد من وقت وفاة زوجها وعلى هذا لا يكون فرقا بين الحائل والحامل فى هذا المعنى إذ أن الإحداد تابع للعدة والعدة تبدأ من وقت الوفاة بيد أن الحامل تختلف عن الحائل فى انقضاء العدة والإحداد فالحائل تحل للأزواج بعد مرور أربعة أشهر وعشرا على وفاة زوجها وليس الأمر كذلك فى الحامل، وعلى هذا نقول متى تنقضى عدة الحامل المتوفى عنها ؟ سؤال اختلفت فى جوابه كلمة الفقهاء على قولين :

القول الأول : ذهب الجمهور ومنهم الأئمة الأربعة إلى أن عدة الحامل المتوفى عنها تنقضى بوضع حملها ولو كان ذلك بعد وفاة زوجها بمدة يسيرة وبالتالى لا يجب عليها الإحداد بعد وضع حملها لكون وجوب الإحداد تابعا لوجود العدة(٢)، الاستدلال بهذا القول من أربعة طرق :

(١) طريق الكتاب . (٢) طريق السنة .
(٣) الآثار المروية عن بعض الصحابة . (٤) المعقول .

وإليك تحرير المقام فى ذلك :

(١) الاستدلال بالكتاب : استدل أصحاب هذا القول بقوله تعالى : ﴿وأولات

---

(١) المغنى جـ ٧ ص ٤٧٢ .

(٢) تبيين الحقائق جـ٣ ص٢٨ ، بدائع الصنائع جـ٣ ص١٩٢ ، المغنى جـ٧ ص٤٨٣ ، الخرشى جـ٤ ص١٤٣ ، مغنى المحتاج جـ٣ ص٣٨٨ .

الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾(1). فالآية دليل على أن الحامل تنقضى عدتها بوضع حملها لأن الأجل المذكور فى الآية هو العدة وهو معلق بغاية وهى وضع الحمل والآية شاملة بعمومها لكل حامل سواء كانت متوفى عنها أو مطلقة وفى هذا يسر بديع فإن الله تعالى حينما جعل الظرف الزمنى لعدة المتوفى عنها أربعة أشهر وعشراً أخرج من هذا العموم بدليل آخر عدة الحامل فتكون عدتها بوضع حملها وهو ما يعرف فى علم الأصول بتخصيص العام والقول بقصرها على عدة الحامل المطلقة دعوى بلا دليل كما سيأتى .

(٢) وأما استدلالهم من السنة فقد استدلوا منها بمايأتى :

(أ) ما روى الجماعة إلا أبا داؤ د وابن ماجة عن أم سلمة : (أن امرأة من اسلم يقال لها سبيعة كانت تحت زوجها فتوفى عنها وهى حبلى فخطبها أبو السنابل بن بعكك فأبت أن تنكحه . فقال والله ما يصلح أن تنكحى حتى تعتدى آخر الأجلين . فمكثت قريبا من عشر ليال ثم نِفست ثم جاءت النبى ﷺ فقال إنكحى)(2).

وللجماعة إلا الترمذى فى قصة سبيعة قالت : (فأفتانى بأنى قد حللت حين وضعت حملى وأمرنى بالتزويج أن بدالى)(3).

فهذا الحديث دليل على أن عدة الحامل المتوفى عنها تنقضى بوضع حملها وهو حديث صحيح لا كلام لأحد فى صحته وبانقضاء عدتها بوضع حملها يجوز نكاحها وهو ما صرح به فى الحديث فجواز نكاحها دليل على انقضاء عدتها وانقضاء عدتها دليل على عدم وجوب الإحداد عليها بعد وضع حملها فإن قيل الاستدلال بالحديث على محل النزاع فيه نظر وذلك لأمرين :

الأمر الأول : ما ورد فى قصة سبيعة نفسها من مخالفة ظاهرة لهذا الحديث وهى رواية صحيحة لا مطعن فى صحتها ولفظها عند البخارى كما ورد فى رواية يونس عن الزهري وهو ان عمر بن عبد الله بن الأرقم كتب إلى عبد الله بن عتبة يخبره أن سبيعة بنت الحرث أخبرته أنها كانت تحت سعد بن خوله فتوفى عنها فى حجة الوداع وهى حامل فلم تنشب أن وضعت حملها فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك رجل من

---

(١) سورة الطـــلاق «٤» .

(٢) صحيح البخارى جـ٧ ص٧٢، صحيح مسلم جـ٤ ص١٤٨ ، سنن النسائى جـ٦ ص١٩٦ ، جامع الترمذى جـ٢ ص٣٣٢، وسنن ابن ماجة جـ٧ ص٢٠٢ مسند أحمد جـ٦ ص٤٣٢ .

(٣) المصادر السابقة وسنن أبى داود جـ٢ ص٧٢٨ .

بنى عبد الدار فقال مالى أراك تجملت للخطاب ؟ فإنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشراً. قالت سبيعة : فلما قال لى ذلك جمعت عليَّ ثيابى حين أمسيت فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فأفتانى بأنى قد حللت حين وضعت حملى وأمرنى بالتزويج)(١).

فظاهر هذه الرواية يخالف ما قبلها وذلك أن ما قبلها يفيد أنها مكثت قريبا من عشر ليال ثم جاءت النبى ﷺ وظاهر هذه الرواية يفيد أنها توجهت إلى النبى ﷺ فى اليوم الذى قال لها فيه أبو السنابل ما قال فإنها قالت جمعت علي ثيابى حين أمسيت وهذا يدل على أنها توجهت إلى النبى ﷺ فى اليوم نفسه فإذا كان الأمر كذلك فالحديث لا يكون دليلا على محل النزاع وإنما يصار إلى الأدلة التى تخالفه كما سيأتى :

والجواب عن هذا الأعتراض بأن الجمع ممكن هنا وهو أولى لأن فيه أخذا بالأدلة جميعا وبيان ذلك هو أن نحمل هذه الرواية (وهى قولها حين أمسيت) على إرادة توجهها ولا يلزم منه أن يكون فى ذلك اليوم الذى قال لها فيه ما قال(٢). بذلك تجتمع الأدلة ويحصل الأخذ بها جميعا.

وما كان فى الصحيحين مقدم على غيره عند التعارض وعدم إمكان الجمع.

الأمر الثانى : اختلاف روايات هذا الحديث مما يجعل الناظر فيه يشك فى دلالته وذلك أنه ورد بروايات مختلفة فى المبنى والمعنى. ففى رواية أنها ولدت قريبا من عشر ليال وفى رواية لأحمد فلم أمكث إلا شهرين حتى وضعت، وفى رواية للبخارى فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، وفى أخرى للنسائى بعشرين ليلة أو خمس عشرة، وفى رواية للترمذى والنسائى فوضعت بعد وفاة زوجها بثلاثة وعشرين يوما أو خمسة وعشرين يوما ولابن ماجة ببضع وعشرين، وفى ذلك روايات أُخر مختلفة(٣).

والجواب عن ذلك ما ذكره ابن حجر فى الفتح بعد ذكر هذه الروايات حيث قال (والجمع بين هذه الروايات متعذر لاتحاد القصة ولعل هذا هو السر فى ابهام من ابهم المدة إذ محل الخلاف أن تضع لدون أربعة أشهر وعشراً وهو هنا كذلك فأقل ما قيل فى هذه الروايات نصف شهر وأما ما وقع فى بعض الشروح أن فى البخارى رواية عشر ليال وفى رواية الطبرى

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) نيل الأوطار جـ٦ ص٣٢٣، فتح البارى جـ ٩ ص٤٧٣.

(٣) المصدرين السابقين.

ثمان أو سبع فهو فى مدة إقامتها بعد الوضع إلى أن استفتت النبى ﷺ لا فى مدة بقية الحمل وأكثر ما قيل فيه بالتصريح شهرين وبغيره دون أربعة أشهر(١).

(٢) ما رواه البخارى ومسلم وأبو داؤد والترمذى والنسائى وابن ماجة وغيرهم عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال : (كنت أنا وابن العباس وأبو هريرة فجاء رجل فقال : افتنى فى امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة. فقال ابن عباس : تعتد آخر الأجلين. وقلت أنا : وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن. قال ابن عباس : ذلك فى الطلاق. وقال أبو سلمة أرأيت لو أن إمرأة تأخر حملها سنة فما عدتها. قال ابن عباس : آخر الأجلين. قال أبو هريرة : أنا مع ابن أخى يعنى أبا سلمة فأرسل ابن عباس غلامه كريبا إلى أم سلمة يسألها هل مضت فى ذلك سنة ؟ فذكرت أن سبيعة الأسلمية وضعت بعد موت زوجها بأربعين ليلة فخطبت فأنكحها رسول الله ﷺ)(٢).

(٣) كما أخرجه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن مردويه من حديث أبى السنابل أن سبيعة وضعت بعد موت زوجها بثلاث وعشرين يوما فقال ﷺ : «قد حَل أجلها»(٣).

(٤) ما روى البخارى أن عبد الله بن عبد الله أخبره عن أبيه أنه (كتب إلى ابن الأرقم أن يسأل سبيعة الأسلمية كيف أفتاها النبى ﷺ فقالت إذا وضعت أن انكح)(٤).

(٥) روى البخارى عن المسور بن مخرمة (أن سبيعة الأسلمية نُفِست بعد وفاة زوجها بليال فجاءت النبى ﷺ فأستأذنته أن تنكح فآذن لها فنكحت)(٥).

فهذه الأحاديث قاضية بأن عدة الحامل المتوفى عنها لها غاية وهى وضع حملها فهل لأحد أن يقول بخلاف مادلت عليه هذه النصوص الصحيحة الصريحة التى تفيد بمنطوقها ومفهومها ما يفيده ظاهر الكتاب وهو انقضاء عدة الحامل المتوفى عنها بوضع حملها.

(٣) الآثـــار :

وأما الآثار المروية عن بعض الصحابة التى تفيد هذا المعنى فنورد منها مايأتى :

(١) ما روى عن ابن مسعود (أنه بلغه أن عليا يقول تعتد آخر الأجلين فقال من شاء لاعنته أن الآية التى فى سورة النساء الصغرى نزلت بعد سورة البقرة بكذا وكذا شهر.

---

(١) فتح البارى جـ ٩ ص٤٧٣.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) نيل الأوطار جـ٦ ص٣٢٥.

(٤) صحيح البخارى مع فتح البارى جـ ٩ ص٤٦٩.

(٥) المصدر السابق.

(٢) أخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود أيضا (أن سورة النساء الصغرى نسخت ما فى البقرة) .

(٣) أخرج ابن مردويه عنه أن سورة النساء الصغرى نسخت كل عدة .

(٤) أخرج ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى. قال : (نزلت سورة النساء الصغرى بعد التى فى البقرة بسبع سنين)[1] .

فهـذه الآثـار مصـرحـة بأن قوله تعالى ﴿**وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن**﴾ عامـة فى جميـع العِـدَدِ وأن عمـوم آيـة البقـرة مخصص بها وهـو المراد بالنسخ المذكور فى الآثار المذكورة وليس المراد النسخ الإصطلاحى وهو إزالة الحكم الأول وتبديله بحكم آخر بل المراد التخصيص على ما بينا .

(٤) وأما استدلالهم بالمعقول فمن وجهين :

الـوجـه الأول : أن المعتدة المطلقة تنقضى عدتها بوضع حملها إذا كانت حاملا إجماعاً فكـذا المتـوفى عنهـا قياسا عليها لأن العدة إنما شرعت فى الأصل لمعرفة براءة رحمها من الحمل ووضعه أدل الأشياء على البراءة منه فوجب أن تنقضى العدة .

الوجه الثانى : أنه لا خلاف بين (أهل العلم فى بقاء العدة والمرأة حاملا فإذا كان الأمر كذلك فينبغى أن تنقضى العدة بوضعه كما لو كانت الحامل المطلقة[2] .

القول الثانى مروى عن على وابن عباس وابن مسعود وأبى السنابل وعبد الرحمن بن أبى ليلى وسحنون من المالكية أن المتوفى عنها الحامل لا تنقضى عدتها بوضع حملها وإنما تعتد أطول الأجلين ومعناه أنها إن وضعت قبل مضى أربعة أشهر وعشر تربصت إلى انقضائها ولا تحل بمجرد الوضع وإن انقضت المدة قبل الوضع تربصت إلى الوضع على اختلاف فى نسبة هذا القول إلى هؤلاء وأئمة الاعلام .

وتحـريـر المقـام فى ذلـك ما ذكـره ابن حجر فى الفتح وهو أن هذا القول ثابت عن على رضى الله عنه باسناد صحيح كما أخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد وليس كما ذكر بعض الفقهاء من أنه مروى عن على باسناد منقطع .

---

(١) أنظر هذه الآثار فى نيل الأوطار جـ٦ ص٣٢٥ .

(٢) أنظر المغنى جـ ٧ ص٤٧٤ .

أما ابن عباس فالذى يظهر أنه رجع عن هذا القول يحققه أن المنقول عن تلاميذه وفاق الجماعة فى ذلك .

كذلك عبد الله ابن مسعود رجع عن قوله أولاً إلى قول الجماعة كما تم ثبته قريبا فإنه قال من شاء باهلته (أى لاعنته) فى أن سورة النساء الصغرى نزلت بعد سورة البقرة .

والأمر كذلك عن أبى السنابل فإنه يظهر من مجموع الطرق فى قصة سبيعة أنه رجع عن فتواه أولاً(١) .

ولو فرض أن هؤلاء قالوا كلهم بهذا القول ولم يرجع منهم أحد فلا حجة إلا فيما نقل عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير .

وأما ما روى عن سحنون من فقهاء المالكية فقد رده ابن حجر فى الفتح بأنه شذوذ مردود لأنه احداث خلاف بعد استقرار الاجماع(٢) .

وحجة من قال بأن الحامل المتوفى عنها زوجها تعتد أطول الأجلين هو الحِرْصُ على العمل بالآيتين اللتين تعارض عمومهما فقوله تعالى ﴿**والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا**﴾ عام فى كل من مات عنها زوجها يشمل الحامل وغيرها - وقوله تعالى ﴿**وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن**﴾ عام أيضا يشمل المطلقة والمتوفى عنها - فجمع أولئك بين العمومين بقصر الثانية على المطلقة بقرينة ذكر عدد المطلقات كالآيسة والصغيرة قبلهما ثم لم يُهملوا ما تناولته الآية الثانية من العموم لكن قصروه على من مضت عليها المدة ولم تضع فكان تخصيص بعض العموم أولى وأقرب إلى العمل بمقتضى الآيتين من الغاء أحدهما فى حق بعض من شمله العموم(٣) .

والجواب عن هذا الاستدلال من وجوه :

الوجه الأول : ما ذكره القرطبى بعد ما ذكر ما فى المسألة من خلاف حيث قال بعد إيراد دليل المخالفين للجمهور (والجمع أولى من الترجيح باتفاق أهل الأصول وهذا نظر حسن لولا ما يُعكر عليه من حديث سبيعة الأسلمية وأنها نُفست بعد وفاة زوجها بليال وأنها ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأمرها أن تتزوج فبين بالحديث أن قوله تعالى ﴿**وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن**﴾ محمول على عمومه فى المطلقات والمتوفى عنهن أزواجهن فتكون

---

(١) أنظر فتح البارى جـ ٩ ص٤٧٤ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) فتح البارى المصدر السابق .

عدتهن بوضع الحمل ويعتقد هذا بقول ابن مسعود من شاء باهلته أن آية النساء الصغرى نزلت بعد آية عدة الوفاة وليس الأمر كما زعم بعض من زعم من أن كلام ابن مسعود يفيد أن آية الطلاق ناسخة لآية البقرة وإنما يعنى كلام ابن مسعود أن آية الطلاق مخصصة لآية البقرة فإنها أخرجت منها بعض ما تناولتها وكذلك حديث سبيعة متأخر عن عدة الوفاة لأن قصة سبيعة كانت بعد حجة الوداع وزوجها هو سعد بن خولة وهو من بنى عامر بن لؤى وهو ممن شهد بدراً توفى بمكة حينئذ وهى حامل وهو الذى رثى له رسول الله ﷺ من أن توفى بمكة(١) .

فكلامه يفيد أن عموم آية البقرة مخصوص بقوله تعالى ﴿**وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن**﴾ لا منسوخا بدليل قصة سبيعة المتفق على صحتها وتخصيص العام وتقييد المطلق أمر شائع عند الأصوليين ولا ضرورة هنا للجمع وهو ما اعتمده أصحاب القول الثانى لأنه تعارض بين النصوص فهذا عام وهذا مخصص فيحمل العام على الخاص ويخرج من عمومه مادل عليه هذا الخاص .

أضف إلى هذا ما قاله أبو عمر بن عبد البر تعقيبا على هذه المسألة (لولا حديث سبيعة لكان القول ما قال على وابن عباس لأنهما عدتان مجتمعتان بصفتين وقد اجتمعتا فى الحامل والمتوفى عنها زوجها فلا تخرج من عدتها إلا بيقين واليقين آخر الأجلين(٢) .

الوجه الثانى : لو سلمنا بوجود التعارض وعدم التخصيص لم نسلم بأن آية البقرة عامة لأنه تقرر فى الأصول أن الجموع المنكّرة لا عموم فيها وآية البقرة من ذلك القبيل فلا اشكال .

الوجه الثالث : لو سلمنا بالعموم وسلمنا بالتعارض وعدم التخصيص لم نسلم بأن عدة الحامل المتوفى عنها لا تنقضى بوضع حملها بدليل آخر وهو ما تفيده الأحاديث الصحيحة الصريحة فإنه لا يمكن التخلص منها بوجه من الوجوه(٣) .

هذا ما يمكن أن يجاب به عن هذا الاستدلال والحق صراح لا غبار عليه وإن اشتبه احيانا فى بعض المسائل الفرعية لتكافؤ الأدلة إلا أن هذا المعنى لا يوجد هنا ولهذا فإن الراجح عندنا هو القول الأول لما ذكرنا من الكتاب والسنة والآثار المروية عن بعض الصحابة

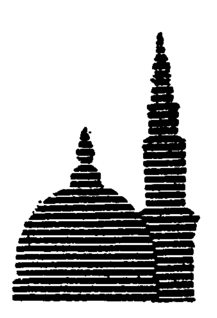
---

(١) أنظر الجامع لأحكام القرآن جـ٣ ص١٧٥ .
(٢) فتح البارى جـ ٩ ص٤٧٤ .
(٣) نيل الأوطار جـ ٦ ص ٣٢٥ .

والمعقـول وقصـة سبيعة نص فى هذا المعنى وهى قصة صحيحة ثابتة فى الصحيحين وغيرهما وهى كافيـة فى الاستـدلال لو لم يوجـد غيرهـا زد على هذا أن أئمـة الفتـوى أجمعوا على أن المطلقـة الحـامـل تنقضى عدتهـا بوضـع حملهـا فأى فرق بين هذه وتلك ؟ . وأيضا مما يرجح مذهب الجمهور أن الآيتين وإن كانتا عامتين من وجه خاصتين من وجه فكان الإحتياط أن لا تنقضى العـدة إلا بآخـر الأجلين لكن لما كان المعنى المقصـود الأصلى من العدة براءة الرحم ولاسيما فيمن تحيض فإنه يحصل المطلوب بالوضع وهو ما دل عليه حديث سبيعة ويقويه قول ابن مسعود فى تأخر نزول آية الطلاق عن آية البقرة[١] .

وكـذلـك يترجـح مذهب الجمهـور بما روى عن أبى بن كعب قال قلت يارسـول الله وأولات الأحمـال أجلهن أن يضعن حملهن للمطلقـة ثلاثـا وللمتـوفى عنهـا زوجهـا فقال هى للمطلقة وللمتوفى عنها زوجها رواه أحمد والدارقطنى .

فهـذا الحـديث نص فى محل النـزاع وهو موافق لما تم ثبته قريبا من الأحاديث القاضية بأن عدة الحامل على المتوفى عنها تنقضى بوضع حملها بل هو أدل على محل النزاع لأنه جواب عن سؤال السائل فالمقام مقام بيان وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز .



(١) فتح البارى جـ ٩ ص ٤٧٤ .

نظام الإثبات في الفقه الإسلامي

للدكتور عوض عبد الله أبو بكر
أستاذ مساعد بكلية الشريعة

دراسة مقارنة

- ٥ -

الإثبات بالكتابة :

تأتى أهمية الكتابة لكونها وسيلة كبرى من وسائل المعرفة، وأداة هامة لتبليغ المعانى، وتقدم بها تقدم به الألفاظ فى بيان المقاصد والأهداف. ولعله لا يخفى على عاقل أهمية الكتابة واعتماد الأمة عليها فى دينها ودنياها .

فقد اعتمد خيار هذه الأمة وسلفها من الصحابة الكرام على الكتابة، فوافقوا مجتمعين على تدوين كتاب الله عز وجل الذى هو شرع هذه الأمة ودستورها . كما أن المصدر الثانى من التشريع وهو سنة رسول الله ﷺ قد نقل إلينا مكتوبا حفظته كتب السنن . وصدق الإمام ابن القيم ـ رحمه الله حين قال : (ولو لم يعتمد على ذلك ـ أى الكتابة ـ لضاع الإسلام اليوم، وسنة رسول الله ﷺ، فليس بأيدى الناس ـ بعد كتاب الله ـ إلا هذه النسخ الموجودة من السنن، وكذلك كتب الفقه الاعتماد فيها على النسخ)[1] .

ومن عناية الشارع الكريم بالكتابة جعلها وسيلة لإثبات الحقوق، حيث أرشد المولى عز وجل إلى كتابة الحقوق فى أطول آية فى القرآن وهى آية الدين، فقال : ﴿**ياأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه، وليكتب بينكم كاتب بالعدل، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله، فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا، فإن كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يُمِلَّ هو فليملل وليه بالعدل . . . الآية**﴾ (البقرة : ٢٨٢) .

فإذا كانت هذه الأمة قد أرشدت إلى كتابة الدين وأمرت بتوثيقه، لكون ذلك أحفظ

(١) الطرق الحكمية ص ٣٠٠ .

للمال، وقاطعا لطريق انكاره، فلننظر إلى أى مدى أخذ الفقهاء بهذا الأمر، فهل حملوه على الوجوب بحيث لا يصح إثبات الدين إلا بالكتابة والأشهاد عليه، أم هذه للندب والإرشاد فيجوز ترك الكتابة عند أئتمان المدين والوثوق بصدقه ؟

(١) ذهب فريق من الفقهاء إلى أن كتابة الديون الآجلة والأشهاد عليها قد كانا واجبين بقوله تعالى : ﴿**يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين فاكتبوه**﴾ ولكن قد نسخ الله هذا الوجوب بقوله تعالى فى الآية التى تليها : ﴿**فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى أؤتمن أمانته . . . الآية**﴾ (البقرة : **٢٨٣**) . روى هذا القول عن الشعبى والحسن[١] .

(٢) قال آخرون : هذه الآية محكمة ولم ينسخ منها شىء ، فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : «لا والله آية الدين محكمة ، وما فيها نسخ» . وعن أبي بردة عن أبي موسى قال : «ثلاثة يدعون الله فلا يستجيب لهم ، رجل كانت له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها ، ورجل أعطى ماله سفيها وقد قال تعالى : ﴿**ولا تؤتوا السفهاء أموالكم**﴾ (النساء : **٥**) ، ورجل له على رجل دين فلم يشهد عليه .) قال الجصاص : قال أبوبكر : وقد روى هذا الحديث مرفوعا إلى النبى ﷺ .

وروى عن الضحاك عن الذى لم يكتب دينه الآجل ولم يشهد عليه : إن ذهب حقه لم يؤجر وأن دعا لم يجب لأنه ترك حق الله وأمره .

وقال سعيد بن جبير : ﴿**وأشهدوا إذا تبايعتم**﴾ . (البقرة : **٢٨٢**) . يعنى أشهدوا على حقوقكم إذا كان فيها أجل أو لم يكن أجل ، فأشهد على حقك على كل حال[٢] .

فعلى قول هؤلاء فإن الأمر هنا محمول على الوجوب ولابد للدائن من إثبات دينه كتابة إذا كان الدين مؤجلا ، فإن لم يكتبه فقد خالف أمر الله الوارد فى الآية ، وضيع حقه بتفريطه فى التوثيق لماله . ولا وجه لمطالبته عند إنكار مدينه للدين لأنه ما أعد عدته لهذا الإنكار .

(٣) وهذا هو قول الجمهور : إن الأمر بالكتابة فى قوله تعالى : ﴿**فاكتبوه**﴾ والأمر بالأشهاد فى قوله تعالى : ﴿**واستشهدوا شهيدين من رجالكم**﴾ وفى ﴿**وأشهدوا إذا تبايعتم**﴾ لا يخلو من أن يكون موجبا لكتابة الديون الآجلة والأشهاد عليها حال نزولها ، وكان

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ١/٤٨١ .

(٢) تفسير القرطبى ٣/٣٨٣، أحكام القرآن للجصاص ١/٤٨١ .

هذا حكما مستقرا ثابتا إلى أن نسخ إيجابه بقوله تعالى : ﴿**فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى أؤتمن أمانته**﴾ ، أويكون نزول الجميع معا ، فإن كان كذلك فليس جائزا أن يكون المراد بالكتابة والأشهاد الايجاب لامتناع ورود الناسخ والمنسوخ معا فى شىء واحد ، إذ غير جائز نسخ الحكم قبل استقراره .

ولما لم يثبت تاريخ نزول هذين الحكمين ـ الأمر بالكتابة والأشهاد ـ وقوله تعالى : ﴿**فإن أمن بعضكم بعضا**﴾ وجب الحكم بورودهما معا ، فلم يرد الأمر بالكتابة والأشهاد إلا مقرونا بقوله تعالى : ﴿**فإن أمن بعضكم بعضا**﴾ فثبت بذلك أن الأمر بالكتابة ليس للوجوب إنما هو للندب أى تندب الكتابة .

أما قول ابن عباس رضى الله عنهما : (أن الآية محكمة ولم ينسخ منها شىء) ، فلا دلالة فيه على أنه يرى وجوب الكتابة والأشهاد إنما يريد أن الجميع قد ورد معا ونسق التلاوة يقتضى أن يكون ذلك مندوبا وهو ورود قوله تعالى : ﴿**فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى أؤتمن أمانته**﴾ .

وكذلك ما روى عن أبي موسى : ثلاثة لا يستجاب لهم من له على رجل دين فلم يشهد عليه ، فلا دلالة فيه أيضا على وجوب الكتابة والأشهاد لأنه قد ذكر معه من له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها ، ولا خلاف فى أن ذلك ليس بواجب ، بل يقال أنه تارك للأحتياط والتوصل إلى ما جعل الله له فيه المخرج والخلاص .

ويؤيد صحة مذهب الجمهور فى ندب الكتابة وعدم الوجوب أنه لم تنقل إلينا كتابة الصحابة والتابعين وسلف الأمة لديونهم أو بيوعهم أو عقودهم مع حاجتهم لها ، لم ينقل نكيرهم أو اعتراضهم على من ترك الكتابة ، فلوكانت الكتابة واجبة لنقل ذلك نقلا مستفيضا ولتواتر إنكارهم على تاركها . فدل عدم النقل وعدم إظهار النكير على آية الكتابة ليست واجبة إنما ورد الأمر فى هذه الآية للندب والاحتياط حتى لا يقع جحود أو نسيان[1] .

حجية الكتابة فى الإثبات :

إذا كنا قد تناولنا آراء الفقهاء فى كتابة الديون من حيث الوجوب وعدمه ، ورأينا أن البعض يرى الوجوب والبعض الأخر يرى نسخ الوجوب ، والجمهور يرى ندب الكتابة من غير نسخ ، فهل تكفى الكتابة دليلا فى الإثبات ، وما قيمة السند المكتوب وما مدى حجيته

(١) أحكام القرآن للجصاص ٤٨٢/١ ، تفسير القرطبى ٣٨٣/٣ .

على ما دون فيه ؟ وهل يحكم القاضى بما هو مسطور فى السند متى ما رفع إليه سند يتضمن حقا من الحقوق وليس عليه أن يقبل أى طعن فى صحته وصحة ما حمله السند ؟ .

لاشك أن الكتابة المشار إليها فى الآية الكريمة أصبحت مستندا خطيا لأن المكتوب يحوى إقرارا بما تضمنه السند موقعا عليه من المدين المقر وبشهادة كاتب السند أو الشهود الذي وقعوا على صحة إقرار المدين بالسند وعليه فإن حجية السند هنا تأتى من توقيع المقر والاشهاد فقويت دلالته على الحق ، ولاشك أن الفقهاء عاملوا الإقرار بالكتابة معاملة الإقرار باللسان سواء بسواء .

غير أننا نلاحظ خلافا بين الفقهاء فى قبول الكتابة كدليل إثبات للحقوق ، والذى يبدولى من أغلب عباراتهم أنهم يقصدون المكتوب الذى لم يشهد عليه كإقراره بدين أو بحق لأخر بخط يده ، أو كتابته لهبة لم يشهد عليها ، وكذلك الأوراق التى لا تصدر من جهة رسمية ، فإن بعض الفقهاء يرون أن مثل هذه المكاتيب لا يثبت القاضى بها ما تضمنته من حقوق لعدم تيقن صدورها من المنسوبة إليه ولإمكان تزوير الخطوط .

وقد أبرز ابن القيم رحمه الله هذا الخلاف فى كتابه الطرق الحكمية فى فصل (الطريق الثالث والعشرون ـ الحكم بالخط المجرد) ومن أقواله فى ذلك :

(أن يرى القاضى حجة فيها حكمه لإنسان ، فيطلب منه امضاءه والعمل به فقد اختلف فى ذلك ، فعن أحمد ثلاث روايات ، أحداهن : أنه إذا تيقن أنه خطه نفذه وان لم يذكره ، والثانية : أنه لا ينفذه حتى يذكره ، والثالثة : أنه إذا كان فى حرزه وحفظه نفذه والا فلا .) .

(والمشهور من مذهب الشافعى أنه لا يعتمد على الخط لا فى الحكم ولا فى الشهادة ، وفى مذهبه وجه آخر أنه يجوز الاعتماد عليه إذا كان محفوظا عنده كالرواية الثالثة عن أحمد .) .

(وأما مذهب أبي حنيفة ، فقال الخفاف ، قال أبو حنيفة : إذا وجد القاضى فى ديوانه شيئا لا يحفظه ـ كإقرار الرجل بحق من الحقوق ـ وهو لا يذكر ذلك ولا يحفظه ، فإنه لا يحكم بذلك ولا ينفذه حتى يذكره .) .

(وأما مذهب مالك فقال فى الجواهر : لا يعتمد على الخط إذا لم يذكره لإمكان التزوير عليه .) .

(وقال إسحاق بن إبراهيم : قلت لأحمد : الرجل يموت وتوجد له وصية تحت رأسه من غير أن يكون أشهد عليها أو أعلم بها أحدا ، هل يجوز إنفاذ ما فيها ؟ قال : إن كان قد

عرف خطه وكان مشهور الخط فإنه ينفذ ما فيها .) .

(قال القاضى : وثبوت الخط فى الوصية يتوقف على معاينة البينة أو الحاكم لفعل الكتابة لأنها عمل ، والشهادة على العمل طريقها الرؤية .) .

(وأجاز مالك الشهادة على الخطوط . . . . . وذكر ابن شعبان عن ابن وهب أنه قال : لا آخذ بقول مالك فى الشهادة على الخط ، وقال الطحاوى خالف مالك جميع الفقهاء فى ذلك وعدوا قوله شذوذا)[١] .

يظهر من هذا النقل أن بعض الفقهاء يتحرجون من الإثبات بالكتابة ويرون أنها لا تصلح دليلا يعتمد عليه ، وكما قدمت أن الشبهة التى يعتمد عليها هذا الفريق من الفقهاء فى رد الدليل الكتابى هى تشابه الخطوط وإمكان محاكاتها وتزويرها ، ولذا يجب على القاضى ألا يبنى حكمه على مجرد الخط . ولعل هؤلاء يدور بخلدهم قصة عثمان رضى الله عنه والفتنة التى أدت إلى مقتله ، فإن المتسببين فى قتله - كما يحكى لنا التاريخ الإسلامى - قد صنعوا مثل خاتمه وكتبوا مثل كتابه فكان ما كان .

غير أن أدلة هؤلاء المانعين للإثبات بالكتابة تضعف تماما أمام الحجج الواضحة التى أوردها المجيزون للإثبات بالكتابة والتى تقوم - زيادة على ما قدمنا من ندب الله عز وجل لكتابة الديون بسبب القرض أو بسبب عقد مالى - على :

أولاً : ان النبي ﷺ كان يبعث بكتبه ورسائله إلى الملوك وغيرهم وتقوم بها حجته ، وفى الجامع للبخاري عن أنس بن مالك رضى الله عنه لما أراد النبي ﷺ أن يكتب إلى الروم قالوا : انهم لا يقرأون كتابا إلا مختوما ، فاتخذ النبي ﷺ خاتما من فضة كأنى أنظر إلى وبيصه ونقشه محمد رسول الله[٢] .

ثانيا : عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «ما حق أمرىء مسلم له شىء يوصى فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده»[٣] .

قال ابن القيم : ولو لم يجز الاعتماد على الخط لم تكن لكتابة وصيته فائدة[٤] .

---

(١) الطرق الحكمية ص ٢٩٩-٣٠٥ .

(٢) صحيح البخاري ٤/٢٣٧ (كتاب الأحكام - باب الشهادة على الخط) .

(٣) صحيح البخاري ٣/١٢٤ (كتاب الوصايا) .

(٤) الطرق الحكمية ص ٣٠١ .

ثالثا : كتب النبي ﷺ إلى أهل خيبر، إما أن يدوا صاحبكم وإما أن تؤذنوا بحرب(١).

رابعـــا : اجماع أهـل الحـديث على اعتـماد الـراوى على الخط المحفوظ عنده وجواز التحديث به، ولم يخالف فى ذلك إلا بعض الشذوذ(٢).

خامســا : اعتـماد فقهـاء هذه الأمـة وأئمتهـا على الكتابة فى حفظ السنة والفقه، وقد تقدم قول ابن القيم فى ذلك .

وفى نظـرى أن هذا القـول هو الصـواب وهـو الأرفق بالناس فى معاملاتهم واقضيتهم ولأن الكتـابـة تدل على المقصـود كدلالـة الألفـاظ، ولأن هذا القول هو الذى أختاره حذاق الأئمة كما هو ظاهر من النقول .

كيفية الإثبات بالكتابـــــة :

إن كنـا قد انتهينـا إلى جواز الإثبـات بالكتـابـة بنـاء على القول الغالب عند الفقهاء وتسهيلا على الناس، فإن هذا الجواز لم يجعل من الكتابة دليلا يمنع أو يحد من قوة غيرها من الأدلـة كما ذهب بعض القـانـونيـين. فرجال القانون الوضعى قد انتهوا إلى وجوب الإثبات بالكتابة فى بعض الحقوق، ولا يجوز الإثبات إلا عن طريقها، ومنعوا الإثبات بشهادة الشهود فى هذه الحقـوق، مقيـدين بذلـك طريق الإثبات بالشهادة، وجعلوا حجية الكتابة أقوى من حجيـة الشهـادة. ورجال القانون إن كانوا قد عذروا أنفسهم فى هذا المسلك بدعوى انتشار شهادة الزور مما أدى إلى الفوضى فى ساحات العدالة، فإن الفقه الإسلامى لم يكن بحاجة لمثل هذا التصرف وهذا التقييد مادام منهجه تربية الفرد، وغرس روح الأمانة والمراقبة لله عز وجل بحيث تندرج هذه المراقبة على أفعاله كلها فيكون بذلك بعيدا عن تهمة التزوير. ثم إن هذا المحـذور الـذى أدى تقييـد الشهـادة عنـد القـانـونيـين لا يؤمن دخـولـه فى الكتـابة والمستندات الخطية، وما كان إنكار المانعين للإثبات بالكتابة إلا لتخوفهم من الغش والتزوير .

بقى لنـا الآن أن نرى كيف يكـون اعتـداد الفقهـاء بالمستندات المكتوبة فى الإثبات . فإذا نظـرنـا إلى كتـابـات الفقهـاء ـ المتقدمين منهم والمعاصرين ـ فى الأدلة الكتابية نجدهم يقسمونها إلى قسمين رئيسيين :

---

(١) صحيح البخاري ٤/٢٣٧ (كتاب الأحكام ـ باب الشهادة على الخط) .
(٢) الطرق الحكمية ص ٣٠١، وأنظر المستصفى للغزالى ١/١٦٦ .

القسم الأول : المستندات الصادرة من دائرة رسمية :

وهى تلك التى يثبت بها موظف عام أو شخص مكلف بخدمة عامة ما تم على يديه أو ما تلقاه من ذوى الشأن وذلك طبقا للقواعد المرعية وفى حدود سلطته أو ولايته أو اختصاصه. ولذلك فإن أهم ما يشترط للسند الرسمى مايلى :

(١) أن يكون تحريره بمعرفة موظف عمومى أو جهة رسمية.

(٢) أن يكون ذلك الموظف أو تلك الجهة الرسمية مختصة بتحرير مثل هذا السند وفى حدود سلطتها أو ولايتها.

(٣) أن يكون تحرير هذا السند قد تم بحسب القواعد الموضوعة له[١].

ومثال المستندات الرسمية : صور الأحكام التى تستخرجها المحكمة ممهورة بامضاء القاضى وختم المحكمة، وثائق الزواج والطلاق، شهادات الميلاد، صكوك الأراضى وعقودها المستخرجة من سجلات مصلحة الأراضى، مخالصات مصلحة الضرائب وصندوق الزكاة وغير ذلك من المستندات التى تستخرج من الجهات المختصة معتمدة بختمها وامضائها.

والورقة الرسمية حجة على ما تضمنته من حقوق وبيانات مادامت قد استوفت الشروط المتقدمة، ولذلك لا يقبل إنكار ما جاء فيها إذ أن الجهة الرسمية لا تستخرج هذا السند إلا إذا توثقت من صحة بياناته بالتحرى الدقيق أو بشهادة الشهود أو بالرجوع إلى سجلاتها.

ونستدل لهذا القول من كتب السابقين ما ورد عنهم فى كلامهم عن كتاب القاضى إلى القاضى أو الحاكم إلى عماله فإنه يكون حجة وكذلك يكون حجّة ما يصدره القضاة من أوراق للخصوم تتضمن الحكم الذى أصدروه فى قضاياهم وغير ذلك. ومن هذه الأقوال :

يقول البخاري فى صحيحه «باب الشهادة على الخط المختوم وما يجوز من ذلك وما يضيق منه وكتاب الحاكم إلى عامله والقاضى إلى القاضى. وقال بعض الناس : كتاب الحاكم جائز إلا فى الحدود، قال : وإن كان القتل، فالخطأ والعمد واحد، لأنه مال بزعمه وإنما صار مالا بعد أن ثبت القتل، فالخطأ والعمد واحد. وقد كتب عمر إلى عامله فى الحدود، وكتب عمر بن عبد العزيز فى سن كسرت.

---

(١) أصول المرافعات الشرعية : أنور العمروسى فقره ٣١٨، علم القضاء : أحمد الحصرى ١/ ٤٨.

وقال إبراهيم كتاب القاضى إلى القاضى جائز إذا عرف الكتاب والخاتم . وكان الشعبى يجيز الكتاب المختوم بما فيه من القاضى ، ويروى عن ابن عمر نحوه . وقال معاوية بن عبد الكريم الثقفى شهدت عبد الملك بن يعلى قاضى البصرة واياس بن معاوية والحسن وثمامة بن عبد الله بن أنس وبلال بن أبى بردة وعبد الله بن بريدة الأسلمى وعامر بن عبيدة وعباد بن منصور يجيزون كتب القضاة بغير محضر الشهود ، فإن قال الذى جىء عليه بالكتاب أنه زور قيل له أذهب فالتمس المخرج من ذلك .)[1] .

ويقول ابن القيم : (وقال أبو يوسف / محمد : ما وجد القاضى فى ديوانه من شهادة شهود شهدوا عنده لرجل على رجل بحق ، أو إقرار رجل لرجل بحق ، والقاضى لا يحفظ ذلك ولا يذكره فإنه ينفذ ذلك ويقضى به إذا كانت تحت خاتمه محفوظا ، ليس كل ما فى ديوان القاضى يحفظه)[2] .

هذا ، وقد عقد صاحب جامع الفصولين فصلا فى حجية المحاضر الرسمية للقضاة والصور المستخرجة منها إذا كانت موقعة بختم القاضى وامضائه ، وبين أن محاضر القضاة وما دون فيها من أقوال الخصوم وسماع الشهود ومنطوق الحكم تكون حجة ، وكذلك الصورة التى يستخرجها القاضى من سجلات المحكمة تتضمن حكم قاض آخر فى دعوى من الدعاوى[3] .

يظهر من كلام الفقهاء أن إنكار الورقة الرسمية لا يقبل ، غير أنه إذا طعن فى الورقة الرسمية بالتزوير ، وقال إنهم قد زوروا توقيعه أو توقيع القاضى أو ختم جهة الاختصاص ، فللقاضى أن يحيل الأوراق إلى جهة الاختصاص أو أهل الخبرة للمضاهاة والافادة بصحة الورقة أو التزوير . وهل يحكم القاضى بقول أهل الخبرة أن المستند صحيح ؟ قيل لا يحكم لكون شهادتهم ليست شهادة على الحق ، وقيل يحكم بذلك[4] . وعندى أن السير فى الدعوى يتوقف على مدى اقتناع القاضى بصحة السند استئناسا بقول أهل الخبرة ، ومدى قوة السند وأثره على الدعوى .

القسم الثانى : المستندات العرفيـــــة :

والمستندات **العرفية** هى الأوراق والمستندات التى لم تصدر من دائرة رسمية أو موظف

---

(١) صحيح البخاري ٤ /٢٣٧ . (كتاب الأحكام) .

(٢) الطرق الحكمية ص ٢٩٩ .

(٣) جامع الفصولين ١ /٣٢٥ وما بعدها .

(٤) علم القضاء : أحمد الحصرى ١ /٤٨ وما بعدها .

مختص، وهى ككتابة المقر بخط يده أن لفلان عليه كذا، أو كتابة الوصية بخط الموصى من غير أن يشهد على وصيته، وكذلك هبته لأخر من غير أن يقوم بتسجيل الهبة، ومن ذلك أيضا أن يجد الوارث فى دفتر مورثه أن له عند فلان كذا، ومنه أيضا دفاتر التجار التى تبين تعاملهم ودائنيهم ومدينيهم .

والورقة العرفية حجة فيما تضمنته، ويجوز للقاضى أن يحكم بمقتضاها، فهى كالإقرار بالكتابة، والإقرار بالكتابة كالإقرار باللسان عند الفقهاء . فمتى ما أقر الشخص بتوقيعه أو بخطه، أو أقر الوارث بأن هذا خط مورثه أو توقيعه أو كان ذلك الخط أو التوقيع معروفا ومشهورا فعلى القاضى أن يعمل بمقتضى هذا السند .

يقول ابن القيم : (والحديث المتقدم - أى حديث الوصية - كالنص فى جواز الاعتماد على خط الموصى، وكتبه ﷺ إلى عماله وإلى الملوك وغيرهم تدل على ذلك ولأن الكتابة تدل على المقصود فهى كاللفظ ولهذا يقع بها الطلاق .

قال القاضى : وثبوت الخط فى الوصية يتوقف على معاينة البينة أو الحاكم لفعل الكتابة، لأنها عمل، والشهادة على العمل طريقها الرؤ ية .

وقول الإمام أحمد وإن كان قد عرف خطه وكان مشهور الخط، ينفذ ما فيها، يرد على ما قاله القاضى، فإن أحمد علق الحكم بالمعرفة والشهرة من غير اعتبار لمعاينة الفعل، وهذا هو الصحيح، فإن القصد حصول العلم بنسبة الخط إلى كاتبه، فإذا عرف ذلك وتيقن كان كالعلم بنسبة اللفظ إليه، فإن الخط دال على اللفظ واللفظ دال على القصد والإرادة .)(١) .

ويقول فى موضع آخر «وقد صرح أصحاب أحمد والشافعى بأن الوارث إذا وجد فى دفتر مورثه أن لى عند فلان كذا، جاز له أن يحلف على استحقاقه وأظنه منصوصا عليها، وكذلك لو وجد فى دفتره : إنى أديت إلى فلان ماله عليّ جاز له أن يحلف على ذلك إذا وثق بخط مورثه وأمانته . »(٢) .

غير أننا نلاحظ اختلاف معاملة الفقهاء للورقة العرفية عن معاملة المستند الرسمى، إذ أنهم لم يقبلوا إنكار من كان السند الرسمى حجة عليه أما الورقة العرفية فقد جعلوا كتابته

---

(١) الطرق الحكمية ص ٣٠٢ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٠٣ .

وتـوقيعـه كالإقـرار، ولـذا فإنه إذا أنكر إقراره أو قال,إنه لم يوقع وليس هذا توقيعه فوجب على المدعى اثبات الإقرار بطريق آخر غير الورقة العرفية .

نخلص من هذا أنـه يجوز الإثبـات بالكتـابة عموما، فإن كان المستند صادرا من جهة رسميـة فهـوحجـة، وعلى مدعى خلاف ما فى السند إثبات بطلان هذا السند بالتزوير. أما إن كان السنـد عرفيـا، فهـودليـل على الحق غير أنه يجوز لمن كان السند حجة عليه أن ينكر دلالـة هذا السنـد العـرفى على الحق لكـون الفقهـاء عاملوا الـورقة العرفية معاملة الإقرار، والإقرار يجوز الرجوع فيه، ولذا يمكن الطعن فى هذه الورقة العرفية بإنكارها أو تزويرها .

شهادة الخبـــــــــراء :

ومن الوسائل التى تعين على أظهار الحق وكشف وجه الدعوى قول الخبراء. والخبراء هم الذين لهم المعرفة والخبرة بالمسائل الفنية إذا كان موضوع النزاع فيه مسألة فنية أو علمية تغيب على القاضى، ومن ذلك قول الطبيب الشرعى فى سبب الوفاة، وغير ذلك مما يختص بمعـرفتـه الطبيب. وكـذلـك قول المهنـدسـين والفـاحصـين والمختصـين بمعـرفـة الخطوط والبصمات، كل فيما يتعلق ويتصل بمجال تخصصه، وكذلك قول البيطار فى عيوب الحيوان ودائه .

ويمكن القـول بأن الشـريعة الإسلامية قد اعتدت بقول أهل الخبرة، فقد قبل النبي ﷺ قول القـائف وسـرّ عليـه الصـلاة والسلام حينما أثبت نسب أسامة ـ رضى الله عنه ـ من زيد ـ رضى الله عنه ـ بمقارنة الشبه فى أقدامهما. (١).

وقـد أشـارت الآيـة الكـريمة فى قوله تعالى : ﴿**بلى قادرين على أن نسوى بنانه**﴾ . (القيـامـة: ٤). إلى اختلاف بصمات الأصابع من شخص لآخر. فلا حرج إذن إذا استدل القـاضى على المتهم بقـول الخبراء الذين قارنوا بصمات المتهم مع البصمات التى وجدت فى مكان الجريمة واتضحت المطابقة. ولما كان قول الخبير ليس شهادة مباشرة فى موضوع النزاع إنـما هوتقـريـر فنى يتعلق فقـط بالمسألـة الفنيـة القـائمـة فى الدعوى جاز للقاضى أن يحكم بمقتضاه إذا وافق الأدلة الأخرى القائمة فى الدعوى، كما يجوز له تركه أو ترك بعضه إذا رأى عدم سلامتـه أو عدم سلامـة بعضـه لكـونه يخالف أدلة أخرى مقنعة وواضحة فى الدعوى، ذلك لأن القاضى لا يحكم إلا بما تطمئن إليه نفسه حسب الأدلة المقدمة فى الدعوى. وليس هذا إنكـارا للفـائـدة العلمية لتقرير الخبير ولكن قد توجد أدلة أخرى أكثر دلالة ووضوحا فى

---

(١) صحيح البخاري ٣/١٣٩. (كتاب الفرائض ـ باب القائف) .

محل النزاع، فوجود بصمة الشخص فى محل الجريمة مثلا لا تعنى دائما أن صاحب البصمة هو الجانى لاحتمال أن يكون القاتل غيره كما إذا وجده مقتولا فأراد أن يتبين فصار لامسا للقتيل أو كان حاملا له بقصد اسعافه، أو كان مدافعا عن نفسه وغير هذا من الاحتمالات .

ثم إنه لما كان قول الخبير شهادة يستعين به القاضى فى الدعوى القائمة كما اسلفت، وجب أن يراعى فى هذا المقال الشبه التى ترد الشهادة فيجب ألا يكون الخبير الذى قدم تقريره فى الدعوى قريبا لأحد الخصوم أو قريبا لزوجته أو صهرا لأحد الخصوم أو وكيلا له أو لزوجته فى أعماله أو وصيا أو قيما أو مظنونا وراثته بعد موته، كما يجب ألا تكون بينه وبين أحد الخصوم عداوة أو خصومة ما لم تكن هذه الخصومة قد اقيمت بعد الدعوى يقصد منعه من الأدلاء بقوله أو تقريره[1] .

وبانتهاء الكلام عن شهادة أهل الخبرة نكون قد فرغنا من عرض أهم وسائل الإثبات فى الفقه الإسلامى، وقد رأينا أن هناك قسما قد اتفق الفقهاء على حجيته وهو الإقرار والشهادة، وقسما اختلفوا فيه وعرضنا فيه اليمين النكول عنه، وعلم القاضى، والقرائن والفراسة، والكتابة وشهادة الخبراء، وقبل أن أختم هذا البحث أرى أن أقرر بعض الحقائق المهمة :

الأولى : إن هذه الأدلة التى سقناها تدل على الحق غالبا، ولا يخلو دليل منها ـ متفق عليه أو مختلف فيه ـ من احتمال، ولكن هذا الاحتمال لا يمنع غالب دلالتها على الحق، ولذا جعلها الشارع وسائل للاثبات لأن الحكم للكثير الغالب لا للقيل النادر .

الثانية : إنه لا يجوز التوصل إلى هذه الوسائل بطريق غير مشروع، ولابد للقاضى من التأكد من سلامة اجراءات حصوله على أى من هذه الأدلة ويظهر تقرير الفقه الإسلامى لقواعد سلامة اجراءات الوصول إلى الأدلة فى أمرين :

(أ) عدم جواز تعذيب المتهمين للحصول على إقرارهم :

يرى ابن حزم أن الامتحان فى الحدود وغيرها من الجرائم بالضرب وبالسجن أو التهديد لا يحل شرعا لأنه لم يرد بذلك قرآن ولا سنة ولا اجماع، بل قد منع الله تعالى من ذلك على لسان رسول الله ﷺ بقوله : «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم وأبشاركم عليكم

(١) أصول المرافعات الشرعية : أنور العمروسى فقرة ٣٦٥ .

حرام»(١). ولا يجوز ضرب المسلم إلا إذا ثبت عليه حق فمنعه فيكون ظالما فى هذه الحالة فوجب ضربه لاخراج الحق منه .

ويرى ابن حزم تأسيسا على ذلك أنه لو ضرب المتهم حتى أقر فإن إقراره لا يعمل به، لأنه قد أخذ بصفة لم يوجبها قرآن ولا سنة ولا اجماع(٢) .

بيد أننا نجد الجمهور من الفقهاء قد قسموا الناس فى الدعوى على طوائف ثلاث . طائفة لا يجوز حبسهم ولا ضربهم ولا يضيق عليهم بشىء بل ذهب بعض الفقهاء إلى تعزير من اتهمهم لأن التهمة لا تليق بأمثالهم لكونهم من أهل الورع والتقوى ومعروفين بالدين والصلاح، وطائفة مجهول حالها لم تعرف بصلاح أو فسق، فهذه قالوا لا يضرب المتهم منها ولكن يحبس حتى ينكشف أمره، وطائفة المشتهرين بالفساد والفجور ونقب الدور والسرقات، فهذا لا مانع من ضربه لمناسبة التهمة له ولكونه لو ترك لضاعت الحقوق وعمت الفوضى(٣) .

(ب) ألا يكون فى الحصول على الدليل اعتداء على الحرية الشخصية :

وفى نظرى أن الحصول على الدليل إذا كان باعتداء على الحرية الشخصية للفرد فإن ذلك سبب كاف فى منع الاحتجاج به، إذ أن الشريعة الإسلامية تمنع التجسس على الناس فى حياتها الخاصة، فيقول تعالى : ﴿**ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا**﴾ . (الحجرات : ١٢) . كما توجب الستر وعدم مضايقة الناس فى بيوتهم، ولذا فإن الدليل المأخوذ بأحد هذه الطرق يجب عدم الالتفات إليه .

ونستدل لذلك بما رواه البيهقى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فذكر البيهقى أن عبد الرحمن بن عوف حرس مع عمر ليلة بالمدينة، فبينما هم يمشون شب لهب سراج فى بيت، فانطلقوا يؤمونه حتى إذا دنوا منه إذ باب مجاف على قوم لهم فيه أصوات مرتفعة ولغط فقام عمر رضى الله عنه وأخذ بيد عبد الرحمن فقال : أتدرى بيت من هذا ؟ قلت : لا . قال : هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن شرب فما ترى ؟ قال عبد

(١) صحيح البخاري (كتاب الحدود) ٤/١٠٥ .

(٢) المحلى ١١/١٣٥ .

(٣) الفتاوى الكبرى ابن تيمية ٤/١٩٠ وما بعدها، معين الحكام للطرابلسى ص٢١٧، الطرق الحكمية ص١١٧، والحبس فى التهمة والامتحان على طلب الإقرار مؤلفه سعد الدين بن الديرى الحنفى ص١٦ .

الرحمن أرى قد أتينا ما نهى الله عنه ﴿ولا تجسسوا﴾ فقد تجسسنا فانصرف عنهم عمر رضى الله عنه وتركهم(١).

وفى رواية أن عمر رضى الله عنه كان يمر ليلة فى المدينة فسمع صوتا فى بيت فارتاب فى أن صاحب الدار يرتكب محرما، فتسلق المنزل وتسور الحائط ورأى رجلا وامرأة ومعهما زق خمر فقال : ياعدو الله أظننت أن الله يسترك وأنت على معصية، وأراد أن يقيم عليه الحد فقال الرجل : لا تعجل ياأمير المؤمنين إن كنت قد عصيت الله فى واحدة فقد عصيته أنت فى ثلاث فقال تعالى : ﴿**ولا تجسسوا**﴾ وأنت تجسست. وقال : ﴿**وأتوا البيوت من أبوابها**﴾ (البقرة: **١٨٩**). وأنت تسورت وصعدت الجدار ونزلت. وقال تعالى : ﴿**لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها**﴾. (النور: **٢٧**). وأنت لم تسلم. فخجل عمر وبكى وقال للرجل : هل عندك من خير إن عفوت عنك قال نعم. فقال : أذهب فقد عفوت عنك(٢).

معنى ذلك أن صاحب الدار دفع بعدم مشروعية الدليل. فقد ضبط بالفعل متلبسا بجريمة شرب الخمر ولكن هذا الضبط كان وليد اجراءات غير مشروعة، وهو التجسس وتسور الحائط وعدم السلام، وقد أخذ عمر واقتنع بصحة الدفع وترك الرجل، وليست المسألة أن عمر أراد أن يجرى مقاصة بين ما أرتكبه صاحب الدار وما أرتكبه هو وعفا عنه لذلك، لأنه لا يملك العفو عن الحد، بل إنه اسقط الدليل المستمد من الواقعة بعد تبينه أنه وليد اجراءات غير مشروعة .

الثالثة : (الأصل فى الذمة البراءة)(٣) معنى ذلك أنه ما لم يثبت بطريق من طرق الإثبات أن الشخص معتد أو غاصب فالأصل براءته، فهذه قاعدة وأصل مقرر فى الفقه الإسلامى .

والحمد لله أولا وآخرا وصلى الله على سيدنا محمد حتى يرضى . . .

---

(١) السنن الكبرى ٨/٣٣٣، ورواه الحاكم فى المستدرك ٤/٣٧٧. قال الذهبى فى تلخيص المستدرك صحيح .

(٢) تاريخ الطبرى ٥/٢٠ المطبعة الحسينية. مصر .

(٣) الأشباه والنظائر لابن نجيم وشرح الحمدى على الاشباه ١/٨٩. والمادة «٨» من مجلة الأحكام العدلية، والمدخل الفقهى العام للأستاذ مصطفى الزرقاء ١/٦٤٨.

أهم مراجع البحـــث

أولا : كتب تفسير القرآن الكـــــريم :

(١) أحكام القرآن : أبوبكر أحمد بن على الرازي الجصاص (٣٧٠هـ) ط. الأوقاف القسطنطينية ١٣٣٨هـ .

(٢) الكشاف : محمود بن عمر الزمخشري (٥٢٨) ط. مصطفى محمد بمصر ١٣٥٤هـ .

(٣) أحكام القرآن : أبوبكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربى (٥٤٢) ط. دار احياء الكتب العربية ١٣٥٧هـ .

(٤) التفسير الكبير : محمد فخر الدين الرازي (٦٠٦هـ) ط. الأميرية بولاق ١٢٨٩هـ.

(٥) الجامع لأحكام القرآن : أبوعبد الله محمد بن أحمد القرطبى (٦٧١هـ) ط. دار الكتب المصرية ١٣٥١هـ.

(٦) لباب التأويل فى معانى التنزيل : علاء الدين على بن محمد الخازن (٧٢٥هـ) ط. الأزهرية ١٣١٣هـ.

(٧) روح المعانى : شهاب الدين الألوسى (١٢٧٠هـ) إدارة الطبعة المنيرية بيروت .

ثانيا : كتب الحديث النبوي وشروحه :

(٨) الموطـــأ ـ مطبوع مع شرح الزرقانى : مالك بن أنس الأصبحى (١٧٩هـ) ط. الخيرية .

(٩) سنن الدارمى : محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى (٢٥٥هـ) ط. الفنية. مصر ١٣٨٦هـ.

(١٠) صحيح البخاري : أبوعبد الله محمد بن اسماعيل البخاري (٢٥٦هـ) ط. العامرة. مصر ١٢٨٦هـ.

(١١) صحيح مسلم : مطبوع مع شرح النووى : مسلم بن الحجاج النيسابورى (٢٦١هـ) ط. المصرية ومكتبتها ١٣٤٩هـ.

(١٢) سنن الترمذى : محمد بن عيسى بن سورة الترمذى (٢٧٥هـ) ط. الصاوى. مصر ١٣٥٣هـ.

(١٣) سنن أبى داود : أبو داود سليمان بن الأشعث السجستانى (٢٧٥هـ) ط. هندية حديثة.

(١٤) نوادر الأصول : محمد بن على بن الحسين الحكيم الترمذى (٢٨٥هـ) ط. العثمانية.

(١٥) سنن الدارقطنى : على بن عمر الدارقطنى (٣٨٥هـ) ط. دار المحاسن. مصر (١٣٨٦)هـ.

(١٦) السنن الكبرى : أبوبكر أحمد بن الحسين البيهقى (٤٨٥هـ) ط. دائرة المعارف العثمانية ١٣٤٤هـ.

(١٧) النهاية فى غريب الحديث والأثر : المبارك بن محمد بن الأثير (٦٠٦هـ) ط. العثمانية ١٣١١هـ.

(١٨) شرح النووي على صحيح مسلم : يحيى بن شرف النووى (٦٧٦هـ) ط. المصرية ومكتبتها.

(١٩) فتح الباري شرح صحيح البخارى : أحمد بن حجر العسقلانى (٨٥٢هـ) ط. البهية. مصر ١٣٤٨هـ.

(٢٠) نيل الأوطار : محمد بن على الشوكانى (١٢٥٥هـ) ط. العثمانية.

(٢١) حاشية عون المعبود : أبو الطيب شمس الحق العظيم ابادى (١٣٢٠هـ) ط. هندية حديثة.

(٢٢) التعليق المغنى على سنن الدارقطنى : أبو الطيب شمس الحق العظيم ابادى (١٣٢٠هـ) دار المحاسن.

ثالثا : كتب الفقه الإسلامى :

(أ) الفقه الحنفي :

(٢٣) المبسوط : محمد بن أحمد بن سهل السرخسى (٤٣٨هـ) ط. السعادة. مصر ١٣٢٤هـ.

(٢٤) بدائع الصنائع : علاء الدين بن مسعود الكاسانى (٥٨٧هـ) ط. المطبوعات العلمية. مصر ١٣٢٧هـ.

(٢٥) الاختيار لتعليل المختار : أبو الفضل عبد الله بن محمود الموصلى (٦٨٣هـ) ط . السعادة . مصر ١٣٧٦هـ .
(٢٦) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق : فخر الدين عثمان بن على الزيلعى (٧٤٢هـ) ط . الأميرية ١٣٧٦هـ .
(٢٧) الفوائد الطرسوسية : نجم الدين ابراهيم بن على الطرسوسى (٧٥٨هـ) ط . الشرق . مصر ١٣٤٤هـ .
(٢٨) جامع الفضولين : أبوبكر على المعروف بالحدادى (٨٠٠هـ) ط . الخيرية . مصر ١٣٢٢هـ .
(٢٩) معين الحكام : علاء الدين الطرابلسى (٨٤٤هـ) ط . الأميرية بولاق ١٣٠٠هـ .
(٣٠) فتح القدير : كمال الدين بن الهمام (٨٦١هـ) ط . الأميرية ١٣١٥هـ .
(٣١) البحر الرائق : ابراهيم بن نجيم المصرى (٩٧٠هـ) ط . دار المعرفة . بيروت .
(٣٢) الأشباه والنظائر : ابراهيم بن نجيم المصرى (٩٧٠هـ) ط . العامرة . مصر ١٢٩٠هـ .
(٣٣) حاشية ابن عابدين : محمد أمين الشهير بابن عابدين (١٢٥٢هـ) ط . العثمانية ١٣٢٥هـ .
(٣٤) رسائل ابن عابدين : محمد أمين ابن عابدين (١٢٥٢هـ) ط . العثمانية .
(٣٥) مجلة الأحكام العدلية : لجنة من العلماء (١٢٩٨هـ) ط . العثمانية .

(ب) **الفقه المالكي :**

(٣٦) بداية المجتهد ونهاية المقتصد : أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد (٥٩٥هـ) ط . البابى الحلبى ١٣٧٩هـ .
(٣٧) الفروق : أحمد بن أدريس القرافى (٦٨٤هـ) دار احياء الكتب العربية ١٣٤٦هـ .
(٣٨) قوانين الأحكام الشرعية : أبو القاسم محمد بن جزى (٧٤١هـ) دار العلم للملايين . بيروت .
(٣٩) مختصر خليل : خليل بن إسحاق بن موسى (٧٧٩هـ) مع الشرح الكبير للدردير .

(٤٠) تبصرة الحكام : ابراهيم بن فرحون (٧٩٩هـ) ط. البهية. مصر ١٣٠٢هـ.
(٤١) مواهب الجليل : محمد بن عبد الرحمن الحطاب (٩٥٤هـ) ط. السعادة مصر ١٣٢٩هـ.
(٤٢) شرح مختصر خليل: أبو عبد الله الخرشي (١١٠١هـ) ط. الأميرية ١٣١٧هـ.
(٤٣) الشرح الكبير ـ هامش حاشية الدسوقى ـ أحمد بن محمد الدردير (١٢٠١هـ.
(٤٤) حاشية الدسوقى : محمد بن عرفة الدسوقى (١٢٣٠هـ) ط. السعادة. مصر ١٣٢٩هـ.

(ج) **الفقه الشــــافعى** :

(٤٥) الأم : أبو عبد الله محمد بن أدريس الشافعى (٢٠٤هـ) ط. الفنية.
(٤٦) مختصر المزنى ـ هامش الأم : إسماعيل بن يحيى المزنى (٢٦٤هـ).
(٤٧) المهدى : إبراهيم بن على الشيرازى (٤٧٦هـ) ط. البابى الحلبى ١٣٤٣هـ.
(٤٨) مغنى المحتاج : محمد الشربينى الخطيب (٩٧٧هـ) ط. البابى الحلبى ١٣٧٧هـ.
(٤٩) نهاية المحتاج : محمد بن أبى العباس الرملى ١٠٠٤هـ.

(د) **الفقه الحنبلــــي** :

(٥٠) المغنى : عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسى (٦٢٠هـ) ط. دار المنار ١٣٦٧هـ.
(٥١) السياسة الشرعية تقى الدين أبو العباس بن تيمية (٧٢٨هـ) دار الكتاب العربى.
(٥٢) مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٨هـ) ط. كردستان.
(٥٣) اعلام الموقعين محمد بن قيم الجوزية (٧٥١هـ) ط. الجيل. بيروت.
(٥٤) الطرق الحكمية : محمد بن قيم الجوزية (٧٥١هـ) ط. مصر.
(٥٥) كشاف القناع : منصور بن يونس البهوتى (١٠٥١هـ) ط. أنصار السنة.

الفقه الظاهــــري :

(٥٦) المحلــــى : أبو محمد على بن أحمد بن حزم (٤٥٦هـ) ط. الامام. مصر.

رابعا : كتب أصول الفقه الإسلامى :

(٥٧) المستصفى من علم الأصول : أبو حامد الغزالى (٥٠٥هـ) ط. الأميرية ١٣٢٢هـ.
(٥٨) كشف الأسرار : عبد العزيز البخاري (٧٣٠هـ) ط. العثمانية.
(٥٩) الموافقات : إبراهيم بن موسى الشاطبى (٧٩٠هـ) ط. السلفية ١٣٤١هـ.
(٦٠) علم أصول الفقه : عبد الوهاب خلاف. ط. النصر.

خامسا : اللغة والتراجم :

(٦١) لسان العرب : محمد بن مكرم بن منظور (٧١١هـ) ط. الأميرية ١٣٠٠هـ.
(٦٢) التعريفات : على بن محمد السيد الجرجانى (٨١٦هـ) ط. البابى الحلبى ١٣٥٧هـ.
(٦٣) تاج العروس شرح القاموس : محمد بن محمد مرتضى الزبيدى (١٢٠٥هـ) ط. الخيرية ١٣٠٦هـ.
(٦٤) الاعلام : خير الدين الزركلى ط. بيروت.

سادسا : مؤلفات حديثة :

(٦٥) طرق القضاء فى الشريعة الإسلامية: أحمد إبراهيم ط. السلفية مصر ١٣٤٧هـ.
(٦٦) التعليق على نصوص قانون الإثبات : أحمد أبو الوفا ط. منشأة المعارف.
(٦٧) علم القضاء : أحمد الحصرى.
(٦٨) أصول المرافعات الشرعية : أنور العمروسى.
(٦٩) دروس فى قانون الإثبات : عبد الودود يحيى ط. دار النهضة العربية.
(٧٠) مباحث فى المرافعات الشرعية : محمد زيد الابيانى ط. عبد الله الكتبى. مصر.
(٧١) من طرق الإثبات فى الشريعة والقانون : محمد البهى. ط. دار الفكر العربى.

* * *

تحقيق جزء الضعفاء والمتروكين

«للإمام الدارقطني»

٣

د. عبد الرحيم محمد القشقري

أستاذ مساعد بكلية الحديث الشريف بالجامعة

حرف الغين

(٤٢٥) غياث بن ابراهيم كوفى عن العالم[١].

(٤٢٦) غياث بن كلوّب له نسخة عن مطرف بن سمره بن جندب لا يعرف إلا به ويروى عن شريك.

(٤٢٧) غالب بن عبيد الله الجزرى عن عطاء والزهرى وأبى إسحاق.

(٤٢٨) غانم بن الأحوص حجازى عن أبى صالح السمان.

(٤٢٩) غطيف[٢] بن أعين كوفى عن مصعب بن سعد.

(٤٣٠) غطيف الجزرى ويقال الطائفى روى عنه أسد بن عمرو البجلي ويروى عنه القاسم بن مالك فيقول روح بن غطيف. هو. هو.

حرف الفاء

(٤٣١) فايد بن عبد الرحمن أبو الورقاء كوفى عن ابن أبى أوفى ومحمد بن المنكدر[٣].

(٤٣٢) فرات بن السائب جزرى عن ميمون بن مهران وأبى إسحاق[٤].

(٤٣٣) فرقد بن يعقوب السبخى أبو يعقوب بصرى عن مرة الطيب والنخعى[٥].

---

(١) قال الذهبى: تركوه ديوان ٢٤٥.

(٢) قال الحافظ: ويقال بالضاد المعجمة. تقريب التهذيب ٢٧٤.

(٣) قال ابن حجر: متروك اتهموه من صغار الخامسة ـ ت ق ـ تقريب التهذيب ٢٧٤.

(٤) قال البخارى: تركوه منكر الحديث. التاريخ الكبير ٤/١/١٣٠.

(٥) قال الذهبى: وثقه ابن معين وقال أحمد ليس بقوى وقال الدارقطنى ضعيف، ديوان ٢٤٧.

(٤٣٤) فهد بن حيان بصرى عن شعبه وأبى عوانه[١].
(٤٣٥) فهد بن عوف أبو ربيعه ويقال زيد. بصرى. عن حماد بن زيد[٢].
(٤٣٦) فطر بن محمد العطار الأحدب. حدثوا عنه. كذاب.

حرف القاف

(٤٣٧) قاسم بن عبد الله بن عمر العمرى عن أبيه وعمه وعبد الله بن دينار.
(٤٣٨) قاسم بن ابراهيم الملطى عن مالك يكذب[٣].
(٤٣٩) قاسم بن أبى شيبه عن البصريين والكوفيين[٤].
(٤٤٠) قاسم بن محمد بن حماد الدلال كوفى.
(٤٤١) قزعة بن سويد البصرى يغلب عليه الوهم.

حرف الكاف

(٤٤٢) كثير بن سليم بصرى عن أنس.
(٤٤٣) كثير بن عبد الله الأبلى أبو هاشم عن أنس[٥].
(٤٤٤) كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزنى عن أبيه عن جده.
(٤٤٥) كثير بن مروان المقدسى عن إبراهيم بن أبى عبله.
(٤٤٦) كوثر بن حكيم الحلبى عن نافع.

حرف اللام

(٤٤٧) لوط بن يحي الكوفى أبو مخنف إخبارى. ضعيف.

---

(١) قال الذهبى: ضعفوه. ديوان ٢٥٠.
(٢) قال ابن المدينى كذاب. ديوان ٢٥٠.
(٣) فى أصل المخطوط قاسم بن ابراهيم المطلى والتصويب من ميزان الاعتدال ٣/٣٦٧.
(٤) قال الذهبى: القاسم بن محمد بن أبى شيبه أخو أبى بكر. ديوان ٢٥٢.
(٥) قال الذهبى: ذهب ابن حبان إلى أن هذا وكثير بن سليم واحد. وليس هذا بشىء. ميزان الاعتدال ٣/٤٠٦.

حرف الميم

(٤٤٨) محمد بن عبد الله بن عبيد بن عمير مكى[1].

(٤٤٩) محمد بن عبيد الله بن أبى رافع عن أبيه. وزيد بن اسلم. وعطاء، والحكم، وعبيد الله هذا. ليس بصاحب على. ذاك عبيد الله بن على بن أبى رافع.

(٤٥٠) محمد بن عبيد الله بن أبى سليمان العزرمى. وهو ابن أخى عبد الملك بن أبى سليمان.

(٤٥١) محمد بن عبد الرحمن. أبو جابر البياضي عن ابن المسيب.

(٤٥٢) محمد بن عبد الرحمن بن البيلمانى. يمانى. عن أبيه وأبوه يعتبر به.

(٤٥٣) محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر المليكى القرشى الجدعانى عن جعفر بن محمد، وعبيد الله بن عمر، وأبن أبى مليكة[2].

(٤٥٤) محمد بن عبد الرحمن بن أبى لبيبه. مراسيل. عن سعد وابن عمر[3].

(٤٥٥) محمد بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف عن. أبى الزناد، والزهرى.

(٤٥٦) محمد بن عبد الملك الأنصارى. مدنى. عن نافع والزهرى وابن المنكدر.

(٤٥٧) محمد بن حجاج المصفر بغدادى. عن شعبة ومالك.

(٤٥٨) محمد بن حجاج اللخمى. الواسطى. يكذب. عن عبد الملك بن عمير ومجالد.

(٤٥٩) محمد بن حجاج بن سويد البرجمى كوفى عن هشام بن عروة. من الشيعة.

(٤٦٠) محمد بن سعيد بن أبى قيس المصلوب شامى عن عبادة بن أنسي، والزهرى، واسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر[4].

(٤٦١) محمد بن سالم أبو سهل كوفى عن الشعبى والحكم.

(٤٦٢) محمد بن كريب مدنى عن أبيه.

---

(١) قال الذهبى: تركوه واجمعوا على ضعفه وهو محمد المحرم ديوان ٢٧٦.

(٢) فى أصل المخطوط محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر المكى والتصويب من كتب الرجال. أنظر ميزان الاعتدال ٦١٩/٣، ديوان ٢٧٩.

(٣) قال ابن حجر: محمد بن عبد الرحمن بن لبيبه بفتح اللام وكسر الموحده وسكون التحتانية وفتح الموحدة الأخرى. ويقال ابن أبى لبيبة. تهذيب التهذيب ٣٠١/٩، تقريب التهذيب ٣٠٨.

(٤) قال الذهبى: كذاب صلب فى الزندقة اخرجه البخارى فى أماكن من تاريخه لاختلافهم فى اسمه ونسبه وتقلب اسمه على وجوه. ديوان ٢٧٣.

(٤٦٣) محمد بن عثيم أبو ذر عن ابن البيلماني .
(٤٦٤) محمد بن عون الخراساني سكن الكوفة عن نافع وسعيد بن جبير .
(٤٦٥) محمد بن زياد الميموني[١] .
(٤٦٦) محمد بن مهران يكذب[٢] .
(٤٦٧) محمد بن السائب الكلبي .
(٤٦٨) محمد بن زاذان شامي . عن محمد بن المنكدر وأم سعد الأنصارية . هي لا تُعرف إلا به .
(٤٦٩) محمد بن زيد العبدي بالبصرة عن أبي الأعين وسعيد بن جبير .
(٤٧٠) محمد بن مروان السدي أبو عبد الرحمن كوفي . مصنف . عن عبيد الله بن عمر ويزيد بن أبي زياد .
(٤٧١) محمد بن معاوية النيسابوري حدث ببغداد ثم بمكة وليس هو ابن مالح ، ابن صالح ثقة[٣] .

(٤٧٢) محمد بن كثير القصاب السلمي بصري . وقال يحي بن معين ثقة عن يونس ابن عبيد .
(٤٧٣) محمد بن الحسن بن زباله . مدني . عن مالك ، وسليمان بن بلال .
(٤٧٤) محمد بن الحسن بن آتش صنعاني .
(٤٧٥) محمد بن الفضاء المعبر بصري عن أبيه عن علقمه بن عبد الله عن أبيه . لا يعرفون إلا به[٤] .
(٤٧٦) محمد بن فرات كوفي عن أبي إسحاق وعبد الله بن الحسن .
(٤٧٧) محمد بن عمر الواقدي مختلف فيه . فيه ضعف بين في حديثه[٥] .
(٤٧٨) محمد بن القاسم الأسدي . أبو إبراهيم . كوفي يكذب . عن الثوري ، والأوزاعي .

---

(١) هو محمد بن زياد اليشكري الميموني الطحان . ميزان الاعتدال ٣/٥٥٢ .
(٢) قال الذهبي : محمد بن مسلم ويقال محمد بن مهران بن مسلم بن المثنى ، ميزان الاعتدال ٤/٣٦ .
(٣) قال الذهبي محمد بن معاوية النيسابوري وهو محمد بن معاوية ابن أعين الهلالي يكنى أبا علي . **وقال ابن حجر. ابن مالح** بميم وجيم واسم جدة يزيد الأنماطي . وأبو جعفر البغدادي صدوق ربما وهم . **أنظر ميزان الاعتدال ٣/٤٤ ، تقريب التهذيب ٣١٩ .**
(٤) محمد بن فضا بفتح الفاء والمعجمة مع المد . تقريب التهذيب **٣١٥** .
(٥) في أصل المخطوط محمد بن عبد الله والصواب ما هو مثبت قال ابن حجر : متروك مع سعة علمه **من التاسعة ـ ق ـ تقريب** التهذيب **٣١٢** .

(٤٧٩) محمد بن ذكوان بصري. خال ولد حماد بن زيد، يروى عن عمرو بن دينار وابن المنكدر ومجالد.

(٤٨٠) محمد بن أبي حميد ويقال حماد. مدني، عن ابن المنكدر، ونافع، وزيد بن أسلم.

(٤٨١) محمد بن يحي الزهري. أبو غَزِيّه مدني عن عبد الوهاب بن موسى يضع.

(٤٨٢) محمد بن الفضل بن عطية الخَراساني ضعيف عن أبي إسحاق ومنصور من المتأخرين.

(٤٨٣) محمد بن زكريا الغلابي بصري يضع.

(٤٨٤) محمد بن عيسى بن حيان المدايني[١]. عن ابن عيينه ومحمد بن الفضل بن عطية.

(٤٨٥) محمد بن عبد بن عامر. طواف. في البلدان يكذب ويضع[٢].

(٤٨٦) محمد بن يونس بن موسى الشامي الكديمي[٣].

(٤٨٧) محمد بن ابراهيم بن زياد الرازي.

(٤٨٨) محمد بن عكاشة الكرماني. بصري يضع الحديث.

(٤٨٩) محمد بن عكاشة. كوفي. ضعيف.

(٤٩٠) محمد بن عبد الرحمن بن غزوان. هو ابن زيد، متروك بغدادي.

(٤٩١) محمد بن أيوب بن سويد الرملي. ضعيف.

(٤٩٢) محمد بن عبد الله بن نمران. ضعيف.

(٤٩٣) محمد بن عيسى الهذلي. ضعيف. يروى عن محمد بن المنكدر يكنى أبا يحي.

(٤٩٤) محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن ثابت الأشناني كذاب دجال(   )[٤] يضع الأحاديث.

(٤٩٥) محمد بن هارون بن عيسى بن بُرَيْه. الهاشمي.

(٤٩٦) معبد الجهني. قدري. عن حمران.

---

(١) هنا عبارة لم أتبينها ولم أجدها في كتب الرجال.

(٢) أنظر ميزان الاعتدال ٣/٦٣٣.

(٣) قال الذهبي: سئل عنه الدارقطني فقال: يهتم بوضع الحديث. وما أحسن فيه القول **إلا من لم يخبر حاله. ميزان** الاعتدال ٤/٧٥.

(٤) هنا عبارة غير واضحة. وأنظر تاريخ بغداد ٥/٤٣٩.

(٤٩٧) محرر بن هارون بن عبد الله التيمى . الهديرى . مدنى عن الأعرج عن أبيه لا يعرف إلا به[١] .

(٤٩٨) مبارك بن سحيم أبو سحيم بصرى . مولى عبد العزيز بن صهيب[٢] .

(٤٩٩) مبشر بن عبيد الحمصى . يكذب . عن الزهرى ، وزيد بن أسلم وحجاج إبن أرطأه .

(٥٠٠) مهدى بن هلال . يضع عن هشام بن عروه . وجعفر .

(٥٠١) مينا . مولى عبد الرحمن بن عوف عن ابن مسعود .

(٥٠٢) مطير بن خالد . وقيل ، مطر الاسكاف عن أنس .

(٥٠٣) معلى بن عرفان . كوفى . عن أبى وائل .

(٥٠٤) معلى بن هلال بن سويد الطحان . كوفى يكذب . عن أبى إسحاق وعبيد الله بن عمر . يروى عنه الحماني فيقول على بن سويد . ويروى فروة بن أبى المغراء فيقول عبد الله بن عبد الرحمن ويروى عنه غيرهما فيقول أبو عبد الله الطحان[٣] .

(٥٠٥) معلى بن عبد الرحمن . واسطى . عن شريك ، وعبد الحميد بن جعفر[٤] .

(٥٠٦) مسعده بن اليسع باهلى ، بصرى . عن جعفر بن محمد ، وابن جريج ومحمد ابن عمرو .

(٥٠٧) مسيب بن شريك . كوفى . أبو سعيد عن الأعمش وعبيد الله بن عمر وهشام ابن عروه . روى عنه إسحاق بن بهلول فقال أبو سعيد الشقرى . وروى عنه على بن الجعد فقال أبو سعيد . ضعيف[٥] .

(٥٠٨) مسور بن الصلت . مدنى عن نافع وابن المنكدر وزيد بن أسلم .

(٥٠٩) ميسره بن عبد ربه بغدادى . عن زيد بن أسلم كتاب العقل لداود بن المحبر تصنيفه[٦] .

(٥١٠) معاوية بن يحي الصدفى يكتب ما روى الهقل عنه ويتجنب ما سواه خاصة ما روى عنه إسحاق بن سليمان الرازى .

---

(١) قال ابن حجر : محرر برأيين وزن محمد على الصحيح . تقريب التهذيب ٣٢٩ .

(٢) مبارك بن سحيم بمهملتين مصغرا . تقريب التهذيب ٣٢٧ .

(٣) أنظر تهذيب التهذيب ١٠ / ٢٤٠ .

(٤) قال الذهبى : قال الدارقطنى كذاب ديوان ٣٠٤ .

(٥) أنظر لسان الميزان ٦ / ٣٨ .

(٦) قال الخطيب البغدادى : روى عنه شعيب بن حرب المدائنى خطبة الوداع . وداود بن المحبر بن قحذم أحاديث باطلة فى كتاب العقل . تاريخ بغداد ١٣ / ٢٢٢ .

(٥١١) معاوية بن عمر أبو مطيع الاطرابلسى . روى عنه الوليد بن مسلم وشعبة وهشام بن عروة وعلى بن عياش .

(٥١٢) موسى بن مطير كوفى . عن أبيه ، وعاصم بن بهدله . وموسى بن طلحة . ومطير أبوه لا يعرف إلا به .

(٥١٣) موسى بن عمير أبو هارون الجعدى المخزومى . مولى بنى جعده بن هبيرة عن الحكم وأبى إسحاق .

(٥١٤) موسى بن سعد أبو على الحنفى . حديث منكر عن الحكم فقال حدثنا أبو هارون الشامى(١) .

(٥١٥) موسى بن عمير العنبرى . ثقة عن علقمة بن وائل بن حجر(٢) .

(٥١٦) موسى بن عبيدة الربذى . لا يتابع على حديثه . وأخوه عبد الله صالح .

(٥١٧) موسى بن محمد بن ابراهيم بن الحارث التيمى . عن أبيه والزهرى، ومجاهد .

(٥١٨) موسى بن دينار مكى عن هشام .

(٥١٩) موسى بن طريف كوفى . عن عباية بن ربعى . متروك .

(٥٢٠) موسى بن عمير العنبرى عن عبد الجبار وأبى وائل بن حجر(٣) .

(٥٢١) موسى بن سهل ألوشاء عن اسماعيل بن عليه حدثونا عنه هو غير موسى بن سهل بن عبد الحميد الجونى . والجونى صالح الحديث .

(٥٢٢) موسى بن دهقان حدثونا عنه بصرى عن ابن كعب بن مالك .

(٥٢٣) موسى بن محمد بن عطاء المقدسى أبو طاهر عن مالك والموقرى .

(٥٢٤) مغيرة بن سعيد الكوفى . دجال . أحرق بالنار زمن النخعى أدعى النبوة(٤) .

(٥٢٥) مسلمة بن على الخشنى عن الأوزاعى، وهشام بن عروة وعبيد الله بن عمر .

(٥٢٦) مقاتل بن سليمان . خراسانى . يكذب .

(٥٢٧) ميمون أبو حمزة القصاب الأعور . كوفى عن النخعى والحسن .

---

(١) أنظر لسان الميزان ٧/١١٦ .

(٢) وثقه ابن معين وأبو حاتم والعجلى . تهذيب التهذيب ١٠/٣٦٤.

(٣) أنظر الترجمة السابقة . ولعل هذا التكرار سبق قلم من الناسخ .

(٤) قال الجوزجانى قتل المغيرة على ادعاء النبوة كان اشعل النيران بالكوفة على التمويه والشعبذه حتى اجابه خلق . ميزان الاعتدال ٤/١٦١ .

(٥٢٨) مروان بن سالم الجزرى. قرقسانى . عن عبد الملك بن أبى سليمان والزهرى . (قال البرقانى استدركت من هنا إلى آخره من كتاب غيري).

(٥٢٩) مطر بن ميمون المحاربى .

(٥٣٠) مطرح بن يزيد. شامى .

(٥٣١) مجالد بن سعيد. كوفى . ليس بقوى .

(٥٣٢) المثنى بن الصباح مكى .

(٥٣٣) مجاشع بن عمرو .

(٥٣٤) منذر بن زياد الطائى .

(٥٣٥) معارك بن عباد عن عبد الله بن سعيد المقبرى .

حرف النون

(٥٣٦) ناصح بن عبد الله أبو عبد الله كوفى. عن سماك بن حرب .

(٥٣٧) ناصح بن العلاء أبو العلاء بصري. عن عمار بن أبى عمار .

(٥٣٨) نوح بن أبى مريم أبو عصمه .

(٥٣٩) نوح بن دراج. كوفى .

(٥٤٠) النضر بن عبد الرحمن الخزاز. كوفى. عن عكرمه .

(٥٤١) النضر بن سلمه. شاذان .

(٥٤٢) النضر بن مِطْرَق كوفى أبا لينه .

(٥٤٣) نصر بن طريف أبو جزى .

(٥٤٤) نصر بن باب. خراسانى .

(٥٤٥) نصر بن حماد. أبو الحارث الوراق. عن شعبه .

(٥٤٦) نصر بن مزاحم المنقرى. كوفى .

(٥٤٧) نفيع بن الحارث أبو داود الأعمى. كوفى .

(٥٤٨) نافع. أبو هرمز بصرى عن أنس وعطاء(١).

(٥٤٩) نجيح. أبو معشر(٢).

(٥٥٠) نهشل بن سعيد، خراسانى .

---

(١) قال الذهبى : نافع بن هرمز أبو هرمز وسماه العقيلى نافع بن عبد الواحد. ميزان الاعتدال ٢٤٣/٤ .

(٢) قال الذهبى : نجيح أبو معشر السندى الهاشمى مولاهم المدنى صاحب المغازى. ميزان الاعتدال ٢٤٦/٤ .

(٥٥١) نعيم بن المورع بن توبه . عن الأعمش، وهشام بن عروه .
(٥٥٢) نوفل بن سليمان الهنائى . حجازى .

حرف الـــــواو

(٥٥٣) واقد بن سلامه مدنى . وقيل وافد بالفاء عن يزيد الرقاشى[١] .
(٥٥٤) واصل بن السائب الرقاشى . كوفى .
(٥٥٥) وازع بن نافع العقيلى . جزرى .
(٥٥٦) وهب بن وهب أبو البخترى . بغدادى . كذاب .
(٥٥٧) وليد بن محمد الموقرى . شامى[٢] .
(٥٥٨) وليد بن العباس بن مسافر . الخولانى . مصرى .
(٥٥٩) وليد بن وليد الدمشقى عن ابن ثوبان . وسعيد بن بشير .

حرف الهـــاء

(٥٦٠) هشام بن زياد أبو المقدام بصرى عن محمد بن كعب . وهشام بن عروه وأخوه الوليد ثقة .
(٥٦١) هشام بن محمد بن السائب الكلبى عن أبى مخنف ومجاهد[٣] .
(٥٦٢) هيثم بن جماز البكاء بصرى .
(٥٦٣) هيثم بن عدى الطائى .
(٥٦٤) هيثم بن عبد الغفار بصرى .
(٥٦٥) هذيل بن بلال المدائنى يكنى أبا البهلول .
(٥٦٦) هارون بن هارون مدنى[٤] .
(٥٦٧) هارون بن حيان الرقى عن ابن المنكدر وليث بن أبى سليم .
(٥٦٨) هارون بن دينار[٥] .

---

(١) قال الذهبى : وافد بالفاء أو بقاف . ضعفوه . ميزان الاعتدال ٤ / ٣٣٠ .
(٢) قال الذهبى : الوليد بن محمد الموقرى صاحب الزهرى يكنى أبا بشير البلقاوى مولى بنى أمية . والموقر حصن بالبلقاء . ميزان الاعتدال ٤ / ٣٤٦ .
(٣) قال الذهبى : النسابة العلامه وقيل أن تصانيفه أزيد من مائة وخمسين مصنفا . ميزان الاعتدال ٤ / ٣٠٤ .
(٤) هارون بن هارون بن عبد الله بن محرز بن الهدير أخو محرز ابن هارون . ميزان الاعتدال ٤ / ٢٨٧ .
(٥) قال الذهبى : شيخ بصرى . ضعفه الدارقطنى وغيره . ميزان الاعتدال ٤ / ٢٨٣ .

حرف الياء

(٥٦٩) يحي بن عبيد الله بن موهب عن أبيه .

(٥٧٠) يحي بن أبى أنيسه الجزرى .

(٥٧١) يحي بن مسلم البكاء بصرى. عن ابن عمر .

(٥٧٢) يحي بن سلمة بن كهيل .

(٥٧٣) يحي بن عقبة بن أبى العيزار .

(٥٧٤) يحي بن أبى حيه . أبو جناب الكلبى[١] .

(٥٧٥) يحي بن سعيد المدينى . التميمى وهو الفارسي قاضى شيراز عن الزهرى وهشام بن عروة .

(٥٧٦) يحي بن كثير أبو النضر . بصرى ضعيف . عن أيوب ، وسليمان التيمى وعامر الأحول ، وعطاء بن السايب ، وداود بن أبى هند .

(٥٧٧) يحي بن العلاء الرازى البجلى .

(٥٧٨) يحي بن ميمون بن عطاء أبو أيوب التمار بصرى .

(٥٧٩) يحي بن بسطام بن حريث بصرى .

(٥٨٠) يحي بن هاشم السمسار . أبو زكريا . كان ببغداد .

(٥٨١) يحي بن عمرو بن مالك . بصرى .

(٥٨٢) يحي بن راشد . بصرى .

(٥٨٣) يحي بن سالم . كوفى .

(٥٨٤) يحي بن ثعلبه أبو المقوم[٢] .

(٥٨٥) يحي بن عنبسه بغدادى كذاب .

(٥٨٦) يزيد بن عياض بن جعدبه . مكى[٣] .

(٥٨٧) يزيد بن سنان أبو فروة الرهاوى .

(٥٨٨) يزيد بن ربيعة أبو كامل الرحبى . من صنعاء دمشق .

(٥٨٩) يزيد بن سفيان أبو المهزم بصرى ضعفه شعبه[٤] .

---

(١) يحي بن أبى حيه بمهملة وتحتانية أبو جناب بجيم ونون خفيفتين . تقريب التهذيب ٣٧٤ .

(٢) أنظر ميزان الاعتدال ٢٦٧/٤ .

(٣) يزيد بن عياض بن جُعدبه بضم الجيم والمهملة بينهما مهملة ساكنة . تقريب التهذيب ٣٨٤ .

(٤) أبو المهزم بتشديد الزاى المكسورة اسمه يزيد وقيل عبد الرحمن . تقريب التهذيب ٤٢٨ .

(٥٩٠) يزيد بن عبد الملك بن المغيرة بن نوفل مدنى .
(٥٩١) يزيد بن إبان الرقاشي عن أنس .
(٥٩٢) يزيد بن بيان المعلم .
(٥٩٣) يزيد بن يوسف الشامى .
(٥٩٤) يزيد بن عطاء مولى أبى عَوانه واسطى .
(٥٩٥) يعقوب بن الوليد مدنى .
(٥٩٦) يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه .
(٥٩٧) يوسف بن السفر أبو الفيض عن الأوزاعى روى عنه عبد الله بن عمران العابدى فقال يوسف بن الفيض شامى[١] .
(٥٩٨) يوسف بن خالد السمتى بصرى .
(٥٩٩) يوسف بن عطية الصفار أبو سهل بصرى .
(٦٠٠) يوسف بن عطية الوراق كوفى أبو المنذر .
(٦٠١) يوسف بن ميمون الصباغ كوفى . عن عطاء .
(٦٠٢) يونس بن خباب كوفى سىء المذهب[٢] .
(٦٠٣) يعلى بن الأشدق .
(٦٠٤) ياسين بن معاذ أبو خلف الزيات كوفى .
(٦٠٥) يمان بن المغيره أبو حذيفه العنزى بصرى[٣] .
(٦٠٦) يمان أبو حذيفة . وقيل ابن حذيفه . بصرى .
(٦٠٧) يمان بن سعيد . أبو رضوان شامى .
(٥٠٨) يمان بن عدى أبو عدى الحضرمى ضعيف .
(٦٠٩) يمان بن رئاب خراسانى يرى رأى الخوارج .

الكنـــى

(٦١٠) أبوبكر بن عبد الله بن أبى سبره مدينى[٤] .

---

(١) أنظر ميزان الاعتدال ٤/٤٦٦ .

(٢) ما بين القوسين كلمة غير واضحة وقد وجدت ترجمة هذا الرجل فى ميزان الاعتدال وتهذيب التهذيب وعثرت فيهما على قول الدارقطنى ونصه : «كان رجل سوء فيه شيعية مفرطه كان يسب عثمان» أنظر ميزان الاعتدال ٤/٤٧٩ ، تهذيب التهذيب ١١/٤٣٨ .

(٣) جعل الذهبى هذه الترجمة وما بعدها لرجل واحد . ميزان الاعتدال ٤/٤٦٠ .

(٤) قيل اسمه عبد الله وقيل محمد . تقريب التهذيب ٣٩٦ .

(٦١١) أبو حامد الحنفى مجهول .
(٦١٢) أبو داود النخعى كذاب رماه أحمد بن حنبل بالكذب .
(٦١٣) أبو كرز القرشى مجهول[١] .
(٦١٤) أبو ناشرة مجهول .
(٦١٥) أبو سورة مجهول يروى عن أبى أيوب الأنصارى[٢] .
(٦١٦) أبو ادام كوفى سليمان بن زيد المحاربى عن ابن أبى أوفى ضعيف .
(٦١٧) أبو همدان . القاسم بن بهرام قاضى هيت متروك .
(٦١٨) أبو توبة القاص بصرى ضعيف .
(٦١٩) أبو سفيان الصوفى . ويقال العوفى . قال الدارقطنى ليس أعرفه .
(٦٢٠) أبو حماد الكوفى الحنفى المفضل بن صدقه ليس بالقوى .
(٦٢١) أبو حفص العبدى عمر بن حفص ضعيف .
(٦٢٢) أبو أمية بن يعلى الثقفى ضعيف[٣] .
(٦٢٣) أبو سفيان السعدى طريف ضعيف .
(٦٢٤) أبو عبد السلام مجهول[٤] .
(٦٢٥) أبو صفوان عبد الله بن سعيد بن عبد الملك بن مروان من الثقات عن يونس ابن مالك .
(٦٢٦) سعيد بن مسلمه بن هشام بن عبد الملك ضعيف يعتبر به .
(٦٢٧) ومسلمه بن سعيد بن عبد الملك يعتبر به ضعيف .
(٦٢٨) بقيه يروى عن قوم متروكين مثل .
(٦٢٩) مجاشع بن عمرو[٥] .
(٦٣٠) وعبيد الله بن يحي لا أعرفه ولا أعلم روى عنه غير بقيه .

---

(١) عبد الله بن كرز القرشى لسان الميزان ٩٨/٧ .
(٢) قال الذهبى : يقال أنه ابن أخى أبى أيوب . ميزان الاعتدال ٥٣٥/٤ .
(٣) قال الذهبى : هو اسماعيل . ميزان الاعتدال ٤٩٣/٤ .
(٤) قال الذهبى : قيل اسمه الزبير وقيل أيوب . ميزان الاعتدال ٥٤٨/٤ .
(٥) انظر ميزان الاعتدال ٤٣٦/٣ .

(٦٣١) وعبد الحميد بن السرى الغنوى يروى عن عبيد الله بن عمر يقال له أبو اليسر ضعيف[١].

(٦٣٢) الوليد بن مسلم يرسل، يروى عن الأوزاعى أحاديث الأوزاعى عن شيوخ ضعفاء عن شيوخ قد أدركهم الأوزاعى مثل نافع وعطاء والزهرى فيسقط أسماء الضعفاء ويجعلها عن الأوزاعى عن عطاء يعنى مثل عبد الله بن عامر الأسلمى واسماعيل بن مسلم[٢].

(آخر الكتاب والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما كثيرا) . . . وهو حسبنا ونعم الوكيل. بلغ العرض .

كان الحسن البصرى رحمه الله يقول :

لا يستحق أحد حقيقة الإيمان حتى لا يعيب الناس بعيب هو فيه ولا يأمر بإصلاح عيوبهم حتى يبدأ بإصلاح ذلك من نفسه فإنه إذا فعل ذلك لم يصلح عيباً إلا وجد فى نفسه عيباً آخر ينبغى له أن يصلحه فإذا فعل ذلك شغل نفسه بخاصة نفسه من عيب غيره . . .

وإنك ناظر إلى عملك يوزن خيره وشره، فلا تحقرن شيئاً من الخير وإن صغر، فإنك إذا رأيته سرك مكانه، ولا تحقرن شيئاً من الشر وإن صغر، فإنك إذا رأيته ساءك مكانه . . .

---

(١) قال الذهبى : من المجاهيل. ضعفه الدارقطنى. ميزان الاعتدال ٢/٥٤١.

(٢) قال الذهبى : إذا قال الوليد بن مسلم عن ابن جريج أو عن الأوزاعى فليس بمعتمد لأنه يدلس عن كذابين فإذا قال حدثنا فهو حجة. ميزان الاعتدال ٤/٣٤٨.

الملك عبد العزيز آل سعود بين نصره لله ونصر الله له

للشيخ إبراهيم محمد حسن الجمل
المدرس بالمعهد الثانوى التابع للجامعة

(٣)

كان الملك عبد العزيز دائم الشكر لله سبحانه وتعالى على تأييده له فى كل مواقفه، وكان دائما يفيض فى الحديث بنعمة الله عليه، وبتوفيقه فى جميع أموره، قال رحمه الله :

«التوفيق . . . والتوفيق لا يكون إلا بالله . . . ﴿وما توفيقى إلا بالله﴾ . (هود : ٨٨) . والإنسان بلا توفيق لا يستطيع أن يعمل شيئا . . . نسأل الله أن يوفقنا لما فيه الخير لهذا الوطن العزيز . . . إن توفيق الله هو المقدم والنافذ . . . وأمره بين الكاف والنون ﴿كن فيكون﴾ . (يس : ٨٢) والقدرة وحدها لا تنفع ما لم تكن مؤيدة من الله سبحانه وتعالى . . . نسأل الله التوفيق، وأن ينصر دينه، ويعلى كلمته، ويعز الإسلام والمسلمين .

ونسأله تعالى العناية والتوفيق وإصلاح النية، وأن يوفقنا إلى ما فيه الخير والفلاح»(١) .

ولقد قالوا :

«التوفيق قوة من عالم الغيب، يؤمن بها من تتبع أمثال سيرة عبد العزيز. خطط الحرب فن، والتغلب أو بسط السيطرة فن، والسياسة والإدارة وما إليها من شئون المجتمع، كل منها فن له قواعده ومدارسه. ومن المدارس التجارب والمِران وطول الممارسة. أما «التوفيق» فأمر فوق ذلك كله. لا فائدة له، ولا مدرسة، ولا سابقة ينسج على منوالها .

وفى الناس من يُسعف بالحظ مرة أو مرات، فيقال : قد وُفّق، ولكنه لا يكون «موفقا»

(١) مختارة من كلمات وخطب الملك عبد العزيز (أنظر المصحف والسيف .

مادام يتأرجح أحيانا بين التوفيق ونقيضه . أما الموفق ـ حقا ـ فذلك الذى تجرى الأحداث، أو تكاد تجري متتابعة متجانسة، على وفق غرضه، وعلى مدى مصلحته»[1] .

وإن جليل توفيق الله على الملك عبد العزيز، أن أيده فى كل ما قام به من عمل ؛ فهو سبحانه وتعالى موفقه ومؤيده، ومؤازره فى كل خطوة خطاها، فقد فتح الرياض، وضم الخرج، والمحمل، والشعيب، والوشم، وأنتصر على الأعداء فخلّص القصيم، وفتح الأحساء، وضم عسير، وفتح حائلا، والجوف، وكان توفيق الله فى أسمى صورة حينما ضم الحجاز، ووجه كل اهتمامه وعنايته إلى الحرمين الشريفين .

وهكذا فقد خلّص ـ رحمه الله ـ البلاد والعباد مما دهاهم مئات السنين، واجتمع الناس عليه، فأصبح مسئولا عنهم أمام الله سبحانه وتعالى، فعليه أن يرعى الله فيهم، فيسلك بهم طريق النجاة للدنيا والآخرة .

كان الملك عبد العزيز آل سعود صادقا مع نفسه، وما عاهد الله عليه من التمسك بالمنهج الإلهى، والدستور السماوى القرآن الكريم، وسنة رسول الله ﷺ، وطريق السلف الصالح من الصحابة والتابعين بلا تأويل، أو ابتداع، أو تغيير .

كان أول ما نادى به، إخلاص التوحيد لله، ومما علق به من كل شائبه، وجعله لله وحده، فلا يشرك به، منفردا بالعبادة والقصد .

وهذا هو الأساس المتين الذى يجتمع عليه المسلمون، حتى يثبت الإيمان، ويرسخ فى الصدور، وبعده يهون كل شىء .

﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ . (النساء : ٦١) .

وما ترك ـ رحمه الله ـ مناسبة ولا اجتماعا، دون أن يذكّر الناس بالتوحيد الخالص لله، فهو يعرف أن التوحيد إذا علق به شىء ضعفت النفوس، وأصبح من السهل أن تنقاد لغير الله، قال رحمه الله :

«هذه هى العقيدة التى قام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب يدعو إليها، وهذه هى عقيدتنا، وهى عقيدة مبنية على توحيد الله عز وجل خالصة من كل شائبة، منزهة من كل بدعة، فعقيدة التوحيد هذه، هى التى ندعو إليها، وهى التى تنجينا مما نحن فيه من محن وأوصاب»[2] .

---

(١) شبه الجزيرة فى عهد الملك عبد العزيز. ج٢ ص٥٨١ .

(٢) من خطبة ألقاها جلالته بمكة فى ذى الحجة ١٣٤٧هـ (المصحف والسيف ص٨٥-٨٦).

«إن المسلمين فى خير ماداموا على كتاب الله ، وسنة رسوله ، وما هم ببالغين سعادة الدارين إلا بكلمة التوحيد الخالصة»(١) .

«وقد نصرنا الله بقوة التوحيد الذى فى القلوب ، والإيمان الذى فى الصدور ، ويعلم الله أن التوحيد لم يملك علينا عظامنا وأجسامنا فحسب ، بل ملك علينا قلوبنا وجوارحنا ، ولم نتخذ التوحيد آلة لقضاء مآرب شخصية ، أو لجر مغنم ، وإنما تمسكنا به عن عقيدة وإيمان قوى ، ولنجعل كلمة الله هى العليا»(٢) .

ثم ينطلق الملك عبد العزيز بالدعوة إلى التوحيد من محيط الجزيرة العربية ، فيتخذ موقف الداعى إلى الله ، ليبلغ ما يجب عليه تجاه نشر الدعوة ، فيدعو المسلمين جميعا فى أنحاء الأرض إلى التوحيد الصحيح ، وينطلق بهم إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وحينما يرى المسلمين قد نفذوا ذلك ، واتحدوا على العمل بما يدعو إليه ، سيجدون أنه واحد من المسلمين يسعى لخيرهم ، ويسهر على راحتهم ، لا بصفته ملكا أو زعيما أو أميرا ، بل فرداً من عامة المسلمين ، وليس هو وحده فحسب بل ومعه أولاده وجيشه وقومه ، ثم يشهد الله على قوله وتبليغه للمسلمين فيقول :

«إن المسلمين بخير إذا اتفقوا ، وعملوا بكتاب الله وسنة رسوله . . . ليتقدم المسلمون للعمل بذلك ، فيتفقوا فيما بينهم على العمل بكتاب الله وسنة نبيه ، وبما جاء فيهما ، والدعوة إلى التوحيد الخالص فإننى ـ حينذاك ـ أتقدم إليهم فأسير وإياهم جنبا إلى جنب فى كل عمل يعملونه ، وفى كل حركة يقومون بها . . . والله إنى لا أحب الملك وأبهته ، ولا أبغى إلا مرضاة الله ، والدعوة إلى التوحيد . . . ليتعاهد المسلمون فيما بينهم على التمسك بذلك ، وليتفقوا ، فإننى أسير وقتئذ معهم لا بصفة ملك أو زعيم أو أمير ، بل بصفة خادم . . . أسير معهم أنا وأسرتى وجيشى وبنو قومى ؛ والله على ما أقول شهيد ، وهو خير الشاهدين»(٣) .

ثم يذهب رحمه الله إلى أبعد من ذلك ، فيرى أن كلمة التوحيد الصحيحة ونشرها ، والعمل بها بين المسلمين ، لو تمت على يد أعدائه ، لكان فرحا بذلك ، ولاتحد معهم ، وسار فى طريقهم ، وإن تمت على يده اعتبر ذلك منّة ، وفضلا من الله سبحانه وتعالى .

---

(١) من خطبة ألقاها جلالته بمكة في ذى الحجة ١٣٤٧هـ (المصحف والسيف ص٨٥-٨٦) .

(٢) من خطبة ألقاها جلالته بمكة بمناسبة سفره إلى المنطقة الوسطى من المملكة فى محرم ١٣٤٨هـ (المصحف والسيف ص٨٩) .

(٣) المصحف والسيف ص٨٧ .

«وإنى أجاهد لإعلاء كلمة التوحيد، والحرص عليها، وأحب أن أراها قائمة ولو على يد أعدائى، وإن تمت على يدى فذلك من فضل الله»(١).

* * * * * *

كان رحمه الله فى كل اجتماعاته الخاصة والعامة، بين أهله وخاصته، أو بين أهل البلاد، حينما يلتقى بهم فى كل مناسبة، أو فى اجتماعاته الدولية بين عامة المسلمين، يوصى بالتمسك بالكتاب والسنة، وأن يجتمع الناس عليهما وأن يعملوا بما فيهما، فليس فى الحياة أمر إلا وتعرض له القرآن الكريم ﴿**ما فرطنا فى الكتاب من شىء**﴾ والسنة الشريفة، وليس هناك خصلة مفيدة ونافعة إلا يدعوان إليها. خطب يوما أهل مكة فكان مما قاله :

«ولكن هناك نعمة حقيقية لا تزول، وخزينة لا ينضب معينها، هى الاعتقاد بأن لا إله إلا الله، وهذه النعمة مشروعة فى كل مكان، ولكنها لهذه البقعة المباركة ألزم، لأن الحسنات والسيئات تتضاعف فيها، ولأن الله أختارها لتكون مهبطا للوحى، وجعل زيارة حرمها من أركان الإسلام» .

وقال رحمه الله حينما جاء إلى المدينة المنورة، وسلم على رسول ﷺ، وصلى بالمسجد النبوي، ثم خطب الناس فكان مما قاله :

«وإن خطتى التى سرت، ولا أزال أسير عليها، هى إقامة الشريعة السمحاء، كما أننى أرى من واجبى ترقية جزيرة العرب، والأخذ بالأسباب التى تجعلها فى مصاف البلاد الناهضة، مع الاعتصام بحبل الدين الإسلامى الحنيف» .

وخطب يوما فى حجاج بيت الله الحرام فقال فى خطبة طويلة :

«والمقصود من هذا الاجتماع هو أن نحدد اسم الإسلام، ونعمل بمعناه، والإسلام معناه : الاستسلام لله تعالى، والطاعة له، والإيمان بكتابه ورسله، وقواعد الإسلام قائمة على كتاب الله، وسنة رسوله، وأعمال الخلفاء الراشدين، وما اتفق عليه الصحابة الكرام، وما جاء به فيما بعد الأئمة الأربعة فهو حق لا نحيد عن ذلك قط»(٢) .

* * * * * *

ولقد ظهر جماعة من المتفرنجين من المسلمين، يدعون إلى ما يسمونه بالتجديد، وإلى الأخذ بكل ما فى الغرب، ونادوا بالخروج على تقاليد الدين الإسلامى الحنيف، ودعوا

---

(١) الإمام العادل ج ٢ ص ١٣٢ .

(٢) المصحف والسيف ص ٩٣ .

الشرق بأن يسير وراء الغرب، وكانوا مغرضين فى ذلك، فانبرى لهم الإمام رحمه الله، ففند مزاعمهم، وسفه أحلامهم، ورد عليهم بالحجة والدليل والمنطق فى كثير مما قاله فى خطبه ومجالسه ومنتداه.

قال رحمه الله :

«يقول كثير من المسلمين : يجب أن نتقدم فى مضمار المدنية والحضارة، وإن تأخرنا ناشىء من عدم سيرنا فى هذا الطريق، وهذا إدعاء باطل، فالإسلام قد أمرنا بأخذ ما يفيدنا ويقوينا على شرط أن لا يفسد علينا عقائدنا وشيمتنا، فإذا أردنا التقدم يجب أن نتبع الإسلام، وإلا كان الشر كل الشر فى اتباع غيره»[1].

« يقولون : (الحرية) ويدعى البعض أنها من أوضاع الأوربيين، والحقيقة أن القرآن الكريم قد جاء بالحرية التامة الكافلة لحقوق الناس جميعا، وجاء بالإخاء والمساواة المطلقة التى لم تحلم بها أمة من الأمم، فآخى بين الصغير والكبير، والقوى والضعيف، والغنى والفقير، وساوى بينهم[2].

ويقولون التمدن والمدنية الأوربية هى الغاية القصوى، وهذا وهم باطل، فإن الله جعل من كل شىء أفضله مباحا لنا، وأحب شىء إلينا هو العمل الخالص، والنية الحسنة»[3].

«إننا لا نبغى التجديد» الذى يفقدنا ديننا وعقيدتنا. . . إننا نبغى مرضاة الله عز وجل، ومن عمل ابتغاء مرضاة الله، فهو حسبه، وهو ناصره، فالمسلمون لا يعوزهم التجديد، وإنما تعوزهم العودة إلى ما كان عليه السلف الصالح»[4].

* * * * * *

ولقد بدأ رحمه الله بالدور العملى فى تنفيذ حدود الله فى جميع مناحى الحياة، وعلى الجميع، لا فرق بين غنى وفقير، وأمير وغير أمير، وأصبح الناس كلهم سواء أمام القانون السماوى، وهدد أولئك الذين قد تحدثهم أنفسهم بالفوضى، والمضاربة بالأقوال، والتلاعب بالكلمات والألفاظ، ويظهرون الأمور على ما ليست عليه، لقد حذرهم فكان مما قاله :

«إن البلاد لا يصلحها غير الأمن والسكون، لذلك أطلب من الجميع أن يخلدوا

(١) المصحف والسيف ص ١٢٣.

(٢، ٣) المصحف والسيف ص ٩٣.

(٤) المصحف والسيف ص ٨٦.

للراحة والطمأنينة ، وإنى أحذر الجميع من نزعات الشيطان ، والاسترسال وراء الأهواء التى ينتج عنها إفساد الأمن فى هذه الديار، فإنى لا أراعى فى هذا الباب صغيرا أو كبيرا ، وليحذر كل إنسان أن تكون العبرة فيه لغيره»[1] .

* * * * * *

لقد شغل بال الملك عبد العزيز الأمن والسكينة فى هذه البلاد المترامية الأطراف ، الواسعة المساحة ، وللبادية وسكانها خطرهم ، فهم منتشرون فى مساحات شاسعة بين الخليج العربى والبحر الأحمر، وما بين خليج عدن ، وما يقابله فى الشمال .

هذه المساحة الكبيرة لم تر الأمن والسكينة من زمن بعيد ، فقد رجعت عناصر الشر إلى عاداتها وطبائعها ، إذا استثنينا فترات قصيرة ، كانت بمثابة هدنة . وفى العهد التركى وعهد الشريف أصبحت أشد خطرا ، وأعظم فتكا ، فليس هناك ما يردعهم ، أويقلم أظافرهم ؛ ولأن البلاد ممزقة بسبب الثأرات بين القبائل ، فكانت الإغارة والسلب والنهب والقتل من المهن المعترف بها ، وكان أهل البادية دائما يتربصون بالقوافل وقطعان الماشية الدوائر .

ولكى يأمن التاجر على نفسه وما معه إذا كان يجتاز الصحراء ، عليه أن يدفع الإتاوات على طول الطريق الذى يمر به ، فالتاجر الذى يجىء من البحرين مثلا يدفع قبل أن تطأ رجله العقير إتاوة للعجمان ، ومن العقير إلى النخل خمسة أميال ، أتاوة للمناصير ، وكذلك أم الذر وبنى هاجر. . .

وإذا فاز التاجر بحياته وبقى شىء فى كيسه فمن المؤكد أن أحماله لا تصل كلها إلى المكان الذى يريده . وكان فى عهد الترك إذا خرج العسكر لتأديب جماعة من هؤلاء البدو، يطاردهم البدو، فيغلبونهم ، ويأخذون خيلهم وثيابهم ، ويرجعونهم إلى مكان إقامتهم حفاة عراة .

والأدهى والأمر ما كان يصنع بحجاج بيت الله الحرام ، كانوا عرضة للسلب والنهب والقتل ، وكان الحجاج يخرجون من بلادهم ، ولا أمل لهم فى العودة ، وقد حملوا معهم أكفانهم ، فكانوا فى جهاد وقتال مع أهل البادية الذين يأخذون منهم ما يطلبون ، ولم يكونوا يكتفون بها أخذوا بل كانوا يغيرون على مؤخرات القوافل يسلبون ويقتلون ، ولا أحد يستطيع أن يغير شيئا مما كان يحدث .

---

(١) المصحف والسيف ص٢١٧ .

حتى أرض الحجاز لم تسلم من بطش أهل البادية فى معظم جهاتها، والعلة فى ذلك أن حكام الحجاز لم يكونوا على كثير من الحكمة والسياسة التى تلائم العرف عند القبائل، أو لم يكونوا متفرغين للأمن، ولم يكن يجدى ما يدفعون من أموال، فقد كانت القبائل تأخذ الأموال، ولا تمتنع عن السلب والنهب، ولم يخطر على بال أحد منهم أن يحكم الشريعة الإسلامية، لذلك فإن الفوضى الأمنية قد عمت جل البلاد، فمثلا طرق المدينة المنورة لم يكن فى الاستطاعة أن يقام فيها الأمن وأن يستتب، فكانت مسرحا لحوادث جسام، فالقبائل تعتدى على الحجاج، وتسلب ما معهم، وقد تفرض عليهم إتاوات كبيرة .

يقول الصحفى المصرى محمود أبو الفتح - رحمه الله - فى صحيفة الأهرام عام ١٩٣٠م :

«كان بعض الأعراب يذبحون الحاج وإن كان فقيراً لإستلاب ما معه، وكانوا يذبحون الحاج فى رابعة النهار، ولم يسلم من أذاهم أحد، ولم يجدوا من يردعهم، فعاثوا فسادا، حتى كان المسلم يخرج وهو لا يدرى أيعود إلى وطنه أم يقتله السفاحون»(١).

وحتى أهل البادية، لم يكونوا فى صفاء مع أنفسهم، كانوا متفرقين مختلفين، تزداد العداوة والبغضاء بينهم نموا يوما بعد يوم، يقتل بعضهم بعضا لأتفه الأسباب، ويأكل القوى منهم الضعيف، تنشب المعارك الضاربة، فيقتل منهم العشرات، لا ينامون على خير، بل يعدون للشر والإنتقام، ويندفعون للتخريب لذلك لم يهدأوا ولم يأمنوا، وكانوا يسير ون فى جماعات حاملين السلاح، وكأنما رجعت الجاهلية الأولى فاشتعلت نار الفتن، وتقطعت الأرحام وتواثبوا فى الأسواق، وعلى حدود القبائل، وخاف بعضهم بعضا، فحملوا السلاح ليلا ونهارا .

يقول صاحب كتاب « عنوان المجد » :

«كانت الفتن مستمرة، والغارات دائمة بين القبائل ففى ١٢٣٩هـ وقعت فتن وقتل رجال، وأخذت أموال من كل بلد وناحية من القصيم والعارض والخرج والجنوب وغير ذلك .

وكان بعض القبائل يغير على القرى والمدن ففى ١٢٣٧هـ مثلا أغارت بوادى سبيع على - قرية - منفوحة، وأخذوها عنوة ونهبوا وسلبوا النساء، وقطعوا الثمار واستولوا على البلد. . . وعم القتل فى هذه السنة فى القصيم وسدير والوشم والعارض والخرج والجنوب»(٢).

---

(١) صحيفة الأهرام فى ١٦/١١/١٩٣٠م .

(٢) عنوان المجد لعثمان بشرج ١ ص ٢٧٧ .

وهكذا فقد ساد الجزيرة فوضى، رجع الناس بسببها إلى ما كان قبل بعثة الرسول ﷺ.

*****

استرشد الملك عبد العزيز برأى الدين فى معالجة كل أموره، وبما هداه الله إليه من عمل، ووهبه من ذكاء وخبرة، لم يلجأ رحمه الله فى أول الأمر إلى القوة واستخدام السيف للخارجين على الدين، والعابثين فى الأرض فسادا، وكان الخطر الداهم على البلاد من البادية، لأن أهلها جبلوا على عادات وطباع خاصة، هم فى حاجة إلى علاج ناجع يحسم الداء، ويجعل منهم مجتمعا صالحا للحياتين .

لقد رأى أن هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله، وأن لهذا الدين سحراً عجيباً فى قيادة الناس على اختلاف مشاربهم وحياتهم، وأنه هو الذى صنع من أهل البادية أعظم أمة عرفها التاريخ، وأن الناس حينما تخلوا عن مبادىء هذا الدين الحنيف، تخلى الله عنهم فتاهوا فى الظلمات سنين طويلة، أما وقد وفق الله لإقامة شعائر هذا الدين، فقد رأى الإمام والملك المصلح - رحمه الله - تبصير أهل البادية بأمر دينهم، وجمع كلمتهم على هدى الإسلام .

لقد أرسل إليهم من يبصرهم بأمر دينهم، ويرشدهم إلى الطاعات، فكان فى كل قبيلة من قبائل البدو الرحالة والمستقرة من يعلم الناس أصول هذا الدين القويم، ويوجههم إلى ما ينفعهم فى حياتهم، ويجيب عما يسألون عنه فى أمور الدنيا والآخرة، فالتفوا حوله، وشغلوا بالعمل الصالح، وأصبح له مكانة كبيرة فى نفوسهم، وصار يخطب لهم يوم الجمعة وكل المناسبات الدينية كالعيدين والاستسقاء وغيرهما، ويصلى بهم، ويعلم أبناءهم، ويفتى كبارهم، ويعقد الزواج، ويقسم المواريث، ويتوسط فى حل المشاكل .

ورأى الملك عبد العزيز - رحمه الله - أن عامل الحالة الاجتماعية يساعد كثيرا على الاستقرار ويقوى الناحية الدينية، ويسد الطريق على من تحدثه نفسه بأن يسلك طريقا غير مشروع لجلب الرزق، فأراد أن ينتقل بالبدو من حياة البادية المتنقلة، إلى حياة الهِجَر، ليتركوا حياة السفر والتنقل من مكان إلى آخر قد يجدون فيه ما يسد رمقهم، وقد لا يجدون، فيميلون إلى السطو والنهب أراد أن ينتقل بهم إلى حياة السكون والاستقرار، وليتركوا حياة الرعى إلى حياة الزراعة والرعى . وانشئت الهجرة الأولى على آبار الأرطاوية على طريق بين الزلفى والكويت عام ١٣٣٠هـ، وأصبحت خلال بضع سنوات مدنا فيها من السكان ما يزيد على العشرين ألفاً، ثم تلى الأرطاوية حركة عامة بين البدو لترك حياتهم البدوية والسكنى فى قرى جديدة، كانوا ينشئونها بمعونة من بيت مال المسلمين، تحفر البئر ويبنى

المسجد الذى هو مجتمع القرية ومدرستها، وكانت السرعة هى الرائد فى كل ما يقومون به من أعمال .

وهكذا فقد أصبحت المساجد غاصة بأهلها ممن تركوا الخرافات والبدع وعادات الجاهلية، وواظبوا على الصلاة فى أوقاتها، وتواصوا بالأخلاق الإسلامية الصحيحة التى تحث على الفضيلة والإيمان .

وأصبحت الزراعة هى موردهم الذى منه يأكلون ويتاجرون ويربحون، فتكونت عندهم الثروات والمال الكثير، وفى نفس الوقت فقد انتشرت المعسكرات، ليكوّنوا من الشباب أمة مسلمة تدافع عن مبادئها، وترد كيد كل من يحاول أن ينال من دولتهم الفتية بقيادة قائدهم الأعظم عبد العزيز آل سعود، وهم على استعداد للقتال معه فى أى وقت .

* * * * * *

لقد كانت خطة الإمام عبد العزيز منذ تولى إمارة الرياض، أن ينفذ حكم الله فى كل من خرج على حدوده، فكان يتتبع الجرائم الكبيرة بنفسه، ويتعقبها، ويحث جهات الاختصاص على رفع نتائج الحوادث وتطورها إليه أولا فأولا، ويصدر أوامره بشأنها، ويشفع كل ذلك بالحزم والدقة حتى تنكشف الجناية، وكان إذا عرضت عليه قضية درسها من جميع الوجوه بما له من علم ومعرفة وخبرة وذكاء مبينا ما جاء فى الكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين ثم يصدر حكمه .

وكان كثيرا ما يقرأ ظروف وملابسات كل قضية يطلب منه التصديق عليها، وقد يعيد الحكم فيها، من ذلك ما رفع إليه من قضية طُلِبَ منه التصديق على حكم أصدرته إحدى المحاكم الشرعية، بإعدام جندى قتل زوجته وجنديا آخر، وكان تنفيذ الحكم معلقاً على موافقة الإمام .

درس ـ رحمه الله ـ القضية، فظهر له أن الزوجة كانت قد غابت عن بيتها أياما، وبحث عنها زوجها فوجدها عند أحد الجنود، فأطلق عليها الرصاص وسألته المحكمة، فأقر بالقتل، ولم يحسن الدفاع عن نفسه فحكمت المحكمة بإعدامه .

ولم يكد ينتهى من القضية، حتى دعا رئيس المحكمة إليه فقال له :

«ألم تقرأ الحديث الذى فيه إننى أغيركم، والله أغير منى»[1].

ثم أطلق القاتل لأنه كان يدافع عن عرضه. وهذا من توفيق الله[2].

* * * * * *

ولما اتسعت البلاد، جعل لكل ناحية أميرا، وكان على كل أمير أن يجمع رؤساء القبائل والعشائر، ويؤمنهم على أنفسهم ومعيشتهم، ويشترط عليهم أن يكونوا قادرين على حفظ الأمن فى حدود أراضى قبيلتهم، وكل حادثة تحدث فى منطقة أحدهم يكون مسئولا عنها هو وقبيلته، سواء أكانت بين بعضهم أو حوادث لأجانب من التجار أو الحجاج أو غيرهم.

علم أمير الطائف فى أوائل ضم الحجاز أن البدو اختطفوا اثنين من حجاج الهند وقتلوهما، وأخذوا أمتعتهما، فأمر باحضار كبار القبيلة التى حصل فى حدودها الحادث، وحدد لهم ثلاثة أيام لاحضار المسروقات، والإرشاد عن جثث القتلى، وأقسم أنه إذا انقضى الميعاد المضروب دون نفاذ المطلوب، ليبيدن القبيلة بأكملها، وقبل مضى الميعاد، أحضر رجال القبيلة المسروقات، وأرشدوا إلى جثث القتيلين، وأخيرا أرشدوا إلى أثنين اعترفا بالقتل، فأمر بقطع رقبتهما.

وفى هذه المرة اعتداء على السعوديين فقد جاء إلى القصر فى الرياض بضعة رجال من إحدى القبائل، يطلبون عيشا وكسوة، فكان لهم ما ابتغوه، ثم ارتحلوا، فمروا فى طريقهم ببعض الجمال والنوق، فساقوها أمامهم، فشكاهم أصحابها إلى السلطان عبد العزيز، فبعث السلطان من يحمل الخبر إلى أمير الاحساء، فما وصل إليه الخبر، حتى تحرك رجال الدولة يبحثون عن اللصوص، وما هى إلا أربع وعشرون ساعة حتى جىء بهم وبالمسروقات ولقوا جزاءهم.

﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض﴾. (المائدة: ٣٣).

* * * * * *

لقد ألقى الله فى قلب كل من تسول له نفسه السير فى طريق العدوان والفساد وسادت

---

(١) عن أبى هريرة قال: قال سعد بن عبادة يارسول الله لو وجدت مع أهلى رجلا لم أمسه حتى آتى بأربعة شهداء. قال ﷺ: نعم. قال: كلا والذى بعثك بالحق إن كنت لأعاجله بالسيف قبل ذلك. قال رسول الله ﷺ: اسمعوا إلى ما يقول سيدكم إنه لغيور وأنا أغير منه والله أغير منى ـ صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٠ ص ١٣١. باب اللعان. المطبعة المصرية.

(٢) شبه الجزيرة ج ٢ ص ٤٥٢.

الـرغبـة فى الحفـاظ على حقـوق الله وحقـوق العبـاد، فكـان يُرَدَد فى كل مكـان : «الحكم للشـرع»، «السـارق تقطـع يده»، «القـاتـل يقتل» «عدل عبد العزيز»، «التمسك بشريعة الإسلام»، «الصلاة الصلاة» .

كلمات تسمع فى البادية، وفى القرى والمدن، وفى البر والبحر، وفى الأماكن المقدسة، يرددها الناس فتزلزل القلوب، وتخيف النفوس المريضة، وتزيد المؤمنين إيمانا وطمأنينة .

بل لقـد انتقلت هذه الكلمات إلى عامـة المسلمـين فى جميـع البـلاد الإسـلاميـة، فى الصحـراء وفى المـدن والـدساكر، فى أعماق بلاد المسلمين، يهنىء بعضهم بعضا، بسبب ما وصل إليه الأمن والأمان فى البلاد المقدسة، وبنجاح التجربة الإسلامية، وعودة بلد من بلاد المسلمـين إلى الحكم بكتـاب الله، ويتمنى أن تنـال هذه التجـربـة النـاجحة بلاد المسلمين فيرجعوا إلى كتاب الله .

لقـد شجـع بعضهم بعضـا على أداء الحـج والعمرة، وغاب عامل الخوف والرعب، فكانوا يقولون :

هيـا إلى الحـج، هيـا إلى العمـرة، إلى الأمـاكن المقـدسـة، إلى مكة وإلى المدينة، الطريق آمن، ابن سعود يحكم بالشرع، عبد العزيز قضى على القتلة والسفاحين، سنرجع بسلامة الله .

كلمات لا يزال يحكيهـا المعمـرون فى أقـاصى البـلاد الإسـلامية، الذين رأوا بأعينهم الأعمال العظيمة التى قام بها عاهل الجزيرة الملك عبد العزيز آل سعود، فكانت خير شاهد على توفيق الله له .

ولقـد جاء فى الحـديث الصحفى الـذى نشـره محمـود أبـو الفتـح ـ رحمه الله ـ وقد زار البلاد، ورأى بعينيه ما وصلت إليه البلاد منذ أكثر من خمسين سنة مايأتى :

«وجـاء ابن سعـود، فضـرب أمثلة . . . كان يأمـر بالسـارق فتقطع يمناه، وبالقاتل فيجـز رأسـه فى السـوق العامة . . . تلك أمثلة . . . ولكنها كانت درسا نافعا، فقد قطع ابن سعـود عشـرات من رءوس اللصوص والقتلة، وأنقذ بذلك رءوس الألوف من حجاج بيت الله الحرام» .

ثم يكمل حديثه فيقـــــول :

والآن تسير الفتاة من طرف الجزيرة الغربى إلى طرفها الشرقى، تحمل الذهب، فلا

يتطلع إليها أحد، بل يرى الناس قطعة الذهب أو الفضة ملقاة على الأرض، تسقط من بعض المارة، فلا يقربونها، وإنما يبلغون عنها الشرطة .

ويحدثنى المعتمد البريطانى فى جدة عن حالة الأمن فقال :

«إنها إن دامت سنوات بلغت البلاد درجة عظيمة من الرقى. إنّ الأمن فى الحجاز، لا مثيل له فى أى بلد من بلاد العالم الآن»[1].

وقال محمد بن عبد الله الأنصارى الاحسائى :

«والمملكة العربية السعودية تتقدم من حسن إلى أحسن، قد عمها الأمن، وشملها العدل، واتسع الرزق، وكثرت موارده، وعم اليسار معظم طبقات الشعب بما أجرى الله فى جهات الاحساء من ينابيع الزيت بحكمة هذا الملك المصلح فقد طبق فى مملكته الأحكام الشرعية التى جاء بها القرآن ونطقت به سنة النبى الكريم محمد بن عبد الله ﷺ، فقتل القاتل، وقطع يد السارق، وجلد شارب الخمر، ورجم الزانى المحصن، وشدد العقاب على المعتدين والعابثين بالأمن، فنعمت البلاد بأمن لم تكن تحلم به، ولم يحصل لغيرها من رعايا الدول الكبيرة المتمدينة، وأقام الدليل الواضح على أن شريعة الإسلام هى الشريعة الكفيلة لسيادة البشر فى كل زمان ومكان، فجزاه الله عن المسلمين خيرا»[2].

والحمد لله ، لقد أصبحت حدود الله ، والمحافظة عليها قائمة إلى وقتنا هذا، وستظل دائما إن شاء الله ، بفضل الله ، ثم بفضل أولئك الذين وفقهم الله ، لإقامة حدود الله ، وإن شريعة الله تتفق مع فطرة الله التى فطر الناس عليها، ففيها الأمن والأمان والهدوء والأطمئنان .

لقد أرسى أساسا متينا للإصلاح الاجتماعى الذى هو الغاية العظيمة من جهاد تلك السنين الطويلة الشاقة، والمتاعب الجسام. التى وفقه الله فتغلب عليها، فلم يهن، ولم يضعف، بل ظل على حيويته ونشاطه، وابتساماته العريضة التى يقابل بها جميع الناس، وصدره الذى شرحه الله دائما فهو الهاش الباش لجميع الذين يلقاهم ويلقونه، فإذا رأيته لحظات غاضبا، فإنما غضبه لله وفى الله .

والحمد لله لقد تخطى عقبتين كؤدتين ومشكلتين عظيمتين هما الهجر والأمن والأطمئنان، فاستحق عن جدارة أن يلقب بالمصلح والرائد الاجتماعى فى العصر الحديث .

---

(١) صحيفة الأهرام فى ١٦/١١/١٩٣٠م.

(٢) تحفة المستفيد فى القديم والجديد ص ١٢٤-١٢٥.

ولقد واصل الإصلاح بتفكيره المنطلق، وعقله الواعى، وإيمانه الأكيد، وآماله العريضة، لجلب كل ما يدخل السعادة على هذه الأمة التى قاست مئات السنين، فكانت ريادته للنهضة الاجتماعية والعمرانية والاقتصادية والثقافية .

كان ـ رحمه الله ـ فى أول الأمر يفكر من أين يبدأ ؟ وما الطريق الذى يسلكه ؟ ومن أين له بالمال الكثير الذى به يبنى وعليه يقيم ما يرجو ويتمنى .

لقد أدى ما وجب عليه تجاه الله سبحانه وتعالى، وأن الله لن ينساه أبدا، فقد كان دائم التوكل عليه، وسيظل مادام فيه عرق ينبض، وأنه مازال يذكر فضله ونعمته عليه، ولا ينسى حينما كان فى مكة، وهو مخيم فى محلة «الشهداء» وقد فقد ما أدخرّ من مؤ ن وأقوات، ولاح شبح الجوع أو كاد، وأحس من معه بما عليه الحال، فضاقت صدور الرجال، حين قلّ المال، أما عبد العزيز فكان مطمئنا إلى أن الله لن ينساه، وسيرزقه من حيث لا يعرف ولا يفكر، فكان حينما يسأل عن هذا، يقول :

المؤ ن متوفرة فى نجد، غير أن الجمال مشيها وئيد . . . من شاء الرحيل فليرحل أما أنا فمقيم . والفرج من عند الله .

لقد كانت ثقته بالله عظيمة، وتوكله عليه أقوى وأشد، فلم يأت المساء، حتى وصلت قافلة يتقدمها اسماعيل بن مبيريك أمير رابغ . وكان الشريف حسين قد قتل أخا له، فلما علم بما صارت إليه الأمور فى مكة، وإقامة عبد العزيز بها، جاءه بفروض الطاعة، ومعه عشرون جملا تحمل التمر والسمن والبرّ وكان هذا رزقاً ساقه الله إليه(١) .

إن الله لا ينسى عباده المخلصين، وقد كان عبد العزيز من أخلص الخلق لله تعالى، فهو يتوكل عليه حق توكله، ولابد أن الله سيرزقه من حيث لا يعلم، وسوف تفتح له أبواب من الرزق ليس عليها بواب .

وقد كان، فقد فتحت له كنوز الأرض، على حين كان يشغله أمر البلاد والعباد .

﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب . ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا﴾ . (الطلاق : ٢ـ٣) .

﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا . ذلك أمر الله أنزله إليكم . ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا﴾ . (الطلاق : ٤ـ٥) .

---

(١) شبه الجزيرة العربية ج ٢ ص ٥٨٤ .

﴿لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما أتاه الله، لا يكلف الله نفسا إلا ما أتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا﴾. (الطلاق : ٧).

فكانت سعادته الفائقة فى أن يصرف كل ما يصل إليه على هذه الأمة، فقد زاد المال ونما، وأدخل الله الخير على هذه البلاد، وقد يكون كل هذا بسبب دعاء رجل واحد.

ولكن الملك عبد العزيز لم يغير شيئا من عاداته، ولا من مأكله ومشربه وملبسه حتى آخر نفس من حياته المباركة.

قال طبيبه أمين رويحة : «لقد اشتدت عليه أزمة المرض فى أواخر أيامه - رحمه الله - ورضى عنه : طلبنا إلى جلالته أن يستلقى فى سريره للاستراحة، لأن بقاءه مستويا على الكرسى لا يُؤمّن له الراحة الضرورية للقلب.

أجاب ابن سعود على طلبنا بقوله : ما يخالف هاتوا السرير.

فتوجه الخادمان اللذان يتوليان خدمته الخاصة... فجلبا السرير... سرير الملك العظيم، فنصباه فى الغرفة، ويالعظمة ما رأيت!! إنه سرير من خشب عادى متواضع، وفراش محشو بالقش صلب قاسى، وفوقه غطاء صوفى، ووسادة من النوع ذاته.

ذلك هو مضجع ذلك البطل الكبير الذى لا يكتسى إلا بثوب بسيط من القطن، وقد كان يستطيع بما وهبه الله من جاه ومال ومنزلة فى القلوب ألا يكتفى بتوسد الفراش الوثير فحسب، بل حبات القلوب أيضا، وأن يحوط نفسه بالخدم والحشم والممرضات ليلا ونهارا، ولكنه عبد العزيز المتقشف الذى لا تأخذه بها رج الحياة»[1].

* * * * * *

راح - رحمه الله - يبحث عن وسائل الرقى والنهوض بهذه الأمة، فما عرف شيئا فيه مصلحة إلا دعا إليه، ولا عرض عليه أحد رجالاته موضوعا صالحا إلا ناقشه ونفذه، ولم يكن متعجلا فى طريقة الإصلاح، بل كان كعادته يفضل التؤدة والتأنى وتعرف استعداد الشعب لما يريد من الإصلاح.

كان يعتقد أنه بهذه الطريقة سيأتى اليوم الذى تبلغ به الجزيرة أسمى آيات التقدم والرقى فى ظل عقيدة التوحيد، وقد كان... فما نرى شيئا من النهضة العظيمة فى جميع المجالات إلا وهو يدين بالفضل لبانيها ومؤسسها المصلح العظيم - رحمه الله -. إن النهضة

---

(١) عبد العزيز للمؤرخ الألمانى الكبير (اكويرت فون ميكوس). ترجمة أمين رويحة ص ٢٨٢.

الإصلاحية التى قام بها هذا الرجل الكبير تحتاج إلى مجلدات ضخمة ولكن نورد بعضا منها لنستدل به على العقلية الموهوبة، والمتفتحة على كل معالم الحياة بلا حدود، والضاربة بعمقها فى كل المجالات، والمحوطة بالرعاية والتوفيق من الله .

كانت البلاد مترامية الأطراف، بعيدة الأماكن والبلاد، ووسائل الاتصال بها بطيئة، فأمر رحمه الله بربط أجزاء البلاد بعضها ببعض بشبكة من المحطات اللاسلكية فكانت وحدة متقاربة الأطراف والثغور، يستطيع أن يتصل بها فى أى وقت بالليل أو النهار، وفى دقائق معدودة .

وقد سمح - وهو راض مسرور - للرعية بأن يستعملوا السيارات، وأن يقتنوها ويسيروا بها فى طول البلاد وعرضها ولقد كانت من قبل ذلك محرمة، فلم يسمح لأحد من أفراد الرعية باقتنائها أو الاستفادة منها .

وكان - رحمه الله - قد ركب السيارة لأول مرة عام ١٣٤٤هـ. ورأى فوائدها فى تقريب المسافات، فلم يستقل بها، بل سمح لجميع أفراد الشعب باستخدامها، فدخل فى البلاد السيارات بأنواعها وأحجامها .

ولقد أنشئت فى عهده إدارات عامة للصحة والشرطة والأوقاف والبريد والبرق واللاسلكى، وأنشئت كذلك مديرية للشئون العسكرية، ومديرية للشئون الخارجية، والمديرية العامة للزراعة، وشكلت المحاكم الشرعية، وبيوت المال، وكتاب العدل، والمجالس التجارية وكذلك مؤسسة للنقد العربى السعودى .

أعفى جميع المواد الغذائية، ومواد البناء وغيرهما من الرسوم الجمركية، وقام بشراء الآلات الزراعية الحديثة، ووزعها على الفلاحين للنهوض بالزراعة، ولقد أهتم بالتعليم، ففتح كثيرا من المدارس المتنوعة، واهتم بالمعاهد الدينية، والمكتبات العامة، وأرسل البعثات العلمية إلى الخارج، للاسهام فى النهضة التعليمية، وأنشأ - رحمه الله - المستشفيات والمستوصفات فى المدن الكبيرة، وأنشأ المراكز الصحية فى طريق الحجاج، وأدخل نظام التطعيم، وصرف الدواء بالمجان(١) .

---

(١) تاريخ المملكة العربية السعودية للدكتور حسن سليمان محمود وسيد محمد ابراهيم ص ٨٤-٨٥، وكتاب التوكل على الودود عبد العزيز آل سعود لمحمد منير البديوى ص ٢٤٨-٢٤٩ .

هذا قليل من كثير فى داخل البلاد، فقد عاش لخدمة شعبه ورعايته، ولم يمر يوم إلا وفيه جديد، مما يعود على البلاد بالخير العميم .

ولقد نادى الملك عبد العزيز بتأليف لجنة عام ١٩٣٧م تضم عدة شخصيات عربية مخلصة، تعمل على وضع الأسس لتوحيد الجهود لما فيه خير الأمة العربية، وطالب بإنقاذ فلسطين، وله فى ذلك مواقف حاسمة، وآراء ناضجة، ووسائل سليمة .

ولقد أسهم فى تأسيس جامعة الدول العربية، ونادى بالتضامن الإسلامى، واشترك فى منظمة الأمم المتحدة عام ١٩٤٥م، وعاون كذلك فى حل كثير من المشكلات فى الشرق الأوسط .

* * * * * *

هذه لمحات من حياة رجل من رجال الإسلام، ضرب الله لنا به مثلا أعلى فى عصرنا الحاضر، وبعد مضى أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان على رسالة سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ، ضرب به المولى سبحانه وتعالى مثلا على دوام صحة التمسك بشريعته الغراء، وعلى إمكان تنفيذ حق الله وحق العباد كما جاء به إمام المرسلين ﷺ، والله خلق عباده وهو أعلم بما ينفعهم، ويعود عليهم بالخير العميم، فكان ذلك خير شاهد، وانصع دليل على أن هذا الدين صالح لكل زمان ومكان .

ومازال ـ ولا يزال ـ إن شاء الله ـ ما وضع أساسه الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود واستمده من كتاب الله وسنة رسوله شامخ البنيان، واضح المعالم، جزل العطاء، مضاعف الثمرات، من الراحة والأطمئنان والهدوء النفسي والرزق الرغد، والتقدم فى جميع المجالات، وفوق كل هذا، إخلاص العبادة لله ومضاعفة الشكر والحمد لله المنعم الوهاب .

فهلا قرأ حكام المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها تلك السيرة العطرة، ووعوا ما قام به صاحبها رحمه الله، وهلا تدبروا إخلاصه وحبه لله، فاقتدوا به فى أقواله وأفعاله، وسلكوا طريقه، واهتدوا بها اهتدى به مما جاء فى كتاب الله سبحانه وتعالى، وسنة رسوله ﷺ، وعمل به الصحابة والتابعون رضى الله عنهم أجمعين .

هلا عرفوا ذلك ؟ وفعلوا مثل ما فعل هو ومن سبقه على هذا الدرب ! !

لو عرفوا ذلك ، لكان فيه قوة للمسلمين فى هذا الزمان المملوء بالكيد للإسلام ، ولأصبحنا قوة يقدرها الناس حق قدرها .

فبدل أن يشرق بعضنا ، ويغرب آخرون . ونجرى وراء السراب ونتوه فى دروب التبعية والاستغلال ، الأمر الذى جر علينا الوبال ، وبؤنا فيه بالخسران ، وأصبحنا قنطرة يعبر فوقها أعداء الإسلام إلى ما يريدون تحقيقه ، وهذا ضد أهدافنا وآمالنا وديننا ودنيانا ، بدل كل هذا الضياع أمامنا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فيهما كل ما نريد ، ولا فائدة أن نخترع كتبا تستمد من الأفكار المجردة ، البعيده عن الكتاب والسنة ، وليست إلا سراباً بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا .

لقد كان الملك عبد العزيز رحمه الله عنوانا لهذا الدين بما علم وعمل وقدم ، فجزاه الله خير الجزاء ، ورفع منزلته مع النبيين والصديقين والشهداء ، وحسن أولئك رفيقا .

* * * * *

المراجـــــع

١ ـ القــرآن الكريم .
٢ ـ مع عاهل الجزيرة لعباس محمود العقــاد .
٣ ـ حياة محمد . لمحمد حسين هيكل دار المعارف بمصر الطبعة الثالثة عشر .
٤ ـ سيرة الرسول ﷺ للإمام محمد بن عبد الوهاب .
٥ ـ شبه الجزيرة العربية فى عهد الملك عبد العزيز آل سعود لخير الدين الزركلى .
٦ ـ كتاب آل سعود لأحمد على . دار العباد بيروت ١٩٥٧م :
٧ ـ صقر الجزيرة لأحمد عبد الغفور عطـــار .
٨ ـ المصحف والسيف جمع وإعداد محي الدين القابسى ـ الرياض المطابع الأهلية .
٩ ـ المتوكل على الودود عبد العزيز آل سعود . لمحمد منير البديوى . الرياض ١٣٩٧هـ .
١٠ ـ الإصلاح الاجتماعى فى عهد الملك عبد العزيز . د . عبد الفتاح حسن أبو عيلة . مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ١٣٩٦هـ .

١١ ـ الإمـام العـادل الملك عبـد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ـ السيد عبد الحميد الخطيب. مصطفى البابى الحلبى مصر ١٩٥١م.
١٢ ـ نجـد وملحقاتهـا. لأمين الريحانى.
١٣ ـ تاريخ الحجاز. لحسين محمد نصيف. القاهرة. مطبعة خضير.
١٤ ـ عنوان المجد فى تاريخ نجد. لعثمان بن بشر. مطابع القصيم بالرياض.
١٥ ـ تحفة المستفيد فى القديم والجديد. مطابع الرياض ١٣٧٩هـ.
١٦ ـ عبد العزيز للمؤرخ ا. افون ميكوس. ترجمة أمين رويحة.
١٧ ـ الأمن فى المملكة العربية السعودية. لواء يحيى عبد الله المعلمى. ١٣٩٨هـ.
١٨ ـ تاريخ المملكة العربية السعودية فى ماضيها وحاضرها. ج٢ بيروت مكتبة الحياة.
١٩ ـ المملكة العربية السعودية بقلم خالد السديرى دار الكتاب العربى. بيروت ١٩٠٧م.
٢٠ ـ تاريخ ملوك آل سعود... سعود بن هذلول.
٢١ ـ تاريخ المملكـة العـربيـة السعـوديـة للدكتـور حسن سليمان محمود. دار الثناء للطباعة. مصر.

عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال:

كنـا نسـير مع رسـول الله ﷺ فى سفـر فكنـا إذا اشرفنا على واد هللنا وكبرنا وارتفعت أصواتنا.

فقال النبي ﷺ:

« يـاأيهـا النـاس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا، إنه معكم إنه سميع قريب »...



التَّقاص أسلوب من أساليب العرب، وطرفة من طرفهم، وملحة من ملح كلامهم، فهو يكسب التراكيب طلاوة، والقواعد دقة، والقياس شمولا، واتساعاً، واللغة مرونة وتداخلاً، والكلام إحالة وتبادلاً، وقد أشار إليه بعض النحاة[1] فى مصنفاتهم، ولم يتناولوه تناول شمول وإحاطة، ولكن تعرضوا له تعرض إيماء وإشارة .

لذلك رأيت أن أعرض هذه الظاهرة عرضاً يوقفنا عليها، ويجليها ويطلعنا على دورها فى الأساليب، ويجدر بنا أن نعرفها لغة واصطلاحا ونستعين بالله تعالى فنقول :

التقاص لغة : مأخوذ من القص، والقصاص لغة فيه، وهو القتل بالقتل، أو الجرح بالجرح، أو القطع بالقطع . وفى القاموس[2] قاصصته مقاصة وقصاصا إذا كان لك عليه دين مثل ما له عليك، فجعلت الدين فى مقابلة الدين، مأخوذ من اقتصاص الأثر، ومثل ذلك المعنى فى المصباح والمختار .

وفى اللسان والتاج والمحكم[3] : التقاص : هو التناصف فى القصاص .

قال الشاعر :

فرمنا القصاص وكان التقا ... ص حكما وعدلا على المسلمينا

فالمادة تدور حول معنى القطع والتتبع .

(١) ابن جنى فى سر الصناعة ص٥٠، وابن الأنبارى فى منثور الفوائد ص٧٥. والسيوطى فى الأشباه ١/١٣٤ وغيرهم .
(٢) القاموس (قصص)، والمصباح ٥٠٥ والمختار ٥٣٨ .
(٣) اللسان والتاج (قصص) والمحكم ٦٦/٦ .

واصطلاحـا : هو أن تأخذ الكلمة حكما من أخرى أخذت مثله منها تلك الكلمة الأخرى .

وبعبـارة أخـرى : أن تتبـادل الكلمتـان حكما خاصا بهما . بمعنى أن تعطى كل منهما الأخرى حكما مساويا لما أخذته منها .

وقـد تتأتى هذه الظـاهرة بين ألقاب الإعراب ، وفى إبدال بعض الحروف من بعض ، وفي زيادة بعض الحروف .

أولا : *تحقيقها بين ألقاب الإعراب :*

أمـا ورودهـا بين ألقـاب الإعراب فقد تحقق بين الجر والنصب حيث جاء الجر محمولاً على النصب فيـما لا ينصـرف لشبهه بالفعل في وجود العلتين الفرعيتين أو علة تقوم مقامهما .

كما حمل النصب على الجر فى جمع المؤنث السالم ، وفى التثنية ، وجمع المذكر السالم طلبا للمقاصة[1] .

أمـا نصب جمع المـؤنث بالكسـرة فهو تابع للجر إجراء للفرع على وتيرة الأصل الذى هو جمع المذكر السالم ، فإن النصب فيه تابع للجر، لأنه لو لم يحمل نصبه على جره للزم مزية الفرع على الأصل[2] .

وأما نصب المثنى فقد جاء بالياء حملا على الجر، لأنه يجر بالياء .

وأما حمل النصب على الجر فى جمع المذكر السالم كما فى التثنية فلأنك لو قلبت الواو ألفا فى النصب لأفضى ذلك إلى الالتباس بالمثنى المرفوع[3] .

وإنما حمل النصب على الجر دون الرفع ، لوجود مناسبة بينهما فى وقوع كل منهما فضلة فى الكـلام[4] ، ولأنـه يشبهـه فى الافتقـار إلى العـامل اللفظى[5] ، ولأن الفتحة إلى الكسرة أقرب من الضمة إليها فحمل على الأقرب منه[6] .

وقـد علل أبـوعلى الفـارسى لهذه الظـاهـرة فى هذا المقـام تعليلا حسنا حيث بين أن

---

(١) الأشباه والنظائر ١/١٣٥ .
(٢) حاشية الصبان ١/١٠٣ .
(٣) شرح الألفية لابن الناظم ص١٥ .
(٤) المسائل العسكريات للفارسى ١٥٣ وابن الناظم ١٣ ، والتصريح ١/٧٩ والجامى على الكافية ١٨ .
(٥) التوطئة للشلوبينى ١٣٠ .
(٦) التصريح ١/٨٤ .

موافقة الجر النصبَ فيما لا ينصرف، كموافقة النصب الجر فى التثنية والجمع فليس الاتفاق للبناء، وإنما هو لاجتماع النصب والجر فى كونهما فضلتين، وفى كونهما كاملتين بعد استعمال الجملة المتضمنة للفعل، أو معنى الفعل بجزئيها اللذين هما الحدث والمحدث عنه، ومن ثم اتفقا أيضا فى باب الضمير(١).

ومما يقوى هذه الظاهرة ويؤكد تحقيقها فى هذا الموضع وجود شبه بين علامة كل من النصب والجر. فالفتحة تشبه الكسرة وإن اختلف موضعها. كما أن الياء لا يتغير وضعها سواء أكانت علامة للجر، أم علامة للنصب، وإن اختلفت حركة ما قبلها وما بعدها فى التثنية والجمع .

ثانيا : فى إبدال بعض الحروف من بعض :

١ ـ إبدال الهمزة من الهاء :

من حروف الإبدال القياسى الهمزة والهاء، لأنهما من حروف (هدأت موطيا) وهما يتبادلان الإبدال، بمعنى أن الهاء قد تبدل همزة، كما أن الهمزة قد تبدل هاء .

فإبدال الهمزة من الهاء يكون فى الاسم والحرف .

فإبدالها من الهاء فى الاسم جاء فى قولهم : ماء وشاء(٢). والأصل موه وشوه. قلبت الواو ألفا، وأبدلت الهمزة هاء .

وكذلك جاء فى الجمع. قالوا فى جمع ماء : أمواء، والأصل أمواه، وإذا ثبت أن أصلها هاء، ثبت أن الهمزة مبدلة عنها قال الشاعر :

وبلدة قالصة أمواؤها ما صحة رأد الضحى أفياؤها(٣)

والدليل على أن هذه الهمزة مبدلة من الهاء، رجوعها فى التصغير والتكثير، قالوا فى تصغير ماء مُوَيه، وفى جمعه مياه وأمواه. والتصغير والتكثير يردان الأشياء إلى أصولها .

وقد أكد ابن عصفور إبدال الهمزة من الهاء بقوله : «وإنما جعلت الهاء هى الأصل،

---

(١) العسكريات ١٥٣ .

(٢) انظر سر الصناعة ١/١١٣ . والتبصرة ٨١٥ وشرح المفصل لابن الحاجب ٢/٣٩٦. والممتع ١/٣٤٨ وابن يعيش ١٠/١٥ والأشباه والنظائر ١/١٣٥ والأشمونى والصبان ٤/٢١٣، ٢٢٣ .

(٣) سر الصناعة ١/١١٣ وشرح الشافية ٣/١٠٨ والممتع ١/٣٤٨ وشرح المفصل لابن الحاجب ٢/٣٩٦ وابن يعيش ١٠/١٥.

لأن أكثر تصاريف الكلمة عليها، قالوا : أمواه ومياه وماهت الركية[1]. إلى غير ذلك من تصاريفها»[2].

وكذلك ورد إبدال الهمزة من الهاء فى قولك : (آل)[3]، وأصل آل : أهل فأبدلت الهاء همزة فقيل : أأل، ثم أبدلت الثانية ألفا لسكونها إثر فتح فقيل : آل، كما قالوا آدم وآخر فى الاسم، وآمن وآثر فى الفعل، والأصل : أأدم وأأخر، وأأمن وأأثر.

والدليل على أن أصل آل : أهل قول الجماعة فى التصغير : أُهَيْل، ولو كانت الألف منقلبة عن غير هاء - أى عن واو - لقيل فى تصغيره (أُوَيْل). وقد اختار هذا الرأى يونس[4].

ومما يؤكد أن الهمزة فى (آل) أصلها هاء الإضافة إلى الضمير، فقد قالوا أهلك وأهله كثيرا، لأن الضمير يرد الأشياء إلى أصولها. ولا يقال : آلك وآله إلا قليلا، وذلك مثل قول عبد المطلب جد النبى ﷺ :

وانصر على دين الصليـ ... ـب وعابديه اليوم آلَكْ[5]

وقول الآخر :

أنا الرجل الحامى حقيقة والدى ... وآلى كما تحمى حقيقة آلكا[6]

ونحو قول الكنانى : «رجل من آلك وليس منك»[7].

وجاء إبدال الهمزة من الهاء - أيضا - فى اسم الإشارة حيث إنهم قالوا فى هذا آذا. وجاء على ذلك قول الشاعر :

فقال فريق: آ أذا إذ نحوتهم ... نعم وفريق لَا يْمُنُ الله ما ندرى[8]

أراد : أهذا، فقلبت الهاء همزة، ثم فصل بين الهمزتين بألف، وأبدلت كذلك فى غير اسم الإشارة، مثل قولهم : الأزل والهزل، وهو مأزول ومهزول[9].

وأما إبدالها فى الحرف فقد ورد فى : هَلْ وهَلَّا. فقالوا : ألْ فعلت كذا ؟ يريدون هل

---

(1) ماهت : ظهر ماؤها وكثر.
(2) الممتع ١/٣٤٨.
(3) انظر التصريف الملوكى ٣٩. وسر الصناعة ١/١١٤ والإبدال والمعاقبة والنظائر للزجاجى ٢٩ والممتع ١/٣٤٨.
(4) التصريف الملوكى ٣٩.
(5) الممتع ١/٣٤٩ والدرر اللوامع ٢/٦٢ وتاج العروس (أهل).
(6) الممتع ١/٣٤٩.
(7) المصدر السابق ١/٣٥٠.
(8) الكتاب ٢/١٤٧ وسر الصناعة ١/١٣٠ والممتع ١/٣٥١ والإنصاف ٤٠٧ والإبدال والمعاقبة ص٣٠ والمغنى ١٠١.
(9) الإبدال والمعاقبة ص٣٠.

فعلت كذا؟ حكى ذلك قطرب[1] عن أبى عبيدة. وقالوا : ألاَّ فعلت يريدون هلاَّ فعلت .

والإبقاء على الأصل فى (هل) هو الأكثر، بيد أن الهمزة والهاء فى ألاَّ وهلا سواء .

وقد عدهما بعض النحويين[2] من حروف التحضيض، كما ذهب غيرهما إلى أنهما مادتان مستقلتان[3]. فالهمزة أصلية فى (ألاّ) كما أن الهاء أصلية فى (هلاّ) بخلاف (هل وأل) فإن الاستفهام بهما ليس على درجة واحدة، لكثرة الاستفهام ووضوحه بهل، وندرته بألْ .

وجاء إبدال الهمزة من الهاء ـ فى غير ما تقدم ـ على قلة فى اسم الفعل[4]. قالوا فى هيهات : أيهات .

فإبدال الهمزة من الهاء إبدال قياسى، وهما من مخرج واحد. وكونهما من مخرج واحد جدير بأن يقوى هذا الإبدال ويؤكده.

قال الصيمرى : «قلبت الهاء همزة، لأنها من مخرج الهاء، وهى أقوى منها فى الصوت»[5].

ولكن ابن يعيش[6] ذهب إلى أن هذا الإبدال إنما تم لضرب من التقاص. وذلك لكثرة إبدال الهاء من الهمزة على العكس .

وذلك أمر يقتضينا الإشارة إلى إبدال الهاء من الهمزة ـ عكس ما تقدم ـ حتى نلم بأطراف المسألة. ونؤكد الظاهرة التى ارتضاها ابن يعيش .

٢ ـ إبدال الهاء من الهمزة :

ذهب ابن الأنبارى وابن عصفور وابن يعيش إلى أن الهاء تبدل من الهمزة فى مواضع كثيرة من كلام العرب[7]. وهذا الإبدال وارد فى الاسم والفعل والحرف .

(أ) إبدالها فى الاسم :

أما إبدالها فى الاسم فقد ورد فى : إياك. قالوا : هياك. قال الشاعر :

فهياك والأمر الذى إن توسعت ... موارده ضاقت عليك مصادره[8]

---

(١) الممتع ١/٣٥١.

(٢) ابن النحويين فى شرحه للمفصل ٢/٣٩٦.

(٣) انظر حاشية الصبان ٤/٢٢٣.

(٤) أمالى ثعلب ٥٤٧ وابن يعيش ١٠/١٥ والمزهر ٢/٤٧٣ والأشباه والنظائر ١/٣٩٧.

(٥) التبصرة والتذكرة ص٨١٥.

(٦) شرح المفصل ١٠/١٥.

(٧) انظر الإنصاف ١٣١. والممتع ١/٣٩٧ وشرح المفصل ٨/١١٨ والأشباه والنظائر ١/١٣٥.

(٨) التصريف الملوكى ٤٤. والوجيز ٥٤ والإنصاف ١٣١ وشرح المفصل ٨/١١٨ والممتع ١/٣٩٧.

وقال الآخـــــر : (١)

يا خال هلا قلت إذ أعطيـتـنـي   هيـاك هيـاك وحـنـواء الـعـنـق(٢)

كما ورد قولهم : هِبْرِيَّة، والأصل فيه : إبرية، وهو الحزاز فى الرأس .

وقالوا فى مهيمن، أصله : مؤيمن فأبدلت الهمزة هاء(٣).

(ب) إبدالها فى الفعـــــل :

وأما إبدالها فى الفعل فقد ورد فى قولهم : أنرت الثوب، وأرحت الماشية وأرقت الماء، وأردت الشىء، فأبدلوا فى الجميع الهاء من الهمزة فقالوا : هنرت الثوب، وهرحت الماشية، وهرقت الماء، وهردت الشىء. وذلك لاتفاقهما مخرجا لأنهما من أقصى الحلق(٤).

(جـ) إبدالها فى الحــــرف :

وأما إبدالها فى الحرف فقد ورد فى همزة إنَّ المؤكدة، وإنْ الشرطية، وأيَا فى النداء، وفى همزة الاستفهام، وإليك بيان ذلك .

جاء إبـدال الهـاء من همزة إنَّ المشـددة المكسـورة مع اللام . وذلك على طريق اللزوم حيث قالوا : يهَنَّكَ قائم، قال الشاعر :

ألايـا سنـا برق على قُلَل الحِـمْـىَ   لَهِنَّـك من برق عَلَىَّ كريـم(٥)

وكذلك أبدلت من همزة (إنْ) الشرطية(٦) مثل قولهم : هِنْ فعلت. تريد : إنْ فعلت. وهى لغة طىء(٧).

وأما إبدالها من همزة (أَيَا) فى النداء ففى قولهم : هيا وأيا، وإن كان أيا أكثر من هيا. قال الشاعر :

وانـصـرقـت وهى حَصَـان مُغْضَبَـهْ   ورفـعـت بصـوتها هَيَـا أَبـه(٨)

---

(١) انظر الإبدال السكيت ٢٥ والوجيز ٥٣ والإنصاف ١٣١ .
(٢) حنواء العنق : التى تميل عنقها من الإبل والغنم .
(٣) التصريح ٢/٣٦٨ .
(٤) الإنصاف ١٣٢ .
(٥) انظر مجالس ثعلب ١١٣ والخصائص ١/٣١٥ والممتع ١/٣٩٨ وابن يعيش ١٠/٤٢ واللسان (لهن) .
(٦) أنظر شرح الشافية ٣/٢٢٢ والممتع ١/٣٩٧ .
(٧) المفصل للزمخشرى ص ٣٧٠ .
(٨) الممتع ١/٣٩٩ .

وإبدالها من همزة الاستفهام فى مثل قولهم : هَزَيْدُ منطلقٌ. يريدون : أزيد منطلق. وأنشد الفراء :

وأتـى صواحـبهـا فقلن: هذا الـذى منـح المـودة غيرنـا وجـفـانـا[1]

يريـدون : أذا الـذى. بإبـدال الهاء من الهمزة. فإبدال الهاء من الهمزة مقصور على السماع ـ كما بينا ـ غير أن ابن يعيش[2] جعله كثيرا، وقاس عليه إبدال الهمزة من الهاء، وجعله ضربا من التقاص. أى أن كل واحد منهما أخذ حكما أخذه منه الآخر. فإبدال الهمزة من الهاء، تم لأن الهاء أبدلت من الهمزة. فكل منهما فعل بالآخر مثل ما فعل الآخر به، وهذا الضرب هو الذى عرف لدى النحاة بالتقاص، وارتضوه سمة لهذه الظاهرة، ومصطلحا لهذه القاعدة.

٣ ـ قلب الهمـــــزة واواً :

تبين لنا مما تقدم أن ظاهرة التقاص تتأتى فى إبدال الهمزة من الهاء، وإبدال الهاء من الهمـزة. ونبـين الآن ورودهـا بين الواو والهمزة، ويتحقق ذلك فى إبدال كل منهما من الآخر. فالهمزة تقلب واواً، كما أن الواو تقلب همزة، ويتضح ذلك على النحو التالى :

(أ) قلب الهمـــــزة واواً :

تبدل الهمزة واواً فى عدة مواضع هى[3]:

١ ـ أن تكـون الهمـزة للتأنيث، فإنهـا تبـدل واواً باطـراد على سبيـل اللزوم فى التثنية والجمـع بالألف والتـاء والنسب. فتقول فى صحراء وعشراء ونفساء : صحراوين وعشراوين ونفساوين، وصحراوات وعشراوات ونفساوات، وصحراوىّ وعشراوىّ ونفساوىّ.

٢ ـ أن تكـون الهمـزة قبـل الألف فى الجمـع الـذى لا نظـير له فى الآحاد، بشرط أن يكتنف ألف الجمـع همزتـان، وذلـك نحـو : ذوائب فى جمع ذؤابـة. أصله ذآئب، فأبـدلت الهمزة واواً هروباً من ثقل اجتماع الهمزتين والألف، وهذا الإبدال اطرادى لازم.

٣ ـ أن تقع الهمزة لاماً لجمع على مفاعل وقد سلمت فى المفرد، وذلك مثل : هِراوة، قالوا فى جمعه هراوى، بإبدال الهمزة واواً ليشاكل الجمع مفرده.

٤ ـ أن تلتقى همزتان فى كلمة وتسكن الثانية بعد ضم. فإنها يجب إبدالها واواً. وذلك

---

(١) انظر ابن يعيش ١٠/ ٤٣ وشرح الشافية ٣/ ٢٢٤ والممتع ١/ ٣٩٩.

(٢) ابن يعيش ١٠/ ٤٣.

(٣) انظر سر الصناعة ١٠٤ وما بعدها والتصريف الملوكى ٣٨ والتبصرة ٨١٤ والإنصاف ٤٧٧ والممتع ١/ ٣٦٣ والتصريح ٢/ ٣٧٢ والأشباه والنظائر ١/ ١٣٥ والأشمونى ٤/ ٢١٤.

نحو : أومن وأوثر. والأصل : أؤمن وأؤثر. إلا أنه رفض الأصل هروبا[1] من اجتماع همزتين .

٥ ـ أن تكون الثانية مضمومة مطلقا . أى سواء انضم ما قبلها أو انفتح أو انكسر، أو تكون مفتوحة بعد فتح أو ضم . وذلك مثل : أُومٌ ، وأَوُمّ وإِوُمّ . والأصل : أُؤْم ، وأَؤُم ، وإِؤُم . ومثل أُوَيْدم تصغير آدم . وأوادم جمع آدم . والأصل : أُؤَيْدم وأاادم . فأبدلت الثانية فى الجميع واواً . وهذا الإبدال قياسى مطرد لازم .

(ب) قلب الواو همــــــزة :

تقدمت مواضع قبل الهمزة واواً ، وأمر هذه المسألة يحتم علينا ذكر المواضع التى تبدل فيها الواو همزة حتى ينكشف وجه هذه الظاهرة ، ونصل إلى النتيجة التى نرجوها .

ومن المقرر فى هذا الباب[2] أن الواو تقلب همزة فى خمسة مواضع :

١ ـ أن تتطرف إثر ألف زائدة مثل : كساء وسماء ودعاء . والأصل : كساو وسماو ودعاو .

٢ ـ أن تقع عينا لاسم فاعل فعل ثلاثى أعلت عين فعله نحو : صائم وقائم ، والأصل : صاوم وقاوم .

٣ ـ أن تقع مدة ثلاثية زائدة فى المفرد إذا كان جمعه على مثال مفاعل . نحو : عجائز ورعائف جمعى عجوز ورعوفة ، والأصل عجاوز ورعاوف .

٤ ـ أن تقع ثانى لينين اكتنفهما ألف مفاعل مثل : أوائل وسيائد . والأصل : أواول وسياود فى جمع أول وسيد .

٥ ـ أن تتصدر فى الكلمة واوان . فإن الأولى منهما تقلب همزة بشرط أن لا تكون الثانية منهما مدة غير أصلية ، أى : أن تكون الثانية غير مدة وذلك نحو قولك فى جمع الأولى أنثى الأول أُوَل . والأصل : وُوَل ونحو ذلك فى جمع واصلة وواقية تقول : أواصل وأواق ، والأصل : وواصل ، ووواق .

أو تكون الثانية مدة أصلية نحو : الأولى أنثى الأول . أصلها وولى بواوين أولاهما فاء ، والثانية عين ساكنة .

---

(١) ينظر الممتع ١/ ٣٦٦ .
(٢) أى باب الإبدال والإعــــلال .

هذه هى مواضع قلب الواو همزة، وقد تقدمت مواضع قلب الهمزة واواً .

وقد تم هذا القلب المتبادل بين الواو والهمزة على طريق المقاصة . لأن الهمزة وإن لم تكن من حروف العلة، فهى شبيهة بالألف، ولهذا عدها بعض الصرفيين[1] من حروف العلة .

وأيا ما كان فإن الألف أخف حروف العلة، وكذلك ما أشبهها وهو الهمزة بخلاف الواو فإنها أثقلها .

فاللجوء - حينئذ - إلى قلب الواو همزة لجوء إلى التخفيف، لأنه انتقال من الثقل إلى الخفة . بخلاف العكس، وهو قلب الهمزة واواً . لأنه انتقال من الخفيف إلى الثقيل .

لهذا كان قلب الهمزة واواً فى نحو صحراء وعشراء ونفساء فى التثنية والجمع بالألف والتاء، والنسب[2]، انتقال من الخفة إلى الثقل، لأن الهمزة أخف من الواو - كما علمنا - ولكن ذلك تم على سبيل التقاص .

فكما أن الواو قلبت همزة . كذلك أبدلت الهمزة واواً على طريق المبادلة والمقاصة، نظرا لتحقيق الشبه بينهما، بسبب أن الهمزة شبيهة بالألف وهى حرف علة .

بيد أن ابن «فلاح» جعل هذه الظاهرة[3] متحققة بإبدال الهمزة واواً فى الجمع بالألف والتاء فقط . فى مثل صحراء وصحراوات . أى أنه قصر المقاصة على جمع المؤنث السالم، اقتصاصا من قلب الواو همزة .

ونحن إذ نقدر لابن فلاح جهده فى الإشارة إلى هذه الظاهرة، وفيما ذهب إليه . نرى أنه لا ضير من جعل المقاصة شاملة لكل المسائل التى تقلب فيها الهمزة واواً، اطراداً للقاعدة، وشمولا للظاهرة، وتثبيتا للقياس، وتعميما للمصطلح، وتوسعاً فى أساليب اللغة، لأنها - بلاشك - تقبل ذلك ولا تضيق به .

---

(١) رضي الدين الإستراباذى فى شرحه للشافية أول باب الإعلال ٣/ ٧٩ .
(٢) الممتع ١/ ٣٦٣ .
(٣) الأشباه والنظائر ١/ ١٣٥ .

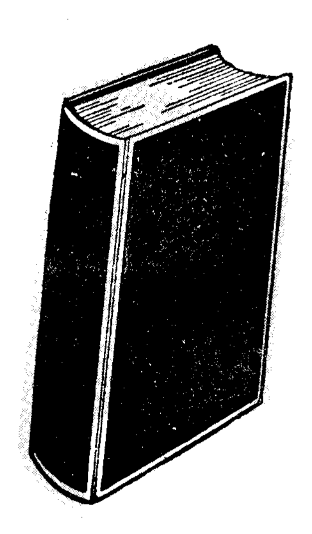
ثالثا : فى زيادة بعض الحـــــروف :

من المقرر أن ـ اللام ألف ـ أصلها الألف التى هى مَدَّةَ ساكنة ، ولكنها دُعِمت باللام قَبْلها متحركة ليمكن الابتداء[1] بها ، وليصح النطق كما صح بسائر الحروف غيرها . لأن الساكن لا يمكن الابتداء به .

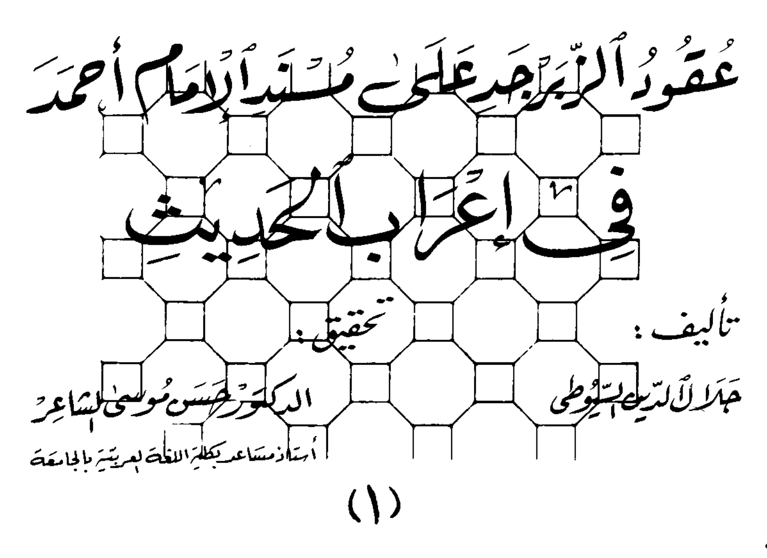
وإنما دُعمت باللام قبلها ولم تُدعَم بهمزة الوصل التى يؤتى بها توصلا إلى النطق بالساكن ، لأنه لا يمكن الإتيان بها قبل الألف ، ولأن ذلك يؤدى إلى نقض الغرض الذى قصدوا له ، لأن همزة الوصل قد تأتى مكسورة ، ولو كسرت لانقلبت الألف ياءً مكسورة لانكسار ما قبلها .

فيقال : (اِيْ) فلا تصل إلى الألف التى اعتمدت[2] عليها ، فلما لم يجز ذلك ، عَدَلوا إلى اللام دون غيرها ، لأن العرب توصلوا إلى النطق بلام التعريف بزيادة الألف قبلها ، توصلا إلى النطق بها ، فحركوا الألف فصارت همزة ، وجعلوها همزة[3] وصل نحو : الغلام والفرس والجارية . فلما افتقرت الألف إلى حرف جىء باللام قبلها فى (لا) توصلا إلى النطق بالألف الساكنة ليكون ذلك ضرباً من التقاص والتعويض بين الحرفين فصار لا .

وبالله التوفيـــــق . . .



(١) سر صناعة الإعراب ١/ ٤٨ ومنثور الفوائد لابن الأنبارى ص ٧٥.
(٢) سر الصناعة ١/ ٤٩.
(٣) منثور الفوائد ٧٥ .



(١)

تمهيـــــد :

أوَّلا : جلال الدين السـيوطى(١) :

لقد أعاننا السيوطى فى معرفة سيرة حياته وشيوخه ومؤلفاته ؛ إذ ترجم لنفسه فى كتابه حُسن المحـاضـرة، عنـد الكـلام على من كان بمصـر منِ الأئمـة المجتهدين . قال : «وإنما ذكرت ترجمتى فى هذا الكتاب اقتداء بالمحدثين قبلي، فقلَّ أن ألفَّ أحد منهم تاريخاً إلاّ ذكر ترجمته فيه . . .» .

---

(١) انظر ترجمة السيوطى ومؤلفاته : حسن المحاضرة للسيوطى ١/٣٣٥-٣٤٤ .
ترجمة جلال الدين السيوطى لتلميذه الداودى/مخطوطة بمكتبة عارف حكمت رقم ١٧٣ مجاميع .
البدر الطالع للشوكانى ١/٣٢٨ .
الضوء اللامع للسخاوى ٤/٦٥ .
الكواكب السائرة للغزى ١/٢٢٦ .
شذرات الذهب لابن العماد ٨/٥١ .
السيوطى وجهوده فى الدراسات اللغوية- رسالة ماجستير أعدها الأستاذ محمد يعقوب تركستانى بجامعة أم القرى .
فهرست مؤلفات السيوطى/مخطوطة بمكتبة عارف حكمت رقم ١٧٣ مجاميع .
مكتبة الجلال السيوطى - تأليف أحمد الشرقاوى جلال الدين السيوطى - بحوث ألقيت فى الندوة التى أقامها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية/ الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٧٨م .
الأعلام للزركلي ٤/٧١ .
معجم المؤلفين - عمر كحالة ٥/١٢٨ .
تدريب الراوى للسيوطى / المقدمة .

حياتــــه وشـــيوخه :

هو أبـو الفضـل جلال الـدين عبـد الرحمن بن كمال الدين أبي بكر بن محمد بن سابق الدين . . . الخضيرى الأسيوطى الشافعى .

نسب إلى أسيـوط ، مدينـة معـروفة بمصر . وأما نسبة «الخضيرى» فيرجح السيوطى أنها نسبة إلى محلة ببغداد ، وقد قيل إن جدّه الأعلى كان أعجمياً أو من الشرق .

ولـد السيـوطى بعـد المغـرب ليلة الأحـد مستهل رجب سنة ٨٤٩هـ وتوفي والده سنة ٨٥٥هـ ولـه من العمـر خمس سنـوات وسبعـة أشهر ، وكان قد وصل فى حفظ القرآن الكريم إلى سورة التحريم ، فنشأ يتيماً ، وأسندت وصايته إلى جماعة منهم كمال الدين بن الهمام .

حفظ القرآن الكريم وله دون ثماني سنين ، ثم حفظ العمدة ، ومنهاج الفقه والأصول ، وألفية ابن مالك .

وشـرع يشتغـل بالعلم من مستهلّ سنة ٨٦٤هـ فلازم كثيراً من شيوخ عصره ، وأجيز بتدريس العربية فى مستهل سنة ٨٦٦هـ وبدأ بالتأليف في هذه السنة ، فكان أول شىء ألفه شرح الاستعـاذة والبسملة ، وأوقف عليـه شيخـه علم الـدين البلقينى فكتب عليه تقريظاً ، ولازمـه فى الفقـه إلى أن مات سنـة ٨٦٨هـ ولـزم فى الفقـه أيضاً شيخ الإسلام شرف الدين المناوي آخر علماء الشافعية المتوفى سنة ٨٧١هـ وقرأ على الشمس السيرامي صحيح مسلم إلّا قليلاً منه ، والشفا ، وألفية ابن مالك ، وقطعة من التسهيل وأجازه بالعربية وغيرها .

ولزم فى الحديث والعربية شيخه تقى الدين الشمنيّ الحنفي المتوفى سنة ٨٧٢هـ فواظبه أربع سنين وكتب له تقريظاً على شرح ألفية ابن مالك «البهجة المرضية» وعلى تأليفه «جمع الجوامع فى العربية» .

ولزم شيخه العلامة محيي الدين الكافيجى أربع عشرة سنة حتى مات وذلك من سنة ٨٦٥ـ٨٧٩هـ وأخذ عنه التفسير والأصول والعربية والمعاني .

وقد سافر السيوطى إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب ، ولما حجّ شرب من ماء زمـزم لأمـور : منهـا أن يصل فى الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البلقينى وفى الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر .

ولمـا بلغ السيـوطى أربعـين سنة ترك التدريس والإفتاء وتجردّ للعبادة ، وشرع فى تحرير مؤلفاته ، ثم قطع صلته بالحياة العامة واعتكف بمنزله فى جزيرة الروضة بالمنيل ، ولم يتحول

عنها إلى أن مات فى سحر ليلة الجمعة تاسع عشر جمادى الأولى سنة ٩١١هـ رحمه الله تعالى .

مصنفاتـــــه :

قضى السيوطى حياته فى تحصيل العلم والدرس والتصنيف، وتنوعت ألوان ثقافته حتى صار إماماً فى كثير من العلوم .

قال فى كتاب حسن المحاضرة(١) : «ورزقت التبحر فى سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع، على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة، والذى أعتقده أن الذى وصلت إليه من هذه العلوم السبعة سوى الفقه والنقول التى اطلعت عليها فيها، لم يصل إليه ولا وقف عليه أحد من أشياخى، فضلاً عمنّ دونهم . وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه، بل شيخى أوسع نظراً وأطول باعاً . ودون هذه السبعة فى المعرفة : أصول الفقه والجدل والتصريف، ودونها الإنشاء والترسل والفرائض، ودونها القراءات - ولم آخذها عن شيخ - ودونها الطب . وأما علم الحساب فهو أعسر شىء عليّ وأبعده عن ذهنى، وإذا نظرت فى مسألة تتعلق به فكأنما أحاول جبلاً أحمله .

«وقد كملت عندي آلات الجهاد بحمد الله تعالى، أقول ذلك تحدثاً بنعمة الله تعالى لا فخراً، وأي شيء فى الدنيا حتى يطلب تحصيله بالفخر، وقد أزف الرحيل، وبدأ المشيب، وذهب أطيبُ العمر . ولو شئت أن أكتب فى كل مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية، ومداركها ونقوضها وأجوبتها، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرتُ على ذلك من فضل الله، لا بحولي ولا بقوتي فلا حول ولا قوة إلّا بالله، ما شاء الله، لا قوة إلّا بالله .

«وقد كنت فى مبادىء الطلب قرأت شيئاً فى علم المنطق، ثم ألقى الله كراهته فى قلبى، وسمعت أن ابن الصلاح أفتى بتحريمه فتركته لذلك، فعوّضني الله تعالى عنه علم الحديث الذى هو أشرف العلوم» .

وقد ترك السيوطى عدداً ضخماً من المصنفات فى أكثر الفنون ما بين مجلدات ورسائل صغيرة وقد ذكر فى كتابه حسن المحاضرة أن مؤلفاته إلى ذلك الوقت بلغت ثلاثمائة كتاب سوى ما غسله ورجع عنه(٢) .

---

(١) حسن المحاضرة ١/٣٣٨ .
(٢) حسن المحاضرة ١/٣٣٨ .

وللسيوطى رسالة خاصة فهرس فيها مؤلفاته ورتبها على الفنون(1). وقد أحصيت مؤلفاته فيها فبلغت **٥٥٢** مؤلفاً .

وقد عمل الأستاذ أحمد الشرقاوى إقبال كتاباً ضخماً لمؤلفات السيوطى رتبه على حروف المعجم وسماه «مكتبة الجلال السيوطى» قال فى مقدمته : أحصيت فى هذا الفهرست التآليف السيوطية ، فكانت **٧٢٥** عدداً ، أخرجت منها الطباعة نيفاً ومائتين . . .

ثانيا : الكتب المصنفة فى إعراب الحديث :

النحـــاة والحديث :

الحديث النبوي أصل من أصول النحو، ومصدر من مصادره السماعية ، ولكن الناظر فى كتب النحو يتملكه العجب وهو يرى قلة احتجاج النحاة بالحديث وكثرة استشهادهم بالشعر. وقد غلب هذا الاتجاه على النحاة الأوائل ، وقلدهّم من جاء بعدهم . ثم اختلف موقف النحاة بعد ؛ فمنهم من قويت عنايته بالحديث والاحتجاج به كابن الطراوة (**٥٢٨**هـ) والزمخشري (**٥٣٨**هـ) والسهيلي (**٥٨١**هـ) وابن خروف (**٦١٠**هـ) وابن يعيش (**٦٤٣**هـ) ، وبلغ الأهتمام بالحديث أوجه عند ابن مالك الأندلسي (**٦٧٢**هـ) الذي يعدّ إمام الاحتجاج بالحديث النبوى .

وقد لخصّ السيوطى مذهب ابن مالك فى الاحتجاج فقال : «كان أمة فى الاطلاع على الحديث ، فكان أكثر ما يستشهد بالقرآن ، فإن لم يكن فيه شاهد عدل إلى الحديث ، فإن لم يكن فيه شاهد عدل إلى أشعار العرب»(2) .

وهكذا مهّد ابن مالك السبيل لمن جاء بعده ، فسار على دربه ابن هشام (**٧٦١**هـ) والدماميني (**٨٢٧**هـ) والأشموني (**٩٢٩**هـ) وغيرهم .

ومن النحاة من تزعم منع الاحتجاج بالحديث، وأشهرهم اثنان : ابن الضائع (**٦٨٠**هـ) وأبو حيان الأندلسي (**٧٤٥**هـ) ، وذلك لأمرين : أحدهما أن الرواة جوّزوا نقل

---

(1) فهرست مؤلفات السيوطى / مخطوط بمكتبة عارف حكمت رقم ١٧٣ مجاميع .

(2) بغية الوعاة بتحقيق محمد أبو الفضل ١/ ١٣٤ .

الحديث بالمعنى ، والثانى أن كثيراً من رواة الحديث كانوا غير عرب بالطبع فوقع اللحن فى نقلهم[1] .

وقد رجح معظم المتأخرين مذهب ابن مالك فى الاحتجاج بالحديث ، وذلك لشدّة عناية المحدثين برواية الحديث وورعهم فى نقله ، وتمييز الأحاديث الصحيحة من غيرها ، بعد الجهد العظيم الذي بذله علماء الحديث .

ومن العجيب أن الإمام السيوطى ، وهو صاحب المصنفات الكثيرة فى الحديث ، ذهب إلى عدم الاحتجاج بالحديث فيما خالف القواعد النحوية ، وصحح مذهب ابن الضائع وأبى حيان . فقال فى كتابه الاقتراح : وأما كلامه ﷺ فيستدل منه بما ثبت أنه قاله على اللفظ المرويّ ، وذلك نادر جداً ، إنما يوجد فى الأحاديث القصار على قلة أيضا» فإن غالب الأحاديث مرويّ بالمعنى ، وقد تداولتها الأعاجم والمولدون قبل تدوينها ، فرووها بما أدّت إليه عباراتهم ، فزادوا ونقصوا ، وقدموا وأخروا ، وأبدلوا ألفاظاً بألفاظ . ولهذا ترى الحديث الواحد فى القصة الواحدة مروياً على أوجه شتى بعبارات مختلفة ، ومن ثم أنكر على ابن مالك إثباته القواعد النحوية بالألفاظ الواردة فى الحديث»[2] .

وكرر السيوطى هذا الرأي فى كتابه همع الهوامع فقال :

« . . . وقد بينت فى كتاب أصول النحو من كلام ابن الضائع وأبى حيان أنه لا يستدل بالحديث على ما خالف القواعد النحوية ، لأنه مروى بالمعنى لا بلفظ الرسول ، والأحاديث رواها العجم والمولدون لا من يحسن العربية ، فأدوها على قدر ألسنتهم»[3] .

كما ذكر السيوطى هذا الرأي أيضا فى كتابه عقود الزبرجد حيث قال :

«اعلم أن كثيراً من الأحاديث روتها الرواة بالمعنى ، فزادوا فيها ونقصوا ، ولحنوا وأبدلوا الفصيح بغيره ، ولهذا تجد الحديث الواحد يروى بألفاظ متعددة ، منها ما يوافق الإعراب والفصيح ، ومنها ما يخالف ذلك» .

ثم ينقل السيوطى كلام ابن الضائع وأبي حيان فى هذا المجال .

---

(١) راجع موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث ـ فى الفصل الثاني من كتابنا النحاة والحديث النبوي .
(٢) الاقتــــراح ص ١٦ .
(٣) همع الهوامع ٢/ ٤٢ بتحقيق د. عبد العال سالم .

التصنيف فى إعراب الحديث :

لقد كان لهذه المواقف المتضاربة من النحاة أن قلّ التصنيف فى إعراب الحديث، فلا نجد كتباً متخصصة فى إعراب الحديث غير ثلاثة كتب : الأول للعكبري ، والثانى لابن مالك، والثالث للسيوطى .

قال السيوطى فى مقدمة كتابه «عقود الزبرجد» :

« . . . وبعد فقد أكثر العلماء قديماً وحديثاً من التصنيف فى إعراب القرآن ولم يتعرضوا للتصنيف فى إعراب الحديث سوى إمامين : أحدهما الإمام أبو البقاء العكبرى . . . والثانى الإمام جمال الدين بن مالك . . . وقد استخرت الله تعالى فى تأليف كتاب فى إعراب الحديث مستوعب جامع . . . »

وفيما يلى وصف لهذه المصنفات :

(١) إعراب الحديث النبوي ـ للإمام العكبرى (٥٣٨-٦١٦هـ) :

أبو البقاء محب الدين عبد الله بن الحسين العكبرى الأصل، البغدادى المولد والدار، الفقيه الحنبلى الحاسب الفرضى النحوي الضرير(١).

برع أبو البقاء فى فنون كثيرة وله مصنفات عديدة منها : إعراب القرآن واللباب فى علل البناء والإعراب، وشرح الإيضاح والتكملة لأبى على الفارسى، وشرح المفصل للزمخشري وغيرها .

وقد صنف أبو البقاء العكبرى أول كتاب فى إعراب الحديث(٢)، وأعتمد فى أخذ الأحاديث على كتاب جامع المسانيد لابن الجوزى (٥٩٧هـ) الذى جمع فيه مصنفه غالب مسند أحمد وصحيح البخاري ومسلم والترمذي .

قال أبو البقاء فى مقدمته :

« أما بعد فإن جماعة من طلبة الحديث التمسوا منى أن أملي مختصراً فى إعراب ما يشكل من الألفاظ الواقعة فى الأحاديث، وأن بعض الرواة قد يخطىء فيها، والنبي ﷺ

(١) أنظر ترجمته فى : الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب ٢/١٠٩، نكت الهميان للصفدي ١٧٨، الذيل على الروضتين لأبى شامة ١٩٩، انباه الرواة للقفطي ٢/١١٦، وفيات الأعيان لابن خلكان ٣/١٠٠، بغية الوعاة ٢/٣٨، شذرات الذهب ٥/٦٧ معجم الأدباء ٦/٤٦، البداية والنهاية ١٣/٨٥، الأعلام ٤/٢٠٨ .

(٢) حققت هذا الكتاب مع دراسة بعنوان «النحاة والحديث النبوي» وحصلت بها على درجة الدكتوراه من جامعة الأزهر بإشراف أستاذنا الدكتور أحمد كحيل. وقد طبعت الكتابين فى عمان .

وأصحابه بريئون من اللحن، فأجبتهم إلى ذلك، واعتمدت على أتمّ المسانيد وأقربها إلى الاستعياب وهو جامع المسانيد للإمام الحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، رحمه الله، مرتبة على حروف المعجم، والله الموفق للصواب».

ومجموع الأحاديث التى تعرّض العكبرى لإعرابها نحو ٤٣٠ حديثاً، كان يستشهد عليها بالقرآن والشعر، وقد يتعرض للخلافات النحوية، وقد يذكر العكبرى للرواية أكثر من إعراب. وإذا خرجت الرواية عن المألوف فى كلام العرب ولم يجد لها وجهاً فى قواعد النحاة حكم العكبري عليها باللحن.

(٢) إعراب الحديث ـ للإمام ابن مالك الأندلسى (٦٠٠-٦٧٢هـ):

أبو عبد الله جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني النحوي اللغوي المقرىء المحدث الفقيه الشافعى[١]. من أشهر مصنفاته: الكافية الشافية وشرحها، التسهيل وشرحه ـ لم يتم، الخلاصة الألفية فى النحو والصرف، شرح عمدة الحافظ وعدة اللافظ.

وقد صنف ابن مالك كتاباً فى إعراب الحديث سماه: «شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح»[٢]. وهو يقوم على إعراب مشكلات وقعت فى صحيح البخاري. ويتضح فيه منهج ابن مالك فى الاحتجاج بالحديث النبوي، واستنباط القواعد النحوية منه، ويستدل للأحاديث بالقرآن والشعر، ويخطىء النحويين فى عدد من المسائل. وهو بذلك يتميز عن منهج العكبرى الذي كان يلحّن الرواية أحياناً لمخالفتها قواعد النحاة.

(٣) إعراب الحديث ـ للإمام السيوطى (٨٤٩-٩١١هـ):

صنف السيوطى كتاباً ضخماً فى إعراب الحديث سماه: «عقود الزبرجد على مسند الإمام أحمد» اعتمد فيه غالباً على مسند الإمام أحمد، وضمّ إليه كثيراً من كتب الحديث.

قال فى مقدمته:

«... وقد استخرت الله تعالى فى تأليف كتاب فى إعراب الحديث، مستوعب جامع... وأجعله على مسند أحمد مع ما أضمه إليه من الأحاديث المزيدة، وأرتبه على حروف المعجم فى مسانيد الصحابة، وأنشىء له من بحار كتب العربية كل سحابة...»

---

(١) أنظر ترجمته فى: بغية الوعاة ١/١٣٠، البداية والنهاية ١٣/٢٦٧، نفح الطيب بتحقيق محمد محيى الدين ٢/٤٢١، طبقات النحاة واللغويين لابن قاضى شهبة ١٣٣، التسهيل / التمهيد.

(٢) حققه محمد فؤاد عبد الباقى، وطبع فى القاهرة ١٣٧٦هـ ١٩٧٧م.

وهكذا رتّب السيوطى كتابه على الطريقة التى رتب فيها العكبرى كتابه . والسيوطى مطّلع على إعراب الحديث للعكبرى وإعراب الحديث لابن مالك فينقل أقوالهما فى إعراب الحديث ويزيد عليها بما يعنّ له وما يراه من الأقوال الأخرى . فيقول :

«قد أوردت جميع كلام أبى البقاء معزوًّا إليه ، ليعرف قدر ما زدته عليه ، وتتبعت ما ذكره أئمة النحو فى كتبهم المبسوطة من الأعاريب للأحاديث فأوردتها بنصّها معزوّة إلى قائلها» .

والسيوطى ـ كعادته ـ جمّاعة للآراء لا يكاد يغفل عن نقل رأي منها له قيمته فى إعراب الحديث ، ولا نكاد نجد له دوراً فى الإعراب إلّا نادراً .

وأهم المصادر التى اعتمد عليها السيوطى فى إعراب الحديث :

١ ـ إعراب الحديث للعكبري ، وقد صرّح بنقله جميع كلامه .

٢ ـ إعراب الحديث لابن مالك .

٣ ـ شرح الطيبي على مشكاة المصابيح للتبريزي .

٤ ـ شروح صحيح البخاري للكرماني ، والزركشي ، والخطابي ، وابن حجر .

٥ ـ شروح صحيح مسلم للقاضي عياض ، والقرطبي ، والنووي .

٦ ـ شرح الكافية الشافية لابن مالك .

٧ ـ أقوال النحاة واللغويين فى مصنفاتهم كالزمخشري فى المفصل ، والرضي فى شرح الكافية ، والأندلسي فى شرح المفصل ، وابن يعيش فى شرح المفصل ، والجوهري فى الصحاح ، والزمخشري فى الفائق ، وابن الأثير فى النهاية فى غريب الحديث .

وقد اعتمدت فى تحقيق هذا الكتاب على ثلاث نسخ خطية ، الأولى فى دار الكتب المصرية ، والثانية فى أيا صوفيا ، والنسخة الثالثة فى الخزانة العامة بالرباط . وقد بذلت جهداً كبيراً فى تقويم النصّ والتعليق عليه ، وتوثيق الآراء والنقول ، وتخريج الأحاديث .

وقد آثرت تقديم مادة الكتاب على طريقة النص المختار ، واستبعدت الفروق بين النسخ ، لعدم حاجة القارىء إليها ، إلى أن يأذن الله بإتمام الكتاب ، وإعادة طبعه كاملاً .

ومن الله العون وبالله التوفيق . . .

* * *

كتاب
عقود الزبرجد على مسند الإمام أحمد
فى إعراب الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

[مقدمة الكتـــاب]

ربّ يسّـــر وأتمم بخير فأنت كريم . . .

الحمـد لله الـذى خصّ هذه الأمـة بالإسنـاد والإعراب ، وصلى الله على سيدنا محمد والآل والأصحاب .

وبعـــــد :

فقد أكثر العلماء قديماً وحديثاً من التصنيف فى إعراب القرآن ، ولم يتعرضوا للتصنيف فى إعـراب الحـديث سوى إمامين : أحدهما الإمام أبو البقاء العكبري ، فإنه لما ألّف إعراب القرآن المشهور[١] أردفه بتأليف لطيف فى إعراب الحديث ، أورد فيه أحاديث كثيرة من مسند أحمد وأعربها ، إلاّ أنه لاختصاره ، ونزرة ما أورده فيه من النزر القليل ، لا يروى الغليل ، ولا يشفى العليل .

والثـانى الإمـام جمال الـدين بن مالـك ، فإنـه ألّف فى ذلـك تأليفـاً خاصـاً بصحيـح البخاري ، يسمى «التوضيح لمشكلات الجامع الصحيح» .

وقـد استخـرت الله تعـالى فى تأليف كتـاب في إعـراب الحـديث ، مستوعب جامع ، وغيث على ريـاض كتب المسـانيـد والجوامع هامع[٢] ، شامل للفوائد البدائع شافٍ . كافلٍ بالنقـول والنصـوص كاف ، أنظم فيـه كُلَّ فريـدة ، وأسفر فيه النقاب عن وجه كل خريدة[٣] وأجعله على مسند أحمد مع ما أضمّه إليه من الأحاديث المزيدة ، وأرتّبه على حروف المعجم فى مسانيد الصحابة ، وأنشىء له من بحار كتب العربية كلَّ سحابة .

واعلم أن لي على كلّ كتاب من الكتب المشهورة فى الحديث تعليقة ؛ وهى الموطأ[٤] ،

---

(١) مطبوع باسم «إملاء ما منّ به الرحمن» . وقد حققه على البجاوى وطبعه باسم «التبيان فى إعراب القرآن» .

(٢) هامع أي ماطـــر .

(٣) الخريدة : البكر التى لم تُمْسَسَ . (القاموس) .

(٤) للسيوطى «تنوير الحوالك على موطأ الإمام مالك» مطبوع .

ومسند الشافعي[1]، ومسند أبي حنيفة[2]، والكتب الستة[3] ولم يبق إلاّ مسند أحمد. ولم يمنعني من الكتابة عليه إلاّ كبر حجمه جداً، وعدم تداوله بين الطلبة كتداول الكتب المذكورة، وقدّرت التعليقة عليه تجيء في عدة مجلدّات، والتعاليق التي كتبتها لا تزيد التعليقة منها على مجلد.

فلما شرح الله صدري لتصنيف هذا الكتاب، عرّفته بمسند أحمد، عوضاً مما كنت أرومه عليه من التعليقة، ولكونه جامعاً لغالب الحديث المتكلّم على إعرابه. فإن شئت فسّمه «عقود الزبرجد على مسند أحمد» وإن شئت فقل «عقود الزبرجد في إعراب الحديث» ولا تتقيدّ.

والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، موجباً للفوز بجنات النعيم، إنه البرّ الرحيم...

مقدمـــــة

[في الاستشهاد بالحديث]

اعلم أن كثيراً من الأحاديث روتها الرواةُ بالمعنى، فزادوا فيها ونقصوا، ولحنوا، وأبدلوا الفصيح بغيره، ولهذا تجد الحديث الواحد يروى بألفاظ متعددة، منها ما يوافق الإعراب والفصيح، ومنها ما يخالف ذلك[4].

وقد قال الحافظ فتح الدين بن سيد الناس[5]: إذا ورد الحديث على وجهين ما يوافق الفصيح وما يخالفه، فالموافق للفصيح هو لفظ النبي ﷺ لأنه لم يكن ينطق إلاّ بالفصيح.

---

(١) للسيوطي «الشافي العيّ على مسند الشافعي».

(٢) للسيوطي «التعليقة المنيفة على مسند أبي حنيفة».

(٣) للسيوطي عليها: التوشيح على الجامع الصحيح، والديباج على صحيح مسلم بن الحجاج، ومرقاة الصعود إلى سنن أبي داود، وقوت المغتذي على جامع الترمذي، وزهر الربى على المجتبى، ومصباح الزجاجة على سنن ابن ماجة.

(٤) ذكر السيوطي رأيه هذا في كتابه الاقتراح، ثم نقل فيه كلام ابن الضائع وأبي حيان. أنظر الاقتراح ص١٦-١٩. وراجع هذه المسألة بالتفصيل في كتابنا «النحاه والحديث النبوي».

(٥) فتح الدين بن سيد الناس: الإمام العلامة فتح الدين محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الأندلسي المصري الشافعي، ولد سنة ٦٧١هـ لازم ابن دقيق العيد وتخرج عليه وأخذ العربية عن البهاء النحاس. صنف السيرة الكبرى والصغرى. مات فجأة سنة ٧٣٤هـ

أنظر طبقات الشافعية للسبكي ٢٦٨/٩ ذيل تذكرة الحفاظ ١٦، ذيل طبقات الحفاظ للسيوطي ٣٥٠.

وقد نقل هذا الكلام عن المزنى[1].

قال أبوعاصم العبادي[2]ـ من متقدمى أصحابنا ـ فى طبقاته : قال المزني : لا يروى فى الحديث خطأ، فإن النبي ﷺ أفصح العرب، فلا يجوز أن يروى خطأ .

وقال أبوالحسن بن الضائع[3]ـ بالضاد المعجمة ـ فى شرح الجمل[4]:

«تجويز الرواية بالمعنى هو السبب عندى فى ترك الأئمة كسيبويه وغيره الاستشهاد على إثبات اللغة بالحديث، واعتمدوا فى ذلك على القرآن وصريح النقل عن العرب. ولولا تصريح العلماء بجواز النقل بالمعنى فى الحديث لكان الأولى فى إثبات فصيح اللغة كلام النبي ﷺ، لأنه أفصح العرب» .

قال : «وابن خروف[5] يستشهد بالحديث كثيراً فإن كان على وجه الاستظهار والتبرك بالمروى فحسن، وإن كان يرى أن من قبله أغفل شيئاً وجب عليه استدراكه فليس كما رأى.»

وقال أبوحيان[6] فى شرح التسهيل[7]:

«قد أكثر ابن مالك من الاستدلال بما وقع فى الأحاديث على إثبات القواعد الكلية فى لسان العرب، وما رأيت أحداً من المتقدمين والمتأخرين سلك هذه الطريقة غيره. على أن الواضعين الأوّلين لعلم النحو المستقرئين للأحكام من لسان العرب كأبي عمرو بن

---

(١) أبوإبراهيم إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل المزني المصري (١٧٥ـ٢٦٤هـ) كان إماماً ورعاً زاهداً، معظما بين أصحاب الشافعى، حدّث عن الشافعى ونعيم بن حماد وغيرهما. من مصنفاته : المبسوط، الجامع الكبير، الجامع الصغير، المختصر. أنظر: طبقات الشافعية للسبكى ٢/٩٣، طبقات الشافعي للأسنوي ١/٣٤ .

(٢) محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن عباد (٣٧٥ـ٤٥٨هـ) كان إماماً مفنناً مناظراً. من تصانيفه : المبسوط، طبقات الفقهاء. أنظر: طبقات الشافعية للسبكى ٤/١٠٤، طبقات الشافعية للأسنوي ٢/١٩٠ .

(٣) أبوالحسن على بن محمد المعروف بابن الضائع، بلغ الغاية فى النحو ولازم الشلوبين، وفاق أصحابه بأسرهم. ومن مصنفاته : شرح جمل الزجاجي. توفى سنة ٦٨٠هـ. أنظر بغية الوعاة ٢/٢٠٤ .

(٤) أنظر شرح الجمل لابن الضائع / مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٩ نحو جـ٢ ورقة ٧٢ .

(٥) أبوالحسن علي بن محمد المعروف بابن خروف الأندلسي، أخذ النحو عن ابن طاهر المعروف بالخِدَبّ. أقرأ النحو بعدة بلاد. من مصنفاته : شرح كتاب سيبويه، شرح الجمل توفى سنة ٦٠٩هـ. أنظر بغية الوعاة ٢/٢٠٣ .

(٦) محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطى، نحوى عصره ومفسره ومحدثه ومقرئه ومؤرخه وأديبه. من مصنفاته : البحر المحيط، التذييل والتكميل فى شرح التسهيل، ارتشاف الضرب من لسان العرب، توفى سنة ٧٤٥هـ. أنظر بغية الوعاة ١/٢٨٠ـ٢٨٥

(٧) انظر التذييل والتكميل/ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم٦٢ نحو جـ٥ ورقة : ١٦٨ـ١٧٠ .

العلاء[1]، وعيسى بن عمر[2]، والخليل، وسيبويه من أئمة البصريين، والكسائي[3]، والفراء[4]، وعلى بن المبارك الأحمر[5]، وهشام الضرير[6] من أئمة الكوفيين، لم يفعلوا ذلك. وتبعهم على هذا المسلك المتأخرون من الفريقين وغيرهم من نحاة الأقاليم، كنحاة بغداد وأهل الأندلس. وقد جرى الكلام فى ذلك مع بعض المتأخرين الأذكياء فقال: إنما ترك العلماء ذلك لعدم وثوقهم أن ذلك لفظ الرسول ﷺ، إذ لو وثقوا بذلك لجرى مجرى القرآن فى إثبات القواعد الكلية. وإنما كان ذلك لأمرين:

أحدهما: أن الرواة جوّزوا النقل بالمعنى فتجد قصة واحدة قد جرت فى زمانه ﷺ لم تقل بتلك الألفاظ جميعها. نحو ما روى من قوله «زوجتكها بما معك من القرآن» «ملكتكها بما معك» «خذها بما معك» وغير ذلك من الألفاظ الواردة فى هذه القصة، فنعلم يقيناً أنه ﷺ لم يلفظ بجميع هذه الألفاظ، بل لا نجزم أنه قال بعضها. إذ يحتمل أنه قال لفظاً مرادفاً لهذه الألفاظ غيرها، فأتت الرواة بالمرادف، ولم تأت بلفظه ﷺ، إذ المعنى هو المطلوب، ولاسيما مع تقادم السماع، وعدم ضبطه بالكتابة، والاتكال على الحفظ، والضابط منهم من ضبط المعنى، وأما ضبط اللفظ فبعيد جداً، لاسيما فى الأحاديث الطوال. وقد قال سفيان الثوري: إن قلت لكم إني أحدثكم كما سمعت فلا تصدقوني، إنما هو المعنى. ومن نظر فى الحديث أدنى نظر علم العلم اليقين أنهم إنما يروون بالمعنى.

الأمر الثانى: أنه وقع اللحن كثيراً فيما روى من الحديث، لأن كثيراً من الرواة كانوا غير عرب بالطبع، ولا يعلمون لسان العرب بصناعة النحو، فوقع اللحن فى كلامهم، وهم لا يعلمون ذلك. وقد وقع فى كلامهم وروايتهم غير الفصيح من لسان العرب، ونعلم قطعاً غير شك أن رسول الله ﷺ كان أفصح الناس، فلم يكن ليتكلم إلّا بأفصح اللغات وأحسن

---

(١) أبو عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة المشهورين، كان إمام أهل البصرة فى القراءات والنحو واللغة مات سنة ١٥٤هـ. أنظر بغية الوعاة ٢/٢٣١.

(٢) عيسى بن عمر الثقفى مولى خالد بن الوليد إمام فى النحو والعربية والقراءة، أخذ عن أبى عمرو بن العلاء وعبد الله بن أبى إسحاق. وصنف فى النحو الإكمال والجامع، توفى سنة ١٤٩هـ. أنظر بغية الوعاة ٢/٢٣٧.

(٣) على بن حمزة الكسائى، إمام الكوفيين فى النحو واللغة، وأحد القراء السبعة المشهورين توفى سنة ١٨٢هـ أنظر بغية الوعاة ٢/١٦٣.

(٤) يحيى بن زياد أبو زكريا الفراء، كان أعلم الكوفيين بالنحو بعد الكسائى، أخذ عنه وعن يونس. من مصنفاته: معانى القرآن، المقصور والممدود، المذكر والمؤنث. مات سنة ٢٠٧هـ. بغية الوعاة ٢/٣٣٣.

(٥) على بن المبارك الأحمر صاحب الكسائى، كان متقدماً فى النحو، واسع الحفظ. مات سنة ١٩٤هـ. بغية الوعاة ٢/١٥٨.

(٦) هشام بن معاوية الضرير النحوي الكوفى أحد أصحاب الكسائى. صنف مختصر النحو، الحدود، القياس. توفى ٢٠٩هـ. بغية الوعاة ٢/٣٢٨.

التراكيب وأشهرها وأجزلها، وإذا تكلم بلغة غير لغته فإنما يتكلم بذلك مع أهل تلك اللغة على طريق الإعجاز، وتعليم الله ذلك له من غير معلم .

وابن مالك قد أكثر من الاستدلال بما ورد فى الأثر، متعقباً بزعمه على النحويين، وما أمعن النظر فى ذلك .

(وابن المصنف رحمه الله كأنه موافق لأبيه فى استدلاله بما روي فى الحديث، فإنه يذكره على طريقة التسليم) .

وقد قال لنا قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة . وكان ممن أخذ عن ابن مالك ـ قلت له : ياسيدى هذا الحديث رواية الأعاجم، ووقع فيه من روايتهم ما يعلم أنه ليس من لفظ الرسول. فلم يجب بشىء .

قال أبو حيان : وإنما أمعنت الكلام فى هذه المسألة لئلا يقول مبتدىء : ما بال النحويين يستدلون بقول العرب وفيهم المسلم والكافر، ولا يستدلون بما روي فى الحديث بنقل العدول كالبخاري ومسلم وأضرابهما. فمن طالع ما ذكرناه أدرك السبب الذى لأجله لم يستدل النحاة بالحديث». انتهى كلام أبي حيان .

وقال القاضى عياض[1] فى شرح مسلم : قال الشعبى[2]: إذا وقع فى الحديث اللحن البيّن يعرب. وقاله أحمد بن حنبل. قال : لأنهم لم يكونوا يلحنون. وقال النسائى[3] إن كان شيئاً تقوله العرب فلا يغيّر، وإن لم يكن من لغة قريش، لأنه عليه الصلاة والسلام كان يكلم الناس بألسنتهم، وإن كان لا يوجد فى كلام العرب فرسول الله ﷺ لا يلحن .

---

(١) القاضي عياض بن موسى اليحصبي عالم المغرب ولد بسبتة سنة ٤٧٦هـ. قال ابن خلكان : إمام الحديث فى وقته وأعرف الناس بعلومه والنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم. ومن تصانيفه: «إكمال فى شرح مسلم»، مشارق الأنوار فى اقتفاء صحيح الآثار من الموطأ والصحيحين توفى سنة ٥٤٤هـ. أنظر تذكرة الحفاظ للذهبى ص١٣٠٤-١٣٠٧ .

(٢) الشعبي علامة التابعين، عامر بن شراحيل الهمدانى الكوفي، مولده فى أثناء خلافة عمر، كان إماماً حافظاً فقيهاً متقناً. . . أنظر تذكرة الحفاظ للذهبي ١/ ٧٩ .

(٣) الإمام الحافظ أبو عبد الرحمن بن شعيب الخراسانى صاحب السنن، ولد سنة ٢١٥هـ وتوفى سنة ٣٠٣هـ. برع فى الحديث وتفرد بالاتقان وعلو الاسناد. سكن مصر، وكان أفقه مشايخ مصر في عصره وأعلمهم بالحديث والرجال. . . أنظر تذكرة الحفاظ للذهبي ٢/ ٦٩٨ .

فصــــل
[فى عزو الأقـوال إلى أصحــابها]

قد أوردت جميـع كلام أبي البقـاء معـزوّا إليـه، ليعُرف قدر ما زدته عليه، وتتبعت ما ذكـره أئمـة النحـوفى كتبهم المبسـوطة من الأعاريب للأحاديث، فأوردتها بنصها معزوّة إلى قائلها، لأن بركة العلم عزو الأقوال إلى قائلها، ولأن ذلك من أداء الأمانة، وتجنب الخيانة، ومن أكبر أسباب الانتفاع بالتصنيف، لا كالسارق الذي خرج فى هذه الأيام فأغار على عدة كتب من تصـانيفى، وهى المعجـزات الكـبرى، والخصائص الصغرى، ومسالك الحنفاء، وكتاب الطيلسان وغير ذلك، وضمّ إليها أشياء من كتب العصريين، ونسب ذلك لنفسه من غير تنبيه على هذه الكتب التى استمد منها، فدخل فى زمرة السارقين، وانطوى تحت ربقة المـارقـين، فنسأل الله تعـالى حسن الإخلاص والخلاص، والنجاة يوم يقال للمعتدين لات حين مناص .

وقد رمزت على كل حديث رمز من أخرجه من أصحاب الكتب الستة المشتهرة، وإن لم يكن فيها ولا فى المسند صرّحت بذكر من أخرجه من أصحاب الكتب المعتبرة .

فائــــدة
[هل يتعدى «سمع» إلى مفعولين؟]

يتكرر كثيراً فى الحديث قول الراوى «سمعت رسول الله ﷺ يقول» وقد اختلف هل يتعدّى «سمعت»(١) إلى مفعولين ؟

فجّـوزه الفـارسى(٢)، لكن لابد أن يكون الثانى مما يُسْمَع، نحو : سمعت زيداً قال كذا. فلو قلت : سمعت زيداً أخاك، لم يجز .

---

(١) فصّل البغدادى القول فى استعمالات سمع فى خزانة الأدب جـ٩ ص١٦٧-١٧٣ بتحقيق هارون .

(٢) أبـوعلي الفـارسي : الحسن بن أحمـد عالم مشهـور أخذ عن الزجاج وابن السراج، وعنه أخذ ابن جني، له مصنفات كثيرة منها : الإيضاح والتكملة، والحجة، والبغداديات والتذكرة. توفى سنة ٣٧٧هـ. أنظر بغية الوعاة ١/٤٩٦-٤٩٧ .

والصحيح تعدّيه إلى مفعول واحد، وما وقع بعده منصوباً فعلى الحال، والأول على تقدير مضاف، أي سمعت قول رسول ﷺ، لأن السمع لا يقع على الذوات، ثم بيّن هذا المحذوف بالحال المذكور، وهى يقول، وهى حال مبيّنة، ولا يجوز حذفها .

وقال الزمخشري(١) فى قوله تعالى : ﴿سمعنا مناديا﴾(٢) : تقول سمعت رجلاً يتكلم، فتوقع الفعل على الرجل، وتحذف المسموع، لأنك وصفته بما يسمع، أو جعلته حالا منه، فأغناك عن ذكره . ولولا الوصف أو الحال لم يكن منه بدّ وأن يقال : سمعت كلامه .

وقال الطيبي(٣) : الأصل فى «سمعتُ رسول الله ﷺ يقول» : سمعتُ قول رسول الله، فأخر القول وجُعل حالاً ليفيد الإبهام والتبيين . وهو أوقع فى النفس من الأصل .

فائـــدة

[فى قولنا «رضى الله عنه» و «رضوان الله عليه»]

سئل الإمام أبو محمد بن السِّيد البَلْيوسى(٤) عن قولنا : «رضى الله عنه ورضوان الله عليه» هل (عليه) هنا مبدلة من (عنه) كما يتبدل بعض الحروف من بعض، فيسوغ فيها على وعن، أم ليست مبدلة ؟

فأجاب : ليست (على) هاهنا ببدل من (عن) التى حكم (رضى) أن يتعدى بها، بدليل أن (عليه) قد صارت خبراً عن المبتدأ، ولو كانت بدلاً من (عن) لكانت من صلة الرضوان، ولم يصح أن يكون خبراً عنه، وعن مضمنّه فى الكلام، كأنه قال : رضوان الله عنه سابغ عليه، أو واقع عليه، ونحو ذلك .

---

(١) محمود بن عمر أبو القاسم جار الله وفخر خوارزم ولد سنة ٤٩٧هـ. وجاور بمكة، من مصنفاته : الكشاف فى التفسير، المفصل فى النحو، الفائق فى غريب الحديث، أساس البلاغة. توفى سنة ٥٣٨هـ. أنظر بغية الوعاة ٢/ ٢٧٩-٢٨٠ .

(٢) آل عمران آية ١٩٣ . أنظر تفسير الكشاف ١/ ٤٨٩ .

(٣) الحسن بن محمد بن عبد الله الطيبي : كان آية فى استخراج الدقائق من القرآن والسنن، مقبلاً على نشر العلم . من مصنفاته : شرح الكشاف، شرح مشكاة المصابيح. توفى سنة ٧٤٣هـ. أنظر بغية الوعاة ١/ ٥٢٢ .

(٤) عبد الله بن محمد بن السّيد عالم باللغة والنحو والأدب. ومن مصنفاته : شرح أدب الكاتب، شرح الموطأ، شرح ديوان المتنبي، إصلاح الخلل الواقع فى الجمل. مات سنة ٥٢١هـ. بغية الوعاة ٢/ ٥٥ .

فائـــدة

[في إعراب غــير]

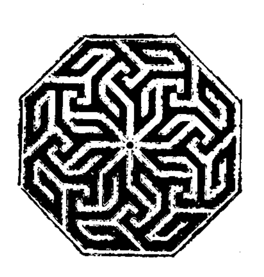
سئـل ابن الحـاجب[1] عن إعـراب (غير) في قولهم : هذا الحديثُ لا نعلمُ أحداً رواه عن فلان غير فلان ؛ أينصب غير أم يرفع؟ .

فأجـاب بما نصّـه : إن جعلت (نعلم) متعـديـاً إلى مفعولين أحدهما (أحداً) والثانى (رواه)، كما نقول : ما أظن أحداً رواه غيرُ فلان، وهو الظاهر، فالفصيح الرفع على البدل من الضمير المرفوع المستتر في (رواه) العائد على أحد، لأنه المنفى فى لا نعلم .

ويجوز نصبه على الاستثناء، وهى قراءة ابن عامر[2]، ولا يجوز أن يرفع على أن يكون فاعلاً برواه، لأن فى (رواه) ضمير فاعل عائد على أحد، فلا يستقيم أن يرفع به فاعل آخر .

فإن جعلت (نعلم) بمعنى نعـرف المتعـدي إلى واحـد، كان (رواه) صفة له، كأنك قلت : لا نعـرف راويـا غير فلان ؛ تعـينّ النصب، جعلتـه بدلاً أو استثنـاء، كقـولك : ما أكرمت أحداً راوياً غير زيد. فلا يجوز فى (غير) إلاّ النصب .

نقلته من خط ابن الضائع فى تذكرته، وهو نقله من خط ابن الحاجب .



---

(١) العـلامـة عثـمان بن عمـر المقرىء النحوى المالكى الأصولي الفقيه، من مصنفاته النحوية : الكافية وشرحها ونظمها، وفى التصريف الشافية وشرحها، وله الإيضاح فى شرح المفصل، والأمالي فى النحو. توفى سنة ٦٤٦هـ. أنظر بغية الوعاة ٢/١٣٤ .

(٢) فى قولـه تعـالى ﴿مـا فعلوه إلاّ قليـل منهم﴾ (سـورة النساء ٦٦) . قرأ السبعة غير ابن عامر بالرفع، وقرأ ابن عامر بالنصب «قليلا» . . . أنظر التصريح ١/٣٥٠، تفسير القرطبي ٥/٢٧٠ .



أختى العزيزة : « هــل » :

هذه هي الرسالة الثالثة عشرة، وسوف أحدثك فيها عن همزة الاستفهام الداخلة على أداة الشرط «إنْ» فى القرآن الكريم، لقد وردت هذه الهمزة فى ثلاث آيات :

الآيـة الأولى : قولـه تعـالى : **﴿ومـا محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتـل انقلبتم على أعقـابكم ومن ينقلب على عقبيـه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين﴾**. (الآية **١٤٤** من سورة آل عمران).

تتضمن هذه الآيـة الكـريمـة أن محمـداً ﷺ ما هوإلا رسول كغيره من الرسل الذين أرسلهم الله عز وجل إلى خلقه دعاة إليه وإلى طاعته ثم ماتوا وقبضهم الله إليه حين انقضت آجالهم، وبقى أتباعهم من بعدهم يلتزمون بما دعوا إليه، ومحمد مثله مثل أولئك الرسل جاء مبلغـا عن الله تعـالى داعيـا إليـه وإلى طاعتـه، وسـوف يموت ويقبضه الله إليه حين ينتهى أجله، وعلى أتباعه أن يلتزموا بما دعا إليه الجهاد فى سبيل الله تعالى، والصبر على طاعته، فلا ينبغى لأولئـك الـذين آمنـوا به وبصـدق ما دعاهم إليه، لا ينبغي لهم أن يصيبهم الفزع والهلع فينكصوا على أعقابهم فراراً من المعركة حين قيل فى معركة أُحُد إن محمدا قتل .

والله سبحانه وتعالى لا تنفعه طاعة من أطاع، ولا تضره معصية من عصى، فالله جلّ وعـلا غنيّ عن العـالمـين، فمن عمـل صالحـا فلنفسـه، ومن أسـاء فعليهـا، وسيجـزى الله الشاكرين الذين شكروا الله على نعمته عليهم بالإسلام، فجاهدوا فى سبيله، وصبروا على طاعته، وصدقوا الله فى الدفاع عن دينه، فثبتوا حتى انتهت المعركة أو استشهدوا فيها .

والشاكرون لفظ عام يندرج فيه كل شاكر فعلاً وقولاً وإن فُسّر هنا بالمجاهدين الثابتين فى معركة أحد .

وجاء الاستفهام فى قوله تعالى : ﴿أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ جاء مفيدا العتب والإنكار : فقد عتب الله سبحانه وتعالى على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ أن يصيبهم الفزع والهلع وأن يفروا من المعركة حين قيل لهم فى معركة أحد إن محمدا قتل، عتب عليهم ذلك وأنكره، فما كان ينبغى لهم أن يفعلوا ما فعلوا، كان يجب عليهم أن يثبتوا فى المعركة وأن يدافعوا عن هذا الدين الذى آمنوا به وبرسوله، سواء أكان حياً أم ميتا، فشريعة الله لا تموت بموت الرسول الذى بلّغها عن ربه، ودعا الناس إليها، فهى باقية إلى يوم القيامة يدافع عنها أتباعها الذين يؤمنون بها صادقين، ويجاهدون فى سبيلها حتى النصر أو الشهادة .

وإعراب هذا الاستفهام : ﴿أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ سهل واضح : فالفاء عاطفة، عطفت الجملة الشرطية التى بعدها على الجملة الخبرية التى قبل الهمزة و(**مات**) فعل الشرط فهو فى محل جزم بـ (**إن**) و(**انقلب**) جواب الشرط فهو فى محل جزم أيضا، والجار والمجرور (**على أعقابكم**) فى محل نصب حال من فاعل انقلبتم، والتقدير انقلبتم راجعين .

وهذا الذى تقدم من أن همزة الاستفهام قد دخلت على «**إن**» الشرطية وقد استوفت شرطها وجزاءها هو مذهب سيبويه .

وذهب يونس إلى أنّ فعل (**انقلبتم**) ليس جواب الشرط، وإنما هو الفعل المستفهم عنه، فهو مدخول الهمزة فينوى به التقديم، وتقدير الكلام عند يونس : أتنقلبون إن مات أو قتل، وجواب الشرط عنده محذوف دلّ عليه مدخول الهمزة المتأخر لفظا المتقدم تقديرا، وعلى مذهبه تكون (**إنْ**) مع شرطها معترضة بين الهمزة ومدخولها، وبرأي يونس أخذ كثير من المفسرين فى هذه الآية .

ولكن أبا البقاء العكبري ذكر فى كتابه «إملاء ما منّ به الرحمن» عند إعرابه هذه الآية أن مذهب سيبويه هو الحق لوجهين :

أحدهما : أنك لو قدّمت الجواب لم يكن للفاء وجه، إذْ لا يصح أن تقول أتزورنى فإن زرتك، ومنه قوله تعالى : ﴿**أفإن متّ فهم الخالدون**﴾ .

والثانى : أن الهمزة لها صدر الكلام، وإن لها صدر الكلام، وقد وقعا فى موضعهما، والمعنى يتم بدخول الهمزة على جملة الشرط والجواب لأنها كالشىء الواحد» اهـ .

وقال الزركشي فى كتابه البرهان : «وقد ردّ النحويون على يونس بقوله : (أفإن مت

فهم الخـالـدون)، ولا يجوز فى (فَهُمْ) أن ينـوى به التقـديم لأنـه يصـير التقـديـر : «أفهم الخـالـدون فإن مت»، وذلـك لا يجوز لئـلا يبقى الشـرط بلا جواب، إذ لا يتصـور أن يكون الجواب يدل عليه ما قبله، لأن الفاء المتصلة بإنْ تمنعه من ذلك، ولهذا يقولون : «أنت ظالم إن فعلت»، ولا يقـولـون : «أنت ظالم فإن فعلت» فدلّ ذلـك على أن أدوات الاستفهام إنما دخلت لفظا وتقديرا على جملة الشرط والجواب». اهـ.

وجاء فى شرح الرضيّ لكافية ابن الحاجب فى النحو ما يؤيّد قول العكبري وقول الزركشي .

وبنـاء على رأي سيبـويـه ومن ذهب مذهبـه يكـون مصبّ الاستفهام ومورده هو جملة الشـرط والجـواب معـاً، وعلى رأي يونس يكـون مصبّ الاستفهام ومورده هو جواب الشرط وإن لم يسمه يونس جوابا .

الآيـة الثـانيـة : قولـه تعـالى : **﴿ومـا جعلنـا لبشـر من قبلك الخلد أفـإن مت فهم الخالدون﴾**. الآية (٣٤) من سورة الأنبياء .

تتضمن هذه الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى قال لنبيه محمد ﷺ : لم نخلّد أحدا من بنى آدم قبلك يامحمـد فنخلّدك أنت، فلابـدّ من أن تموت كما مات من كان قبلك، ولن يخلّد الله أحـدا فى هذه الـدنيـا، فكـل نفس ذائقـة المـوت، وهؤلاء المشركون الذين يتمنون موتك ليشمتوا به هم ميتون على كل حال، فلا شماتة فى الإماتة .

وهـذا الاستفهـام : ﴿أفإن مت فهم الخالدون﴾ يفيد النفى والاحتقار : النفى على معنى لن يخلد الله تعالى هؤلاء المشركين فى هذه الحياة الدنيا، فكل نفس ذائقة الموت .

ويفيد الاحتقار على معنى إذا كنت أنت يامحمد على علوّ منزلتك وعظيم قدرك عند الله تعـالى سوف تموت، أفيخلد الله تعـالى هؤلاء المشـركـين وليس لهم من الفضـل ما يزن مثقال ذرة ! !

وإعراب هذا الاستفهام : ﴿أفإن متّ فهم الخالدون﴾ سهل واضح . فالفاء عاطفة عطفت الجملة الشـرطيـة التى بعـدهـا على الجملة الخبرية التى قبلها، و(متّ) مؤلفة من (مـات) وهـو فعـل ماض فى محل جزم فعـل الشـرط، ومن التـاء ضمير المخاطب المبني على الفتح فى محل رفع على الفاعلية، وجملة (فهم الخالدون) المؤلفة من الفاء الواقعة فى جواب الشرط ومن المبتدأ أو الخبر فى محل جزم جواب الشرط وقد قرىء فعل الشرط السابق (مُتّ)

بضم الميم وكسرها : فعلى قراءة الضم يكون الفعل على لغة مات يموت مثل صام يصوم وقام يقوم، وأصله : مَوَتَ يمْوُت (بفتح الواو فى الماضى وضمها فى المضارع) من باب نصَر ينصُر.

وحين أسند الفعل الماضى (مات) على هذه اللغة إلى ضمير الرفع المتحرك سُكِنّ آخره وحذفت الألف لالتقاء الساكنين، وضُمّت الميم للدلالة على أن الألف المحذوفة من هذا الفعل الماضى منقلبة عن واو .

وعلى قراءة كسر الميم (مِتّ) يكون الفعل على لغة مات يمات مثل خاف يخاف ونام ينام، والأصل : موِت يموَت (بكسر الواو فى الماضى وفتحها فى المضارع) من باب علم يعلم، وحين أسند هذا الفعل الماضى على هذه اللغة إلى ضمير الرفع المتحرك سكنّ آخره وحذفت الألف لالتقاء الساكنين، وكسرت الميم للدلالة على أن حركة الحرف الأصلى الذى انقلبت عنه الألف فى الماضى كانت كسرة .

الآية الثالثة : فى قوله تعالى : ﴿**واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون(١٣) إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنّا إليكم مرسلون(١٤) قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون(١٥) قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون(١٦) وما علينا إلا البلاغ المبين(١٧) قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكّم وليمسّنّكم منا عذاب أليم(١٨) قالوا طائركم معكم أإن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون(١٩)**﴾ . (الآيات : ١٣-١٩) من سورة يس .

تتضمن هذه الآيات الكريمة حواراً بين رسل أرسلهم الله تبارك وتعالى إلى أهل قرية لم يسّمها كانوا يعبدون غيره، وبين أهل تلك القرية، وفى آخر هذا الحوار قال أهلها لأولئك الرسل : لقد كنتم شؤما علينا ولإنْ لم تنتهوا عما تدعوننا إليه لنرجمنّكم بالحجارة وليصيبنكمّ منا عذاب أليم، فقال لهم الرسل شؤمكم معكم وفيكم، فهذا الضلال الذى أنتم فيه هو شؤمكم، أَإنْ دعوناكم إلى الهدى ونهيناكم عن الضلال وبيّنا لكم فساد ما أنتم عليه، تشاءمتم بنا وتوعدتم وتهدّدتم؟!! بل أنتم قوم مسرفون فى الضلالة ممعنون فى الغيّ .

وهذا الاستفهام : ﴿**أإنْ ذكرتم**﴾ يفيد الإنكار والتوبيخ : فقد أنكر الرسل على أهل القرية أن يتشاءموا منهم وأن يجعلوا من دعوتهم إلى عبادة الله وحده ونهيهم عن عبادة الأصنام التى لا تضر ولا تنفع، أن يجعلوا من ذلك طيرة وشؤما، وكان ينبغى بدلا من ذلك أن يفرحوا بقدومهم وأن يستجيبوا إلى ما دعوهم إليه، وأن يشكروا الله تعالى أن هداهم للإيمان .

لقد أنكر الرسل على أهل القرية ذلك ووبخوهم عليه، وقالوا لهم فى نهاية إنكار والتوبيخ : بل أنتم قوم مسرفون قد تجاوزتم الحدّ فى الضلال والظلم والعدوان، ومن هنا جاءكم الشؤم وأنزل الله بكم المصائب .

وإعراب هذا الاستفهام : ﴿أَإِن ذُكِّرتم﴾ سهل واضح : فـ (ذُكّر) من ذُكرتم فعل ماض مبنى للمجهول، ولك أن تقول فى إعرابه مبنيّ على فتح مقّدر منع من ظهوره السكون العارض لأجل اتصاله بضمير رفع متحرك، ولك أن تقول مبني على السكون لاتصاله بضمير رفع متحرك، والفعل على الإعرابين فى محل جزم بإن الشرطية و(تم) ضمير فى محل رفع نائب فاعل، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه الكلام السابق، وقد قدّره العكبرى : كفرتم، فيكون تقدير الكلام عنده : أإن ذكرتم كفرتم. وقدّره أبو السعود فى تفسيره : أإن ذكرتم تطيّرتم وتوعدتم بالرجم والتعذيب .

أختى العزيزة « هـل » :

بهذا تنتهى رسالتى إليك عن همزة الاستفهام الداخلة على (إنْ) الشرطية، وسوف أحدثك فى الرسالة القادمة إن شاء الله تعالى عن همزة الاستفهام الداخلة على (إذا) الشرطية، وأسأله تعالى أن يعين ويسدد ويوفق .

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته،،،

أختك

همزة الاستفهام

مراجع هذه الرسالة

(أ) المراجع على وجه الإجمال :

١ ـ تفسير أبى جعفر بن جرير الطبرى/ الطبعة الثالثة/ الناشر : شركة الحلبى بمصر .

٢ ـ تفسير البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى / الناشر : مكتبة ومطابع النصر الحديثة بالرياض .

٣ ـ تفسير أبى السعود/ الناشر : مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد بالقاهرة .

٤ ـ الفتوحات الإلهية المعروفة بحاشية الجمل على الجلالين/ الناشر : الحلبى بمصر .

٥ ـ تفسير ابن كثير / الناشر : الحلبى بمصر .
٦ ـ تفسير القرطبى / الطبعة الثالثة المصورة عن طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة .
٧ ـ الكشاف للزمخشري / الناشر : الحلبى بمصر .
٨ ـ إملاء ما منّ به الرحمن للعكبرى / الطبعة الأولى / الناشر : الحلبى بمصر .
٩ ـ شرح الرضي على الكافية فى النحو / طبعة مصورة / الناشر : دار الكتب العلمية بيروت .
١٠ ـ البرهان فى علوم القرآن للزركشي / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم / الطبعة الثانية / الناشر : عيسى الحلبى وشركاه بمصر .

(ب) المراجع على وجه التفصيـــل :

١ ـ الآية الأولى : (١٤٤) من سورة الأنعام :
الطبرى : (جـ٤ ص١١٠) ـ البحر المحيط : (جـ٣ ص٦٨) ـ أبو السعود : (جـ٢ ص٩٢) ـ الفتوحات : (جـ١ ص٣١٩) ـ ابن كثير : (جـ١ ص٨٨) ـ الزمخشرى : (جـ١ ص٤٦٨) ـ القرطبى : (جـ٤ ص٢٢٦) ـ العكبرى : (جـ١ ص١٥١) ـ الزركشى : (جـ٢ ص٣٦٦) ـ شرح الكافية : (جـ٢ ص٣٩٤).

٢ ـ الآية الثانية : (٣٤) من سورة الأنبياء :
الطبرى : (جـ١٧ ص٢٤) ـ البحر المحيط : (جـ٦ ص٣١٠) ـ أبو السعود : (جـ٦ ص٦٦) ـ الفتوحات : (جـ٣ ص١٢٧) ـ ابن كثير : (جـ٣ ص١٧٨) الزمخشرى : (جـ٢ ص٥٧٢) .

٣ ـ الآية الثالثة : (١٩) من سورة يس :
البحر المحيط : (جـ٧ ص٣٢٧) ـ ابن كثير : (جـ٣ ص٥٦٧) ـ العكبرى : (جـ٢ ص٢٠٢) ـ أبو السعود : (جـ٧ ص١٦٣) ـ تفسير الجلالين : (هامش الفتوحات) : (جـ٣ ص٥٠٧) .



محتويـــات العـــــدد

الموضـــــوع		الصفحة



مطابع الجامعة الإسلامية
بالمدينة المنورة

Journal of

THE ISLAMIC UNIVERSITY

OF MADINAH MONAWWARAH

RAJAB — DHU AL-HEJJAH
1404 H.

[QUARTERLY]

16 th Year

63 - 64